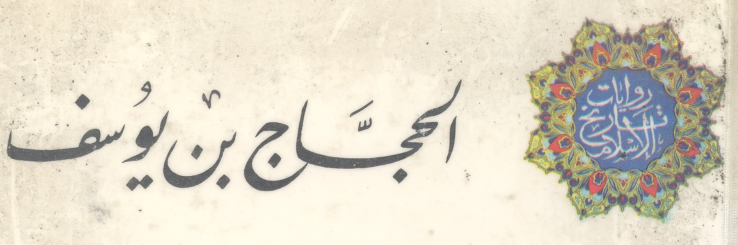
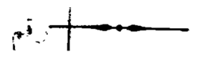


الحجاج بن يوسف

جرجي زيدان

الحجاج بن يوسف

تتضمن حصار مكة على عهد عبد الله بن الزبير الى
فتحها ومقتله وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان.
مع ما يتخلل ذلك من وصف مكة والمدينة



جرجي زيدان

المكتبة الادبية - بيروت

أبطال الرواية

✿ **عبد الله بن الزبير**	: ابن الزبير بن العوام
✿ **عبد الملك بن مروان**	: أحد ملوك بنى امية
✿ **الحجاج بن يوسف الثقفى**	: عامل عبد الملك على العراق
✿ **سكينة بنت الحسين**	: بنت الحسين بن على
✿ **ليلى الاخيلية**	: الشاعرة المشهورة .
✿ **عزة الميلاء**	: زعيمة الغناء بالمدينة
✿ **سمية بنت عرفجة الثقفى**	: من فتيات المدينة
✿ **حسن خطيب سمية**	: من اهل العراق
✿ **محمد بن الحنفية**	: اخو الحسين بن على
✿ **عبد الله بن صفوان**	: من اتباع ابن الزبير

مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هى التى اعتمد عليها المؤلف فى تأليف الرواية ووقائعها التاريخية

✿ صفوة الاعتبار ✿ المستطرف
✿ مراصد الاطلاع ✿ الدر المنثور
✿ الأغانى لأبى الفرج الاصفهانى ✿ مشكاة المصابيح
✿ التقويم العام ✿ البخارى
✿ البيان والتبيين ✿ مقدمة ابن خلدون
✿ تاريخ : ابن هشام ــ ابن الأثير ــ الدميرى ــ ابن خلكان ــ الفخرى ✿ أسد الغابة
✿ العقد الفريد

فذلكة تاريخية

انتهينا فى رواية « غادة كربلاء » الى مقتل الحسين بن على واهله فى كربلاء بجوار الكوفة ، وما تلا ذلك من وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ . وكان عبد الله بن الزبير ما زال فى مكة يدعو الى بيعته وقد خلا له الجو بعد موت الحسين . وكان يزيد قد بعث لقتاله جندا بقيادة الحصين بن نمير ، فحاصروه بمكة ، ثم جاء الخبر بوفاة يزيد وهم فى الحصار . ولم يكن من ابناء يزيد من يصلح للخلافة ، فراى الحصين أن الامر لايستتب الا بمبايعة عبد الله بن الزبير . فطلب اليه ان يحقن الدماء ويقدم معه الى الشام ليبايعه فأبى عبد الله . فارتحل الحصين الى الشام بمن معه ودانت الحجاز لابن الزبير

اما اهل الشام فبايعوا بعد موت يزيد ابنه معاوية (الثانى) . ولكن هذا لم يعش الا اياما ، فاختلفوا فيمن يبايعون بعده . وكان من امراء بنى أمية وقتئذ مروان بن الحكم ، وقد تولى امارة المدينة فى عهد يزيد، فلما علم بموته عاد الى الشام ، فبايعوه . وكان شيخا طاعنا فى السن ، فتزوج أم خالد بن يزيد ليصغر نفس خالدعن طلب الخلافة. ويكتسب حزبه . ولكنه لم يحكم الا تسعة اشهر وبضعة عشر يوما ، اذ خنقته امراته هذه سنة ٦٥ هـ . فولوا مكانه ابنه عبد الملك بن مروان . وفى أيام هذا الخليفة زهت دولة بنى أمية وتأيد سلطانها

واما اهل الكوفة فانهم بعد مقتل الحسين ندموا على تخليهم عنه وقاموا يطالبون ابن زياد واصحابه بدمه وسموا انفسهم التوابين

وفى سنة ٦٦ هـ . ظهر فى الكوفة رجل اسمه المختار بن أبى عبيد ، قام يطالب بدم الحسين ويدعو الناس الى بيعة ابن الزبير ، فحارب الامويين وقتل قتلة الحسين وفيهم عبيدالله بن زيادوشمربن ذى الجوشن وخولى الاصبحى وعمر بن سعد وغيرهم . على انه ما لبث أن غير

دعوته ، فاخذ يدعو الى بيعة محمد بن الحنفية اخى الحسين لأبيه ، وزعم ان جبريل يظهر له ، واتخذ كرسيا قال ان فيه سرا مثـل سر تابوت العهد عند اليهود

فلمـا استفحل أمر المختار فى الـكوفة ودان له العراق ، أصبحت الخلافة يتنازعها ثلاثة : عبد الملك فى الشام ومصر ، والمختار فى العراق والكوفة ، وعبد الله بن الزبير فى الحجاز . وغضب عبـد الله على المختار لنقضه بيعته فبعث لقتاله جندا بقيادة أخيه مصعب بن الزبير، فقتلوه ودانت العراق لعبد الله ، ولم يبق لبنى امية غير الشام ومصر

ولكن عبد الملك بن مروان ما لبث ان حمل على مصعب فى العراق بجند كثيف فقتله سنة ٧١ هـ . واسترجع العراق . وبعث جندا الى الحجاز ففتح المدينة ، ثم ارسل الحجاج بن يوسف الثقفى فى جنـد لفتح مكة وفيها عبد الله بن الزبير ، فحاصرها وطلب الى عبد الله أن يسلم فأبى . فدخلت سنة ٧٣ وابن الزبير محصور فى مكة وقد قل زاده وفارقه رجاله

ومن هنا تبدأ حوادث هذه الرواية



عزة الميلاء وليلى الأخيلية

المدينة او « يثرب » هى مدينـــة الرسول وفيها قبره ومسجده . وكان يحيط بها ســـور وخندق ، وهى واقعة فى منبســـط من الارض تكتنفها الآجام والغياض ، وتتخلل أبنيتها البســـاتين والحدائق واكثر مغارسها من النخل . وقد عمرت فى صدر الاسلام ، حتى كانت أيام يزيد بن معاوية فهاجر منها كثير من اهلها لكثرة الفتن والحروب فى ايامه ، ولكنها ما زالت آهلة بالناس ، وفيها أهل البيت

وكان من اهل المدينة فى أواسط القرن الاول للهجرة مغنية يقال لها « عزة الميلاء » . وكانت مولاة للأنصار، وهى أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء فى الحجاز . وقد سميت «الميلاء» لتمايلها فى مشيتها لفرط سمنها . وكان العود حديث العهد عند العرب فأجادت العزف عليه ، عدا ما كانت تحسنه من العزف بالمزاهر وبقيـــة آلات الطرب ، وكانت جميلة الوجه ظريفة اللسان كريمة الخلق سخية النفس لايقدم قادم الى المدينة الا التمس ان يراها ويسمع غناءها

وكان العرب يومئذ لايعدون الغناء من الصنائع اللائقة بأهل الشرف، على أن عزة كانت مع ذلك ذات دين حسن وهيبة ووقار ، اذا جلست للغناء فى حفل عام ، أنصت لها الحاضرون وكأن الطير على رؤوسهم

وكانت دارها فى اقصى شمال المدينة مما يلي طريق الشـــام ، يحيط بها بستان من النخيل تتخلله اشجار الفـــاكهة من البرتقال والتفـــاح ، وعليه سور قليل الارتفاع له باب بمصراع واحد فى وسطه خوخة . وفى بعض جوانب البستان حظيرة مبنيـــة من سعف النخل توضـــع فيها الدواب . وللدار باحة كبيرة فى كل من جانبيها غرفتان ، وفى الصـــدر قاعة واسعة تجلس فيها عزة لمقابلة الزوار ، وفى باحة الدار نخلات متقاربة تظلل الباحة فى اثناء النهار

ففى يوم من ايام ربيع الآخر ســـنة ٧٣ للهجرة (وهو يوافق شهر اغسطس سنة ٦٩٣ م) قضت عزة الميلاء نهارها فى بيتها . وكان يوما شديد الحر ، والحر ثقيل هناك للرطوبة المتكاثفة مما يتصاعد من ابخرة المستنقعات والاشـــجار . فلمـــا دنت الشمس من الغروب دخلت الى

مخدعها فأخرجت قارورة من الطيب فتطيبت ، وبدلت ثيابها فالتحفت ملاءة معصفرة لونها اصفر زاه ، وكشفت النقاب عن راسها لشدة الحر مع خلو المكان من الرجال ، وارادت ان تتناول عشاءها على سطح البيت تحت قبة السماء

وكانت يومئذ فى نحو الخمسين من عمرها وقد تزايد سمنها وذهبت استدارة وجهها وارتخى خداها واستطالا الى اسفل الذقن ، وثقل بدنها حتى لم يكن فى المدينة دابة تحملها . وكانت قلما تنتقل من بيتها والناس يفدون عليها لسماع غنائها او ضرب عودها ويحملون اليها الاموال والهدايا من الحلى والجواهر ، حتى ملأت معصميها بالاساور والدمالج وطوقت عنقها بالعقود ، وضفرت شعرها بسلاسل الذهب والدنانير ، وعلقت فى اذنيها قرطين كبيرين يتناسبان مع حجم اذنيها لأنها كانت كبيرتهما مع تناسب التكاسير . وكذلك آذان أهل الغناء والموسيقى فى الغالب

وكان الرجل من اهل الوجاهة اذا اراد التزوج بفتاة لايعرفها استشار عزة ووسطها فى خطبتها او استطلاع مدى جمالها وصحتها

وكانت عزة قد قضت ذلك اليوم ولم تعمل عملا لشدة الحر ، وعندها فتاة من نزالة المدينة اسمها «سمية» كانت تحبها وتأنس بها . وكانت الفتاة ترتاح الى عزة وتكاشفها بسرها وتستشيرها فى أمرها ، وقد جاءتها يومئذ وعليها ثوب احمر يكسوها كلها . وكانت معتدلة القامة صحيحة الجسم اذا نظرت الى تقاطيع وجهها افرادا لاترى جمالا باهرا ، ولكن فى عينيها مايدل على الذكاء والحب ، وحول ثغرها ابتسامة تأخذ بالعقول ، حتى كانت وهى فى اشد اضطرابها قلما تبدو الكآبة فى وجهها . وربما زاد ذلك فى هيبتها . وفى ذقنها اندفاع قليل الى الامام مع بروز ، وهو دليل الانعطاف ، وفى انفها ذلف قليل يزيدها مهابة . وكانت فى نحو الثالثة والعشرين من عمرها

فلما أرادت عزة الصعود الى السطح امرت جارية لها ان تفرشه بالأبسطة وتعد عليه المائدة ، وامسكت ضيفتها بيدها وقالت لها مداعبة : « هلم بنا الى السطح ياسمية واتركى الهموم جانبا ، وتعالى لأريك يثرب وضواحيها من سطح بيتى فانها من اجمل مايكون ، ولا تعجلى فى العودة الى بيتكم فما اظن اباك قد عاد اليه بعد »

فمشت الفتاة وراءها وقد ارتاحت لقولها وارادت نسيان ما يجول فى خاطرها من دواعى الهموم ، وصعدتا على سلم من خشب كان يهتز تحت قدمى عزة ، حتى وصلتا الى السطح وقد انتهت الجارية من اعداد المائدة . فجلست عزة واجلست سمية الى جانبها ، ولاحظت انها

مازالت مضطربة البال فأرادت أن تصرف ذهنهـا الى شيء آخر فلم تر خيرا من ان توجه التفاتها الى ما يحيط بالمدينة من بساتين النخيل وما بينها من برك الماء والمستنقعات فقالت لها : « تأملي يا بنيـة في هذه البساتين الواسعة وراء سور المدينة فان نظرك لايقف في آخرها الا على التلال البعيدة ، ولاسيما هذا الجبل ، وهو جبل احد الذي جرت فيـه الوقعة الشهيرة بين النبي (صلعم) وقريش . وذكر هذه الوقعة يؤلمني لأن الغلبة فيها كانت للقرشيين وقتل من المسلمين سبعون رجلا وأصيب النبي بجراح وقتل عمه حمزة »

فقالت سمية : « وهل شهدت تلك الوقعة ؟ »

قالت : « كلا ، فقد حدثت منذ سبعين سنة فكيف اشـهدها ؟ » . ثم عادت الى اتمام كلامها عن تلك المناظر فقالت : « واني ليعجبني مناظر المياه حوالي غروب الشمس . انظري الى هذه البحيرة فان ماءها ساكن كأنه صفحة من الفضة اللامعة ، وظلال النخيل تتراءى على شـواطئها مقلوبة كأنها مردة من الجان غائصون في الماء »

وكانت الشمس لما دنت من المغيب قد ارسلت أشعتها منحرفة على تلك المغارس فاستطالت ظلال النخيل ومازالت تستطيل وتضعف حتى اختلطت بالظلام

وأما سمية فكانت تسـاير عزة فيما تقول وبصرها شـائع في تلك البحيرة بالرغم عنها والبصر اذا اطلق سراحه يطلب النور . وكان سطح البحيرة بعد ان غابت الشمس مازال يلمع بفعل انعكاس الشفق عليه ، وظلال النخيل فيه واضحة عليه وضوح الخطوط السود على الصفحة البيضاء . وبعد قليل لم يعد يظهر للرائي غير سطوح المياه وما يبـدو فيها من ظلال الاشجار

□

اشتغلت عزة وسمية عن الطعام والكلام بالتأمل في ذلك المنظر البديع ثم همت عزة بالطعـام ودعت سميـة الى مشاركتها فيـه ، وجعلت تقطع من لحم الدجاج وتناولها فتـأكل وعيناها شاخصـتان الى تلك المناظر ، ثم عادت عزة الى محادثتهـا فقالت لها : « مالي أراك صـامتة ياسميـة ، هل تفكرين في تأخر عودتك وتخافين أن ينقم عليـك أبوك لهذا ؟ . انه إذا علم أنك عند عزة فلن يلومك »

وتوقعت عزة أن تسمع من سمية جوابا ، ولكنها رأتها تحدق النظر في تلك البحيرة ، وآنست في وجهها بغتة وقد توقفت عن المضغ واللقمة لاتزال في فمها ، وقطبت حاجبيها وحددت بصرها ، فأعادت عزة سؤالها ،

فاجابتها سـمية وهي تشير بيدها الى البحيرة : « كأني ارى النخيل تنتقل فى الماء . . ماهذا . . ؟ ماذا ارى ؟ »

فالتفتت عزة الى جهة البحيرة فرات ظلالا تتحرك فى الماء بين ظلال النخيـل ، ولكنها لم تر الأشباح على الجرف لان الظلام حجبها بينما انعكاس الشفق على سطح الماء أبداها فقالت : « انك ترين ظل شبح سائر بجانب البحيرة » . وتفرست عزة قليلا ثم قالت : « ان الذى نراه ظل شبحين اظنهما فارسين مارين بين النخيل على حافة الجرف ، لا بل هما جملان وعليهما رجلان . اليس كذلك ؟ »

قالت سمية : « بلى ، هما جملان . ويخيل الى انهما ماشيان على سطح الماء ! »

فضحكت عزة وقالت : « انك ترين ظليهما يا بنية ، وارى الآن شبحا ثالثا اظنه جملا ثالثا » . ولم يمض قليل حتى توارت الأشباح فقالت عزة : « لا تقلقى ، ليس ما ترين الا أناسا أظنهم قادمين الى المدينة من دمشق ، وما هذه أول مرة رايت مثل هذا المنظر ، فعودى الى طعامك فقد برد الهواء وانفثات حمأة القيظ ، ومتى فرغنا من الطعام اسمعك صوتا تلقنته عن استاذتى رائقة »

فعادتا الى الاكل وهما لا تتكلمان ، ولم تكادا تفرغان من الطعام حتى تكاثف الظلام واحتاجتا الى الضوء . فصفقت عزة فجاء رجل فى نحو الستين من عمره ما زالت آثار الجمال بادية فيه ، وهو نظيف الثوب حسن الهندام . فلما راته سمية غطت وجهها ، فضحكت عزة وقالت : « اتحتجبين من مخنث ؟ » . ولم تكن سمية قد عرفته فى الظلام

وكان فى المدينة جماعة كبيرة من هؤلاء المخنثين ، يخالطون النساء ، واكثرهم يحبون الغناء ويحسنونه . وكان من أراد خطبة امرأة سأل عنها أحد المخنثين فيصفها له ، ثم يتوسط بينه وبينها حتى يتزوجها. وكان أكثر هؤلاء المخنثين يترددون على عزة ويتقربون اليها ليستفيدوا منها تعلم الأصوات

فلما وقفْ ذلك المخنث بين يديها قالت : « ما جاء بك يا طويس ؟ »

فلما سمعت سمية اسم طويس قالت : « اطويس هذا ؟ »

قالت : « هو بعينه ، ولا تعجبى من أنه جاء على غير موعد فان ذلك دأبه معنا » . ثم التفتت اليه وقالت : « يا طويس قل للجارية تضىء لنا الشموع فاننا سننزل بعد قليل »

قال : « أفعل ذلك بشرط »

قالت : « وما هو ؟ »

قال : « تغنين لى شعرا على الهزج »

قالت : « اتطلب أن أغنى لك الهزج وانت اهزج الناس ؟ الا سألتنى ان أغنى من الثقيل أو الرمل ؟ »

قال : « لا أبالى اى صوت وانما اقترح عليك شعرا تغنينه »

قالت « افعل ان شاء الله ، ولكنى اخاف من وجهك فانه مشئوم »

قال : « وأكثر من مشئوم ، فان أمي ولدتنى ليلة قبض النبى (صلعم) . وفطمت ليلة مات أبو بكر ، وبلغت الحلم ليلة قتل عمر ، وزففت الى اهلى ليلة قتل عثمان ، وولد لى يوم قتل على ! »

فضحكت عزة لخفة روحه وقالت له : «أرجو الا يكمل شؤمك علينا الليلة ، فامض أعزك الله وافعل ما قلته لك »

□

نزل طويس ، وبعد قليل نزلت عزة وسمية ودخلتا القاعة المعدة لاستقبال الأضياف . وجلست عزة على مقعد ، والارض مفروشة بالطنافس وحولها الوسائد وقد أوقدت فيها الشموع . وجلست سمية بجانبها وعادت الى هواجسها . واما طويس فانه تناول دفا مربعا كان معلقا على الحائط بين طائفة من الاعواد والمزاهر والدفوف ، ورماه فى حجر عزة

فقالت : « ويلك ! ماذا تريد ؟ »

قال : « بأبى انت وأمى . اريد ان أسمع غناءك »

قالت « تمهل يا طويس ريثما أستريح »

وفيما هى تكلمه سمعت هدير الجمال بقرب باب البستان فقالت : « انظر يا طويس من جاءنا الليلة . . انى أخشى أن يكون شؤمك قد وصل الينا »

قالت سمية : « واى شؤم تخافين ونحن فى أمان ؟ ! »

قالت وقد خفضت صوتها : « ما اظننا فى أمان واميرنا اليوم يأكل المخ ويأكل فوقه التمر على منبر رسول الله (صلعم) . اذهب يا طويس وانظر من القادم »

فهرول طويس الى نعليه ولبسهما ، ومشى وهو يتظاهر بالمجون فى مشيته حتى قطع البستان وانتهى الى باب الدار وفتح خوخة الباب واطل منها ، فرأى جملين بجانبهما رجلان : احدهما قد تلثم بالكوفية

والتف بالعباءة ، والآخر قصير غير ملثم يشبه أن يكون خادما . فقال لهما : « من أنتما وماذا تريدان ؟ »

فأجابه الطويل بصوت كأنه هدير الجمل وقال : « اليس هذا بيت عزة الميلاء ؟ »

قال : « بلى وماذا تريد منها ؟

قال : « أريد الدخول اليها »

قال : « ومن انت ؟ الا انتسبت ؟ »

قال : « لا أنتسب »

قال : « أتريد الدخول وأنت ملثم كما ارى ؟ ! »

قال : « نعم »

قال : « دعني أستأذن لك » . وعاد طويس الى عزة واخبرها بما رآه . فلما سمعت سمية قوله تحفزت للقيام وقالت لعزة : « دعيني أنصرف الى ابي فقد طال مكثي عندك اليوم ، ولا سيما اني ارى رجالا قادمين اليك ولا يليق بي البقاء معهم »

قالت : « لك الخيار يا بنية ، ولكن اذا انصرفت فلا تطيلي الغياب ، وليكن خروجك من الباب الخلفي للدار ، وذهابك من الطريق القريب الذي تعرفينه » . فودعتها وانصرفت ، وجعل طويس يشيعها ببصره حتى توارت عنه ، ثم التفت الى عزة واشار بضم انامله وزم شفتيه الى أنها جميلة . فأومأت اليه ان يصمت ثم قالت : « أخرج الى الطارق واطلب اليه أن يريك وجهه أو يذكر لك اسمه »

فذهب طويس وبعد غياب طويل عاد وهو يقول لعزة : « ان صاحبنا من اهل البادية ويهوى الغناء ، وقد جاء لسماع عزة الميلاء ، وقد سألته عن اسمه فأبى أن يخبرني به ، ولما الححت عليه قال انه لا يقول اسمه ولكنه أنشدني هذين البيتين :

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها   فليس اليهـا ما حييت سبيل

لنا صاحب لاينبغي أن نخونه   وانت لأخرى صاحب وخليل

« وطلب ان أخبرك انه قائلهما »

فلما سمعت عزة قول طويس بغتت وتبسمت ، ولولا ثقل بدنها لوثبت الى البابلاستقبال ذلك الضيف . فقال لها طويس : « ما بغتك يا عزة ؟ »

قالت : « ألا تعرف قائل هذا الشعر ؟ »

قال : « كلا . . . ومن هو ؟ »

قالت : « لو انى سمعت لفظ قائله لعرفته ولو كان فى غير هـذا الشعر . الم تر أنه يلفظ حرف المضارعة مكسورا مثل أهل بهرا ؟ »

قال : « اظننى لحظت ذلك فيه ، ولكن ماذا فى هذا ؟ »

قالت : « ويلك ! هذه ليلى الأخيلية الشاعرة وهذا الشعر شعرها وهى تكسر حرف المضارعة فى لفظها ايضا »

قال طويس : « اذا كانت هذه هى ليلى فقد تم حظنا ، لأنى اسمع بشعرها وحديثها مع توبة الذى كان يهواها ، فهل أدعوها ؟ »

قالت : « كيف لا وهى صديقتى ويندر أن تنزل الى المدن الا لحاجة ماسة لأنها تقطن البادية »

فأسرع طويس مهرولا حتى اتى الباب ففتحه ، ورحب بليلى وجعل ينظر الى قامتها ويلاحظ مشيتها وهى ملتفة بالعباءة وطولها يندر فى النساء . ولكنه لم يتمكن من رؤية وجهها لأنها كانت ما زالت ملثمة فدخلت البستان وأشارت الى خادمها أن يدخل الجملين الى الحظيرة ومشت تخطر فى مشيتها وطويس يمشى وراءها ويتأمل قامتها وحسن مشيتها واللثام محيط برأسها ووجهها جميعا

فلما اقبلت على القاعة نهضت عزة وسارت لاستقبالها عند الباب وهى تقول : « مرحبا بليلى ، اهلا بك يا حبيبة . لقد بالغت فى الاختفاء حتى اسأنا معاملتك واخرناك » . قالت ذلك وتناولت وسادة فوق البساط وثنتها وأجلستها عليها

فقالت ليلى بصوتها الجهورى الذى لا يكاد يشبه أصوات النساء : « لا بأس عليك ، وان لم يكن ذلك ذنبى لأنى كنت أحسبك تعرفيننى من صوتى ولهجة كلامى »

كان طويس واقفا بالبـاب يتشوق لرؤية وجه ليلى ولـكنها بقيت ملثمة لا تلتفت الى طويس كأنهـا تتوقع خروجه لتخلو الى عزة . فأدركت هذه مافى نفسها فقالت : « لاتحتجبى يا ليلى منه ، انه طويس المغنى »

فضحكت ليلى ونظرت الى طويس وازاحت اللثام وهى تقول : « أهذا هو طويس المشهور بالشؤم ؟ لقد تم سرورنا بلقياه ! »

فلما أزاحت النقاب بان تحته وجه يتدفق مهابة وعينان دعجاوان ، وثغر حسن ، وآثار الصحة بادية فى وجهها من سكنى البر . فدهش طويس من جمالها ، ولما رأى استئناسها به فرح وقال وهو يمشى نحو البساط الذى كانت هى جالسة عليه : « ان سرورى تم بلقياك أيتها الشاعرة البارعة . وقد كنت اعجب لما اسمعه من شغف توبة بك

واشادته فى الأشعار بذكرك وانت زوجة لسواه . فلما رايت هذا الوجه علمت السر الذى دعاه الى ذلك »

فلما سمعت ليلى اسم توبة علا وجهها الاحرار وكانهـا خجلت وطاطات راسها حياء ، ثم رفعت بصرها اليه وقالت : « وهل سمعت شيئا من قوله ؟ »

قال : « سمعت كثيرا ، ولكننى اذكر هذه الابيات فقط :

ولو ان ليلى الاخيلية سلمت على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة ، أو زقا اليها صدى من جانب القبر صائح
واغبط من ليلى بما لا أناله الا كل ما قرت به العين صالح

ولم يتم كلامه حتى اصفر وجه ليلى . وأدركت عزة ذلك فيهـا فأحبت الترفيه عنها فدعتها الى الطعام والغسل ، فشكرتها وذكرت انها لا تحتاج الى شيء من ذلك ، وانما جاءت لزيارتها ساعة لتسمع حديثها وتطرب بغنائها ثم تنصرف

فقالت عزة : « لعلك قادمة من الشام ؟ »

قالت : « نعم وقد وصلت الي المدينة الساعة ، وكان معى رفيق خليته فى مكان وجئت اليك على أن اعود اليه عاجلا »

فتذكرت عزة الأشباح التى راتها وسمية على شاطىء تلك البحيرة فقالت : « اظننى رايت أشباحكم عند الغروب بين النخيل »

قالت : «كنا ثلاثة وصلنا عندالغروبالى ضاحية المدينة على جمالنا»



حكاية ليلى مع توبة

فايقنت عزة انها هى التى كانت مع الركب ، وقالت تداعبهـا : « أتحبين توبة ؟ »

فقالت ليلى : « ماذا تعنين ؟ »

قالت : « أعرف انك تحبين توبة ، واسمع أنه شاب جميل شجاع ، وانه يحبك . فكيف تزوج غيرك وتزوجت أنت غيره ؟ »

فقالت ليلى وقد زاد احمرار وجهها : « دعينا يا عزة من هذا الحديث، واسمعينا صوتا يروح عن النفس وينسينا تعب الطريق »

فلم تشأ عزة ان تلح عليها ، ولكنها عمدت الى الحيلة فقالت : « صدقت ان الذكرى تؤلم » . ثم التفتت الى طويس وقالت : « هات الدف »

فناولها طويس دفا فنقرت عليه وغنت :

وكنت اذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابنى منها الغداة سفورها
على دماء البدن ان كان بعلها يرى لى ذنبا غير أنى أزورها

ولم تتم هذين البيتين حتى تململت ليلى وامتقع لونهـا وقالت : « ما هذا يا عزة ؟ أراك تلحين لتعلمى سبب فراقى توبة »

فضحكت عزة وتجاهلت وهى تقول : « وما لهذا الشعر ولك ؟ هل توبة قاله فيك ؟ »

قالت : « أتتجاهلين ؟ ما دمت مصرة على سماع حديثى مع توبة فسأقصه عليك وان كان ذكره يؤلمنى . اعلمى يا أخية ان عاداتنا نحن معاشر البدو غير عادات الحضر أهل المدن أمثالكم . فان الرجل منكم اذا أحب فتاة تزوجها . وأحسن الزواج ما يكون على حب . وأما نحن فاذا عرف أهل الفتاة أن شابا يحبها وتحبه منعوه منها ، وهذا ما وقع لى مع توبة فانه كان يحبنى ويقول فى الشعر ، فلما خطبنى الى ابى ، رفض أن يزوجنى به ، وزوجنى برجل من بنى الادلع هو زوجى الى الآن ، ولم يكتفوا بذلك ولكنهم اهدروا دم توبة ومكثوا له فى الموضع الذى يلقانى فيه حتى اذا جاءنى هموا بقتله . وكنت اذا جاءنى قبل ذلك تبرقعت واحتجبت منه على عادتنا . ففكرت فى حيلة أحذره بها

غدرهم بحيث لا يشعرون ، فلم ار خيراً من ان اغير عادتي معه فلما جاءني في ذلك اليوم خرجت اليه سافرة وجلست في طريقه . فلما رآني على تلك الحال فطن لما اردت وركض فرسه فنجا ثم نظم في ذلك قصيدته التي مطلعها :

نأتك بليـــلى دارها لا تزورها وشطت نواها واستمر مريرها

« ومنها البيتان اللذان غنيتهما . وهي طويلة »

□

وكانت عزة قد سمعت القصة من قبل ، ولـكنها ارادت أن يسمعها طويس . فلمـا فرغت ليلى من حديثها قالت عزة : « اني لم اكن اجهل حديثك هذا ولا غيره ، ولولا ذلك ما عرفتك من البيتين اللذين بعثت بهما تعرفينني بنفسك . فبالله الا ذكرت لي سبب قولك ذينك البيتين فانهما يدلان على أنفة وعفة تندران في المدن »

قالت : «صدقت ، ان العفة والحب النقي انما يكونان في اهل البادية ، وبنو عذرة أهل وادي القرى على مقربة من هذه المدينة مشهورون بهما . ولكن ذلك غير مقصور عليهم وان كان غالبا فيهم . وقد قلت أن توبة كان يحبني وأحبه ولم اسمع منه ما يدعو الي ريبة ، ولكني اجتمعت به مرة بعد أن تزوجت وتزوج ، فقال لي كلمة ظننت انه قد خضع فيها لبعض الأمر فقلت له :

وذي حاجة قلنـــا له لا تبح بها فليس اليها ما حييت سـبيل

لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وانت لأخرى صاحب وخليـل

« فلم اعد اسمع منه ريبة قط »

فضحك طويس وقهقه حتى كاد يستلقي ثم قال : « ما اشبه هذه العفة بعفة مخنثي المدينة ، والله ان البداوة حلوة ولكني لا أحبها ! »

فقالت له ليلى : « اذا شاقك ذلك فعليك بوادي القرى انه قريب منكم وفيه بنو عذرة الذين تضرب بعفتهم الأمثال ، وفيهم جميـل بثينة ، وكثير عزة ، وغيرهما »

فضحكت عزة ، ورات الرجوع الى الغناء ، فأخذت فيه وهي تنقر الدف ، فطربت ليلى وطرب طويس . ثم استبدلت بالدف عوداً عزفت عليه وغنت ألحانا شجية ، وكانت ليلى في أثناء الغناء تطرق وتستغرق في التأمل ، كأنها تفكر في أمر ذي بال ، فلما رات عزة فرغت من غنائها قالت لها : « لقد اطربتنا يا عزة بغنائك وعندي امر احب أن اسره اليك فهل تسمحين بخلوة ؟ »

فلما سمع طويس كلامها خرج مسرعا واغلق الباب وراءه

واقتربت ليلى من عزة حتى جلست بجانبها وقالت بصوت يقرب أن يكون همسا : « أتعرفين رملة بنت الزبير ؟ »

قالت عزة : « كيف لا اعرفها وهى أخت عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرمين وهو محصور فى الكعبة الآن »

قالت : « محصور ؟ ومن حصره ؟ »

قالت عزة : «انه اقام بالحرمين يدعو الناس الى البيعة له منذ توفى معاوية وتولى الخلافة ابنه يزيد سنة ٦٠ هـ . ولم يقو امره الا بعد مقتل الحسين وموت يزيد ، وهو الآن ينكر الخلافة على عبد الملك ابن مروان خليفة بنى امية بدمشق »

قالت ليلى : « أعلم ذلك ، واعلم ايضا ان اهل الحجاز بايعوه ، وان الامويين ينوون قتاله ورده الى بيعتهم »

قالت : « الم تسمعى بقدوم الحجاج بن يوسف الثقفى من الحجاز بامر عبد الملك لقتال عبد الله فى مكة ؟ »

قالت : « اظننى سمعت شيئا من ذلك قبل خروجى من الشام »

قالت عزة : « وقد جاء الحجاج ، ولعلك سمعت بشدة بطشه واستبداده ، وقد حاصر عبد الله بن الزبير فى مكة وضيق عليه ، حتى خرجت المدينة من سلطانه ، وعاملنا الآن من قبل عبد الملك بن مروان»

فاطرقت ليلى وصمتت وكان خاطرا طرأ عليها فأرجعها عما كانت تهم به ، فأدركت عزة ذلك فقالت لها : « مالى أراك صامتة .. ؟ قولى ما فى نفسك »

قالت : « جئت المدينة فى مهمة تتعلق برملة بنت الزبير ، ولكن حال اخيها يحول دون بلوغ الغرض من السؤال . هل هى معه فى مكة ؟ »

قالت : « نعم هى معه هناك ، وأظنهم فى اشد الضيق من الحصار ، وقد قل زادهم ولا ندرى ما يؤول اليه امرهم »

فتأففت ليلى وتذمرت ثم جعلت تحك ما وراء أذنها وتنظر الى البساط بين يديها كأنها تتفرس فى نقوشه وهى لا تتكلم »

فقالت عزة : « قولى يا اخية ما فى نفسك فقد اقلقت خاطرى بسكوتك ، ما الذى تريدينه من رملة واخيها ؟ »

قالت : « لا اخفى عليك أن اميرا كبيرا من أكبر امراء بنى امية . انتدبنى للبحث عن رملة واستطلاع احوالها ، لأنه يريد خطبتها ، فلم

أجد من يصف لى جمالها سواك لأنك عاشرتها وعرفتها فماذا تقولين ؟ »

قالت : « على الخبير وقعت . اما رملة فانها من احسن النساء خلقا وعقلا ودراية . ولكننى اعجب لاقدام أمير من بنى امية على خطبتها والحرب قائمة بين الامويين واخيها »

فامسكت ليلى عن الكلام قليلا ثم قالت : « اخشى ان اصرح بالأسماء فاكون قد بحت بسر اؤتمنت عليه »

قالت : « لا تخافى فانى مستودع أسرار اهل المدينة . وانى اعاهدك على كتمان ما تقولينه »

قالت : « ان الأمير الذى يبغى خطبتها أحسن امراء بنى امية علما وأدبا وشعرا وفصاحة وعارضة ، وله ولع خاص بعلم الكيمياء وهو ابن خليفة وحفيد خليفة »

فقطعت عزة كلامها قائلة : « قد عرفته ، انه خالد بن يزيد . اليس هو ؟ »

قالت : « هو بعينه فما قولك ؟ »

فاطرقت عزة هنيهة ثم قالت : « قد أدركت سر الأمر ، وعلمت السبب الذى سوغ لخالد خطبة رملة وهى من أعداء بنى امية وان كان هو امويا »

قالت : « أما وقد فهمت سر الأمر فاكتميه عن كل أحد . وهذه هدية من خالد بعث بها اليك » . قالت ذلك ومدت يدها الى كمها واخرجت عقدا من اللؤلؤ دفعته اليها . فتناولته عزة واثنت على فضلها وقالت : « هل عزمت على خطبة رملة لخالد ، ومن يخطبها له ؟ »

قالت : « ليس لى أن أصرح بأكثر مما قلت »

فقالت عزة : « ما السر عندى الا فى بئر عميقة ، فطيبى نفسا وقرى عينا »

ثم تحفزت ليلى للقيام فامسكتها عزة ودعتها الى البقاء عندها . فاعتذرت بأن هناك من ينتظرها فى الخارج ، ولا بد لها من موافاته لأمر لا يحسن تأجيله . ثم خرجت ، فمرت على طويس فى البستان فودعته قبل انصرافها

□

كانت ليلى الاخيلية شاعرة بارعة كما تقدم ، وكانت تفد على الملوك والامراء تمدحهم وتنال منهم الرعاية والجوائز . وكانت قد وفدت

على عبد الملك بن مروان فى ذلك العام فامتدحته ، ثم سارت الى خالد فعهد اليها فى البحث عن رملة واستيصافها من عزة . وبعث معها شابا من خاصته اسمه حسن كان فى جملة من جاء الشام مع عبد الملك ابن مروان عند عودته من العراق بعد مقتل مصعب بن الزبير واخراج العراق من سلطة اخيه

وكان حسن من رجال مصعب الداعين الى بيعة اخيه فى العراق وحارب معه فى قتاله المختار بن عبيد الثقفى فأبلى بلاء حسنا حتى قتل المختار وخلص العراق لمصعب . فلما جاء عبد الملك لحرب مصعب دافع حسن عنه جهده حتى قتل ووقع هو فى اسر عبد الملك ورافقه الى الشام . فلقى هناك خالدا فأحبه هذا وجعله من بطانته . وكان يثق به ويبوح له بما فى نفسه على عبد الملك لأنه تولى الخلافة دونه وهو أحق بها لأنه ابن الخليفة يزيد بن معاوية ، وبين امه وأم عبد الملك حكاية سيأتى ذكرها

وكان خالد قد سمع برملة بنت الزبير ، واراد خطبتها . فلما جاءته ليلى سألها عنها فذكرت له انها لم ترها ، فكلفها أن تستفهم عنها عزة الميلاء فى المدينة ، وكتب الى أخيها عبد الله الزبير يخطبها منه ، وسلم الكتاب الى حسن وأرسله مع ليلى وأوصاه اذا أمرته ليلى بالذهاب الى مكة أن يذهب ويدفع الكتاب الى عبد الله بن الزبير ويبذل جهده فى اقناعه ، وكان حسن يحب خالدا حبا شديدا فعزم على ان يبذل ما فى وسعه لتنفيذ مرامه ، وكان له فى المدينة وطر يحن الى قضائه فاسرع مع ليلى حتى وصلا الى المدينة مساء ذلك اليوم ، فعرج هو الى منزل يمكث فيه ريثما تعود ليلى

اما ليلى فلما عادت من منزل عزة أمرت الخادم أن يذهب بالجمال الى منزل سكينة بنت الحسين، على أن توافيه الى هناك . وسارت لمقابلة حسن فى الملتقى . فلقيته فى انتظارها على مثل الجمر فاخبرته بما دار بينها وبين عزة وأوعزت اليه أن يسافر الى مكة فى المهمة التى جاء من أجلها ودعت له بالتوفيق.



حسن وسمية

ولما خلا حسن الى نفسه ، عاوده ماكان يتقد فى قلبه من الوجد . وكان يحب فتاة عرفها منذ أعوام وأنقذها وأباها من الموت فى العراق فى أثناء القتال ضد المختار بن عبيد ، وقد تعاهدا على الزواج ، وهو يعلم انها تقيم بالمدينة ولكنه لم يكن يعرف منزلها ، فرأى ان يسأل عزة فى امرها بوصفها اخبر اهل المدينة بنسائها . فسار توا الى عزة وكانت لاتزال جالسة وقد خرج طويس من عندها

وكان حسن طويل القامة ، حسن الخلقة ، فى وجهه دلائل المروءة وصدق المودة ، وعيناه تتقدان ذكاء وحدة . فلما اقبل على عزة استقبلته باشة . وكانت قد تعودت كثرة الوافدين عليها من سائر البلاد . على انها استغربت قدومه اليها فى آخر الليل

واعتذر حسن عن ذلك فقال : « انى قادم اليك فى امر اقلقنى وحرمنى المنام وليس لى من يفرج كربى سواك »

قالت : « قل مابدالك »

قال : « انى احب فتاة من اهل المدينة ولكننى لا اعرف منزلها ولا أدرى امقيمة هى هنا أم سافرت الى بلد آخر ؟ »

قالت : « ما اسمها ؟ »

قال : « اسمها سمية بنت عرفجة الثقفى »

فبهتت عزة عند سماعها الاسم ، وجعلت تتفرس فى وجهه كأنها تستطلع حقيقته ، ثم قالت : « من اين عرفتها وكيف احببتها وانت بعيد عن المدينة ؟ »

قال : « قولى لى أولا اهى فى المدينة ؟ وهل تعرفينها جيدا ؟ »

قالت : « اعرفها كما أعرف نفسى ، وهى مقيمة هنا وكانت عندى هذا المساء ، فقل لى اين وكيف عرفتها ؟ »

قال : « كنت من رجال مصعب بن الزبير الذين ساروا معه الى العراق لقتال المختار بن عبيد الثقفى . وكان المختار بعد قتل الحسين قد قام يدعو الناس الى الاخذ بثأره وتظاهر بمبايعة عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرم الآن . فقتل المختار قتلة الحسين جميعهم بمعونة التوابين

وهم اهل الكوفة الذين خانوا الحسين وامسكوا عن نصرته فلما قتل ندموا وقاموا يطالبون بدمه »

قالت : « نعم اذكر ذلك ، ولكن المختار هذا كان يدعو الناس الى بيعة محمد بن الحنفية أخي الحسين من ابيه ، وليس لعبد الله بن الزبير »

قال : « انه كان يدعو الى البيعة لعبد الله أول الامر ، فلما فاز في حروبه طمع في الخلافة لنفسه وتظاهر بالدعوة لمحمد بن الحنفية . ولا اشك في ان محمدا لم يكلفه بذلك لأنه زعم أشياء لايرضى بها محمد »

قالت : « اظنك تعني الكرسي الذي زعم انه كرسي علي ، وصار يحمله معه في حربه ويزعم ان جبريل يظهر له ويكلمه »

قال : « نعم ، ولكنه لم يفلح لأن عبد الله بن الزبير لما سمع بما فعله ارسل أخاه مصعبا في جند كبير فقتلوه وسمروا يده في مسجد الكوفة ، وكنت انا في جملة رجال مصعب . ففي يوم المعركة بعد أن تم لنا النصر وامعنا في رجال المختار قتلا ونهبا . لقيت عرفجة أبا سمية طريحا على الارض بين يدي بعض رجالنا وقد هموا بقتله ، ثم رايت سمية ابنته قد خرجت من الخباء وشعرها محلول على كتفيها ، فتحرك قلبي نحوها تحركا غريبا ، وسمعتها تستنجدني لانقاذ ابيها من القتل ، فصحت في الرجال فابعدتهم عنه واوصلته الى مامنه فقبل يدي وشكرني ذاكرا انه لايقدر على مكافاتي . فقلت له : (لا التمس مكافاة منك الا ان تزوجني ابنتك هذه) . فقال : (هي جاريتك بين يديك) . فتواعدنا على أن آتي المدينة واتزوجها . وأتممت امر انقاذه فأخرجتهما من الكوفة وبعثت معهما من أوصلهما الى هنا ، وبقيت انا هناك وشغلت بأمور كثيرة لا محل لذكرها فلم استطع المجيء الا اليوم »

□

كان حسن يتكلم وعزة تتطاول بعنقها لسماع بقية الحديث . فلما وصل الى هذا الحد قطعت كلامه قائلة : « لعلك حسن ؟ »

فبهت وقال : « نعم ، وكيف عرفت ذلك ؟ »

قالت : « عرفته منها ، واني اهنئك بسمية فانها زينة فتيات المدينة وليس أحد يعرف مكنون قلبها غيري . وقد طالما ذكرت اسمك لي ، واطلعتني على خصالك واثنت على مروءتك . فثق بأنها ما زالت على ودك ، ولو انك جئتنا قبل ساعة لوجدتها هنا »

قال : « وهل من سبيل الى رؤيتها ولك على مايرضيك ؟ »

فاطرقت عزة هنيهة ثم قالت : « لم يكن اهون من ذلك على لولا ان

أباها ضنين بها ، لايأذن فى خروجهـا من البيت ، الا نادرا ، وهى انما تجيئنى خلسة فى أكثر الاحيان . ولاشك فى انه اذا عرف انها جاءتنى لمثل ماتريده انت فانه يغضب وربما أسـاءها وأساءنى ، ولاسيما انه ذو نفوذ لدى أمير هذه المدينة ، ففى استطاعته أن يتهمنى عنـده بما ينغص على عيشى »

فلبث حسن مدة يفكر فى امره ، وقد اقتنع بالمشقة التى تحول دون مجىء سمية ، لكنه ما لبث لعظم شوقه ان استسهل كل عسير ، ورأى ان يصبر الى صباح الغد ثم يذهب لزيارة ابى سـمية . فنهض مودعا عزة بعد أن استدل منها على بيت عرفجة ، فدلته عليه وودعته معتذرة من عدم استطاعتها اجابة رغبته فى رؤية سمية

وبات حسن تلك الليلة على مثل الجمر ، ثم افاق قبـل الفجر واخذ يتأهب للذهاب الى بيت عرفجة وقد اشتد هيامه وخفق قلبـه وهو يفكر فى لقياها ، وشق عليه انه لايستطيع مخاطبتها امام ابيها لكى يبثها شوقه وهيامه ، فعلل نفسـه بما قد يأتى به القدر من سوانح الفرص ، وخرج والشمس قد أطلت من وراء المنازل، والناس يذهبون ويجيئون فى الطرق وهو لاه عنهم بما قام فى خاطره من أمر اللقـاء المنتظر بعـد الغياب الطويل

وكان بيت عرفجة بالقرب من بيت سكينة بنت الحسين ، وهواضيق مساحة واقل فخامة ، فلمـا وصـل الى بابه رآه مفتوحا فدخل ولم يقرع الباب ولم يتكلم ، فأطـل على باحة تحيـط بها ثلاث غرف ، وفى بعض جوانبها نخلة عظيمة رأى بجانبها فتاة عليها رداء احمر زاه وليس على راسها نقاب ، وقد جلست أمام النخلة واسـتندت ظهرها اليها ووجهها الى جانب الدار بحيث لايقع بصرها على الداخل . ومع انه لم ير من وجهها الا صفحة خدها وجانبا من عينها وفمهـا فانه ادرك انها سمية . فندم على دخوله بغتة واستنكف أن ينظر اليها او يدخل بلا استئذان . ولكن الشوق اعمى بصيرته فوقف مبهوتا وقلبـه يخفق ، والشوق يدفعه الى رؤيتها ، والحياء يدعوه الى الرجوع وقرع الباب

ثم غلب عليه الحياء وخاف أن يقع نظرها عليه فتخجل وربما أصابها سوء من تأثير البغتـة ، فتقهقر حتى وقف بالباب وقرعه بحلقـة من الحديد كانت معلقة فى خوخته ولبث ينتظرمن يدعوه الى الدخول أو من يأتى لاستقباله . ثم سمع وقع اقدام فى البـاحة فعلم ان سمية تمشى الى احدى الغرف للاستتار . وظل واقفا مدة فلم يأته احد فأعاد القرع مثنى وثلاث . وبعد هنيهة سمع وقع اقدام قادمة نحو البـاب عرف من شدتها وسرعتها انها اقدام رجل . ثم جاءه رجل فى نحو الخمسين

من عمره قصير القامة نحيف البدن يكاد جلـده يلصق بعظمـه ، وهو اشمط شعر اللحية خفيفه ، وعلى راسه عمامة صغيرة ، وعلى كتفيه مطرف التف به ، وكأن خديه حفرتان ، ووجنتيه اكمتان ، وأنفه كتلة بارزة فى منتصف وجهه . وله عينـان غائرتان . ولو قد تفرس فيـه حسن لتبين من اختلاج أجفانه وعدم استقرار نظره انه من أهل الرياء والخبث

فلما وقع نظر حسن على الرجـل عرف انه عرفجة ابو خطيبتـه ، فهش له وهو يتوقع أن يعرفه ويرحب به . اما عرفجة فلبث برهـة ينظر الى وجه حسن وهو يتجاهله . فضـحك حسن وتقـدم والقى التحية ، فرد عرفجة التحية دون أن يبدو على وجهـه مايدل على انه عرفه ، ثم سعل كأنه ينبه أهل بيته الى قادم غريب ، فقال له حسن : « اظنك لم تعرفنى ياعماه ؟ »

فلما سمع عرفجة كلامه تكلف الابتسام والقى نفسـه عليه وجعل يقبله ويرحب به ويقول : « اهـلا بك يا بنى ، أنت حسن ؟ . من أين أتيت ؟ » . وامسكه بيده ودخل به الى الدار وسار توا الى غرفة هناك يستقبل بها الزائرين . فاسـتأنس حسن بذلك الترحاب بعد أن كاد يتميز غيظا مخافة أن يعود من سفرته بخفى حنين . وابتـدره عرفجة بالسؤال عن حاله وعن سبب غيابه ، وسأله اذا كان فى حاجة الى طعام. فاعتذر شاكرا ، واخبره بأنه قدم المدينة للقياه . فجعل عرفجة يتملقه بالكلام اللطيف ليستطلع ما فى قلبه . فاطمأن اليه حسن واطلعـه على شدة شوقه الى سميـة . وكان يخاطبـه ويراقب مايبـدو منه من استحسان أو استهجان . فلم يجد الا انعطافا وترحابا . وعلم منه ان سمية فى خير، وانها مازالت تذكر فضلهعليهما ، فازدادحسن استئناسا وتوقعمنه أن يدعوسمية لتراه ، فلما لم يدعها ظنه أجل ذلك الى ما بعد الاستراحة . واستغرقا فى الحديث فى شؤون مختلفة حتى ذكر حسن انه جاء المدينة فى مهمة من خالد بن يزيد الى عبد الله بن الزبير بمكة. ثم قال : « الم يئن لى أن ابلغ امنيتى التى منيت نفسى بها منذ أعوام ؟ »

فتجاهل عرفجة وقال : « وما هى يا بنى ؟ »

قال : « الزواج من سمية . . خطيبتى »

قال : « هى جاريتك وطوع ارادتك ، ولكنك ذاهب الى مكة كما تقول، فيحسن ارجاء الامر حتى تعود ، ولاسيما ان سمية ليست هنا الآن ، وسأخبرها بقدومك متى عادت ، ولا اشك انها ستسر بلقياك ، فاذهب الآن فى مهمتك ، ومتى عدت نعقد قرانكما باذن الله »

فعجب حسن لانكار عرفجة وجود سمية فى المنزل ، ولكنه التمس

له عذرا وشكر الله على انه رآها خلسة . على انه كان يتوقع وهو يخاطب عرفجة أن يسمع خطوات سمية او يلمح طرف ثوبها وهي مارة أو يسمع كلامها فلم يكن يرى الا بعض الجواري يخطرن في الدار لقضاء بعض حاجات المنزل

وسكت كلاهما لحظة وكل يفكر في شأنه وشتان بين الفكرين . ثم عاد عرفجة الى الكلام فقال : « متى تعتزم المسير الى مكة يا بني ؟ »

قال : « في القريب العاجل ، وربما خرجت الليلة »

قال : « وهذا ما أراه ، فان سرعة ذهابك يقرب يوم زواجك فنفرح بك ونتشرف بمصاهرتك »

فسر حسن بما سمع ولم يفقه ماكان يبدو في عيني عرفجة وفي حركاته من دلائل الخبث والغدر – ولم يكن ذلك سذاجة فيه ولكنه كان سليم القلب صادق النية كبير النفس ، يعتقد ان الناس كلهم مثله – هذا الى أن عرفجة كان مدينا له بانقاذه من القتل ، وقد رحب بمصاهرته أولا وآخرا . وهكذا اقتنع بما سمع منه فقال : « ارى ان اخرج من المدينة الليلة »

قال : « وهل تعرف الطريق ؟ ومن أي باب تخرج ؟ »

قال : « نعم يامولاي اني خارج من الباب المطل على قباء »

قال : « اجعل خروجك عند الغروب من الباب المؤدي الى مكة ، فانه أسهل مسلكا ، ولكنني أخاف عليك من برد الليل فهل احتطت لذلك ؟ »

قال : « عندي عباءة التف بها اذا برد الليل »

قال وهو يبتسم وكأنه اهتدى الى سبيل لتنفيذ مرامه : « لا ارى ان تخرج من المدينة وأنت ملتف بعباءة ، ومن كان مثلك من ذوي الوجاهة لايليق أن يمر في الاسواق ملتفا بعباءة ، فاسمح لي أن اقدم لك قباء يليق بمقامك » . قال ذلك وصفق فجاءه غلام فقال : « هات القباء الاخضر المعلق في الحجرة »

فعاد الغلام وعلى يديه قباء من صوف ، فتناوله عرفجة ودفعه الى حسن وقال له : « اليك هذا القباء فالبسه وانت خارج على ناقتك في هذا المساء فانه اوقى لك من البرد »

فتناول حسن القباء شاكرا ، مع انه لايرى حاجة اليه ، اذ لم ير من السافة أن يرده . وازداد ثقة في عرفجة وحسن قصده . ولحظ في حركاته ميلا الى فض الاجتماع ، فنهض وقبل يده مودعا ، وخرج وقلبه ما زال في تلك الدار ، وقد شق عليه أن يخرج منها دون أن يخاطب حبيبته . ولكنه علل نفسه باللقاء القريب بعد رجوعه من مكة ،

وسار توا الى السوق ليبتاع بعض النبال استعدادا لعاديات الطريق ولكنه لم يكن يعرف اين يبيعون النبال فراى غلاما رث الثياب على راسه قفة يلتقط نوى التمر ويضعه فيها ، وهي احقر مهن أهل المدينة ، فناداه حسن وساله : « الا تعرف رجلا يبرى النبال قريبا من هنا ؟ »

قال : « اعرف كثيرين، هل تريد النبال المريشة اوالتى بلا ريش؟ »

قال : « انى افضل المريش منها »

قال : « تعال معى فأدلك على احسن من يبريها فى هذه المدينة »

▭

سار حسن فى أثر الغلام حتى انتهى به الى الطرف الآخر من المدينة ، ووقف به عند حانوت أمامه دكة ، وفى صدر الحانوت رجل من أهل يثرب بين يديه القسي والنبال ، وفيها المبرى بعضها من الخشب والبعض الآخر من القنا ونحوه . فدفع الى الغلام درهما وصرفه ، ودخل الحانوت والقباء على ذراعه فلما رآه الرجل عرف من لباسه انه من أهل الشام فرحب به واجلسه على الدكة . فجلس حسن ووضع القباء بجانبه واخذ يقلب السهام ، وفيها الريش المربع والمثلث وذو الجناح الايمن او الايسر . وجعل ينتقى مايريده منها ثم قال للرجل : « هل أجد عندك جعبة للنبال ؟ »

قال : « كلا يامولاى ، انى لا أصنع الا النبال ، ولكن جارى جعاب يصنع الكنانة والجعبة من الجلد او من الخشب على أشكال مختلفة فاذا شئت بعثت اليه فيأتيك بأصنافها »

فقال : « اذهب اليه بعد الفراغ من انتقاء النبال » . ثم انتقى ما احتاج اليه منها ودفع الثمن ، وسأل الرجل عن حانوت الجعاب ونهض وقد نسى القباء عند النبال ، وسار والنبال يسير أمامه حتى اوصله الى حانوت واسع فيه جلود واخشاب وجعاب معلقة . فرجع النبال وتقدم حسن حتى انتهى الى باب الحانوت. فراى الجعاب يخاطب شابا يظهر من لباسه انه من اهل الوجاهة وهو يساومه على جعبة اراد ابتياعها ، فوقف حسن ينتظر الانتهاء من تلك الصفقة ، وقد استأنس برؤية ذلك الشاب وتذكر انه يعرفه . فجعل يتأمله ويتفهم كلامه ، وهو يستحث ذاكرته لعله يذكره والشاب مشتغل بالمساومة . ثم التفت الشاب الى حسن فلما وقع بصره عليه بغت وتفرس فى سحنته ولم يطل النظر اليه حتى ابتسم وصاح : « حسن ؟ » . قال : « نعم ، وأنت . . سليمان ؟ »

وتعانقا ، ثم جلسا على مقعد من حجر بجانب الحانوت وقد نسيا الجماب وصاحبها ، فقال سليمان : « من أين أنت قادم يا أخى ، ومتى قدمت ؟ »

قال : « انى قادم من دمشق وقد وصلت الى المدينة مساء أمس »

قال : « وهل تنوى الاقامة هنا ؟ »

قال : « كلا ، انى عازم على السفر الليلة »

قال : « لا . لا . انى مشتاق الى رؤيتك ، وقدمضىعلى بضع سنوات وانا افكر فيك واتذكر اياما قضيناها فى الكوفة معا ، وقد كانت اياما سعيدة رغم ماشهدناه فيها من القتال »

قال حسن : « لاريب انها كانت سعيدة لكم لانكم فزتم بالامر الذى قمتم له وقتلتم قتلة الامام الحسين شر قتلة . أظنك لم تنس عبيد الله ابن زياد وهو مضرج بدمه فى ساحة الحرب »

قال : « وهل اقدرعلى نسيانذلك ، انى اتذكره كلما شممت رائحة المسك ، لأنى حينشهدتجثة عبيد الله فى الوقعة شممت رائحة المسك قوية ، اذ كان كثير التضمخ بالمسك . ولكننى لم افرح بمقتل ابن زياد فرحى بمقتل ذلك الابرص الذى قطع راس الحسين بيده »

قال حسن : « اظنك تعنى شمر بن ذى الجوشن قبحه الله ؟ »

قال : « اياه اعنى . . فقد رايت هذا الخبيث فى معركة أخرى مقتولا وعليه بردة ، وقد عرفته من بياض برصه »

فقال حسن : « انها لذكرى حسنة ، ولكننا لانستطيع الخوض فى هذا الموضوع ونحن على قارعة الطريق »

قال سليمان : « هلم الى مكان لنقضى فيه بقية هذا اليوم ، فانى احسبه من اسعد ايامى ، لأنه يذكرنى بأيام النصر وان كنا الآن فى » . . وقطع كلامه لئلا يسمعه احد

ثم نهضا فابتاع حسن جعبة وضع النبال فيها ، وسار وقد شغل بصديقه عن تذكر القباء وهو لم يتعود حمله

□

٢

كان سليمان هذا صديقا لحسن تعارفا منذ الصبا . وكان مقيما مع ابيه بالكوفة مع دعاة الحسين . فلما قدم الحسينالكوفة فى اهله كان هو وابوه من الذين تخلفوا عن نصرته . ولما قتل الحسين فى سهل كربلاء وقتل أهله معه أصبح سليمان وابوه من التوابين الذين ندموا على

تخلفهم عن نصرة الحسين وقاموا بعد قتله للمطالبة بدمه ؛ فلمـا جاء المختار بن ابى عبيد الثقفى الى الكوفة يدعو الناس الى بيعة عبد الله بن الزبير ، انضم التوابون اليه فقتلوا قتلة الحسين . ثم طمـع المختار فى الامر وارسل عبد الله بن الزبير اخاه مصعبا لمحاربته ، وكان حسن مع مصعب فلما غلب مصعب المختار وقتله تفرقت رجاله ، فانحاز بعضهم الى مصعب ومنهم سليمان وابوه ، وقد ائتلف قلبـا حسن وسليمان. وكان سليمان يعجب بأخلاق حسن . فلما جاء عبـد الملك بن مروان وحارب مصعبا بالكوفة وقتله وتفرق رجاله ، سارحسن مع عبدالملك ، وجاء سليمان وابوه الى المدينة فاقاما بها

فلما تلاقيا بالمدينة على هذه الصورة انس به سليمان واحب البقاء معه . فدعاه الى منزله وقال له : « ان ابى يسر بلقياك» . فتذكر حسن ابا سليمان فقال : « فاتنى أن اسأل عن أبيك كيف هو وما الذى يعمله الآن ؟ »

قال : « انه فى خدمة طارق بن عمر عامل هذه المدينة من قبل عبد الملك بن مروان »

قال : « وهل هو يخدمه عن رضى ؟ »

قال : « اراه راضيا بخدمته ، وكثيرا ما أظهرت عدم رضائى بخدمة هؤلاء القوم الذين قتلوا الحسين . وكنا بالأمس نجرد السيوف عليهم ونطالبهم بدم المقتولين ، ولكننى رأيته راضـيا فسكت عنه . ولعل له عذرا »

وكانا يتكلمان وهما ماشيان حتى وصلا الى بيت سليمان ، ولم يكن ابوه فى البيت فمكثا هناك وتناولا الغداء معا وقد سر كل منهما بلقـاء صديقه ، فلما كان العصر نهض حسن واعتذر باضطراره الى الذهاب لوداع ليلى الاخيلية فى بيت سكينة بنت الحسين ، وهو انما كان يرجو ان يستطيع مشاهدة سمية لأن بيتها بجانب بيت سكينة

فالح عليه سليمان أن يؤجل سفره الى الغد ، ولكنه اعتذر شاكرا ، فقال سليمان : « اذا لم يكن بد من سفرك فانى ارافقك فى أوائل الطريق لأنك اذا خرجت من المدينة عند الغروب لا تسير الليل كله. فاذا رضيت برفقتى فانى اصاحبك الى العقيق فنمكث هناك ساعة اتملى من حديثك ثم نفترق » .

قال حسن : « كيف لا ارضى بذلك وفيه راحتى وحسن حظى »

قال : « أين نلتقى ؟ »

قال حسن : « نلتقي بباب المدينة المؤدى الى مكة ونخرج من هناك معا »

قال : « وهل تعرف الطريق الى الباب ؟ »

قال : « نعم اعرفه فانه على مقربة من حانوت النبال الذى اشتريت هذه النبال منه اليوم »

ولما ذكر النبال تذكر القباء فبغت وقال : « لقد نسيت عنده القباء ، واخاف اذا اردت الذهاب اليه أن تفوت الفرصة لمشاهدة ليلى »

فابتدره سليمان قائلا : « دع هذا لى ، فأنا أمر بالنبال وآخذ القباء منه واحفظه لك الى الملتقى »

فشكره حسن وودعه ، وخرجا فسار كل فى طريقه

□

وكانت سمية جالسة فى ساحة بيتها حين قرع حسن الباب ، فدق قلبها وحدثتها نفسها بأن الطارق حبيبها ، ثم استبعدت ذلك ، فعاودها الحزن ، ونهضت لكى تحتجب عن الطارق ، فانزوت فى اقرب غرفة الى الباب وفى نفسها ميل الى معرفة الطارق ، لأن طريقة دقه الباب لم تكن تشبه دقات زوارهم المعروفين . وكثيرا ماتدل الدقة على صاحبها ويعلم أهل البيت من هو صديقهم من قرعه الباب . هذا الى انعرفجة كان من أكثر الآباء تضييقا على بناتهم فى أمر الحجاب . فكان ذلك يدعو سمية الى التطلع الى القادمين منشقوق النوافذ أو ثقوب الابواب

واتفق فى ذلك الصباح انه لم يكن فى البيت أحد من الرجال غير عرفجة وكان مشغولا فى حجرة خاصة لايدخلها أحد غيره ، وفيها محفة من خشب مقفلة لايفتحها سواه . فاذا دخل تلك الحجرة اقفل بابها ولا يدرى أهل البيت ماذا يفعل هناك . فيقضى فيها ساعة أو بعض الساعة ثم يخرج ويقفل الباب وراءه . وكثيرا ما أحبت سمية استطلاع أمر تلك المحفة ومشاهدة ما فى داخلها فلم توفق الى ذلك . لأن المحفة من خشب متين لامنافذ للبصر فيه . فلما قرع حسن الباب كان عرفجة هناك فابطأ فى فتح الباب كما تقدم . ثم سمعته بعد أن فتحه وهو يخاطب حسنا ويرحب به ، وكانت تنظر من ثقب فى باب غرفتها يطل على حجرة أبيها فوقع بصرها على حسن وهو يخلع حذاءه بباب الحجرة ، وهى أول مرة رأته فيها بعد ذلك الغياب الطويل ، فلم تكد تتحققه حتى شعرت بهزة قوية وخفق قلبها خفوقا شديدا ولكنها ظنت نفسها مخطئة فتفرست فيه جيدا فاذا هو حسن بعينه ، ورأت أباها يخاطبه ويرحب به وقد فهمت ذلك من اشاراته وملامحه لأنها لم تكن تفهم الكلام لبعد المسافة ، ثم دخلا واقفلا الباب . فأرسلت جارية لها تتسمع

حديثهما وتعود اليها بما سمعته . والجوارى أكثر الناس رغبة فى نقل الاحاديث وبخاصة اذا كانت من هــذا القبيل . فكانت تلك الجـاريه تتظاهر بخروجها لغرض تريده من البستان او البـاحة فتقف هنـاك بحيث تسمع مايدور وربما سمعت بعضه فتكمل الحديث من عنـدها وتعود الى سمية به . فاطلعت سمية بذلك على مادار بينهما حرفيا . وساءها رفض ابيها أن يجمعها بحسن ولو من وراء حجاب ، ولـكنها سرت برؤيته واطمأنت الى انه ما زال على حبها . ولما أخبرتها الجارية انه جاء يطلبهـا من ابيهـا زاد اضطرابها واصطـكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف فثنت وسادة كانت بجانبها وجلست عليها وعيناها على شق الباب . على انهـا ما لبثت أن علمت انه غير الحديث واعتزم الخروج من المدينة فى تلك الليلة ، وان اباها حبب اليه الاسراع فى ذلك واعطاه القباء . فاستغربت اعطاءه اياه . مع ما تعلم من بخله . على ان ذلك اكد لها رضاءه عن تلك الخطبـة فانبسطت نفسها وتعللت بقرب اللقاء بعد الرجوع من مكة

فلما خرج حسن وتبعه عرفجة لوداعه ، طارت عيناها شـعاعا الى حسن ، ولكنه ما لبث أن غاب عن مدى بصرها من ذلك الثقب . فلمـا رات اباها راجعا خرجت من الغرفة لملاقاته وقد توردت وجنتاها من عظم التأثر وبانت دلائل الحب فى وجهها . فلمـا رآها عرفجة فى تلك الحال انقبضت نفسه وتظاهر بأنه فى شاغل عن الحديث معها

ولكنها لم تصبر على استطلاع افكاره وامسكت عن الكلام تهيبا لانها كانت تخافه كثيرا وتخشى غضبه وقد قاست منه الامورالصعاب ، على انها كانت تحسن الظن به فتحولت الى حجرتها وهى منقبضة النفس ودخل عرفجةحجرة أخرى وقدلحظ ما فى نفس ابنته ولم يفته اطلاعها على مادار بينه وبين حسن . فبعث اليها فجاءت وليس فى المكان سواهما فوقفت وقلبها يخفق وهى لاتستطيع التطلع الى ابيها ولاتدرى مايريد منها . فأشار اليها فجلست على وسـادة بالقرب منه وهى تتشاغل بمداعبة أطراف جدائلها المرسلة . وكانت تضفر شـعرها عادة فى طرة اشتهرت فى المدينـة يومئذ بالطرة السكينية نسـبة الى سكينة بنت الحسين لانها اول من ضفرها على تلك الصورة

لبثت سمية برهة هكذا ، وابوها ينظر اليها ويتأمل فى حركاتها فلم يزدد الا وثوقا بتعلقها بذلك الشاب وهو لايحب أن يتقرب منه ، ولكنه لم يذكر ذلك لسمية صراحة . على انه كثيرا ماحاول ان يزوجها بسواه فلم تقبل . وكان قد ظن حسنا مات او قتل لغيابه عن المدينة ، اوعدل عنها واشتغل بغيرها . فلما رآه فى ذلك الصباح وتحقق انه مازال حيا

بغت واستعاذ بالله ، ولكنه عمد الى الخبث والرياء فتغلب على عواطفه وبش له واستدناه واظهر له ما اظهره من اللطف والانس على امل أن يفتك به غيلة . فلما رأى اضطراب سمية قال لها : « اراك مضطربة ، فما الذى دعاك الى هذا ؟ »

قالت وهى لاتزال مطرقة وقد صعد الدم الى وجهها فزاد احمراره « واى اضطراب تعنى ؟ »

قال : « أعنى مايبدو فى وجهك من الاحمرار على أثر الاصفرار وكأنى اسمع دقات قلبك . فما هـذا ؟ » قال ذلك بنغمـة رقيقة رفقـا بها واجتيالا فى استطلاع سرها ، وقد كان يحب رضاءها ولـكنه لايريد أن تعمل عملا تستقل به عنه . وكان أهل المدينة يتحدثون بجمال سمية ولطفها ، وكان هو يريد أن يتجر بذلك الجمـال فيزوجها بحاكم أو أمير فيكتسب بزواجها منصبا أو مالا . وكانت له مطالب أخرى ترجع كلها الى الطمع وحب الاثرة مع خبث الطوية . وحب الاثرة مع سلامة الطوية قلما يضر بالنـاس اذ ليس فى البشر من لايحب ذاته ويؤثرها على غيره من الناس ، أما اذا صحبه خبث النية وسوء الخلق فانه يكون وبالا على الناس، لأن صاحبه لايبالي ماقد يضحيه من الانفس اوالاعراض فى سبيل نيل أغراضه . وكان عرفجة ذا مطامع لاحد لها وكان ذلك شأن كثيرين فى ذلك العهد على أثر تزعزع اركان الخلافة وانقسام الناس وكثرة الدعاة وتعدد الدعوات . فكان هذا يدعو الى بيعة عبد الملك ، وذاك يدعو الى بيعة محمد بن الحنفية ، وآخر الى بيعة عبـد الله بن الزبير ، فضـلا عن دعاة آخرين فى البلاد الاخرى . فأصبح الامر فوضى وربما خطر لعرفجة أن يدعو الى أحد هؤلاء أوغيرهم ، ولو أتيح له لن يدعو الناس الى نفسه لفعل ولكنه لم يكن يطمع فى ذلك وهو من ثقيف وهم غير اكفاء للقرشيين . وكان الحجاج والمختار بن ابي عبيد ثقفيين ايضا ، فلما اراد المختار أن يستأثر بالملك تظاهر بالدعوة الى محمد بن الحنفية كما قدمنا

⊂⊃

لما سمعت سمية سؤال ابيها ولم تر فيه نغمة الجفاء أجابت وهى تكاد تذوب خجلا : « أتسألنى ياسيدى عما انت أعلم الناس به ؟ »

فقال وهو يغتصب الضحك اغتصابا : « اظنك تحبين هذا الشاب؟ »

قالت : « لا أقول انى احبه ولكننى أعلم فضله علينـا لأنه انقذنا من الموت . وقد اشترط شرطا وعدناه به أفلا نفى بالوعد ؟ »

وكانت تقول ذلك بلهجة المنتصر وهى تنظر فى وجه ابيها متوقعة أن

يكون جوابه الاذعان الصريح. ولكنها راته ابتسم ابتسام الاستخفاف ، ثم هز راسه ، وأخذ يلاعب طرف لحيته بأنامله وهو يقول : « ما شاء الله ! وأى فضل تعنين ياسمية ؟ »

قالت : « ألم ينقذنا هذا الرجل من القتل ونحن فى الكوفة. ألم أخرج اليه محلولة الشعر واطلب نجاتك فأسرع لانقاذك ؟. ولا أراك تنكر ذلك عليه الى الآن» . قالت ذلك وهى تنظر الى وجهه بطرف عينيها وتتوقع اذعانه فاذا هو قد تغيرت سحنته وبان الشر فى عينيه وكان بيده مفتاح الحجرة فرمى به الى الارض من شـدة الغيـظ وقال : « لا أقدر على سماع هذا الكلام . ان الذى يدعى علينـا مثل هـذا الفضل يجب أن يموت »

فلما سمعت سمية كلامه اقشعر بدنهـا وامتقع لونها ، ونظرت الى أبيها والدموع ملء عينيها كأنها تستعطفه ولاتصدق انه يعنى ما يقول. ولكنها ما لبثت أن راته نهض وجعل يتمشى فى أرض الحجرة ولحيتـه ترقص أمام عنقه وعيناه محملقتان وأنامله ترتجف . فتهيبت واطرقت ودموعها تتساقط على ثيابها وبقيت هادئة لاتحرك ساكنا ولسان حالها يقول : « ويلك يا ظالم »

اما هو فبعد أن تمشى هنيهة عاد فوقف أمامها وقال لها : « لو كنت تحبين أباك . ما رضيت أن يكون لمثل هذا الغلام فضـل علينا . كيف نعيش ولهذا الغلام منة علينا ؟ وتقولين ذلك جهـارا ؟ . لاشـك انك تحبينه أكثر مما تحبينني ؟ »

فقالت والبكاء يخنق صوتها : « كيف تقول ذلك يا ابتاه ، وأنت تعلم قلبى وتعلم انى لا احب أحدا سواك . واما هـذا الشاب فان له علينا فضـلا لاينكر ــ هل نسيت الخطر الذى كنا فيه وكيف انقـذنا وعنى بارسالنا الى هنا ؟ . ثم انك انت الذى وعدته بى ، فاذا كنت أحبه فانما انت الذى دعوتنى الى ذلك و . . . »

فقطع عرفجة كلامها وقال : « أبلغت بك القحة الى أن تقولى لى انك تحبينه وتعيدى ذكر جميله . ان ذكر هذا الجميل وحده يدعو الى قتله ! »

فاضطربت سمية ، وجثت عند قدمى أبيها والدمع يتسـاقط من خديها ويمتزج بالعرق المتصبب من جبينها وقالت : « رحماك ياسيدى ، بالله لاتذكر القتـل .. دعه لاتقتـله ولاتزوجنى به . . فأنا لا أخرج عن طاعتك فى أمر من الامور . لاتذكر القتـل لأنه يقطـع قلبى . افعل بى ما تشاء فانى طوع لك . اشفق على وارحمنى »

فلما سمع تذللها ظنها ارعوت عن محبـة حسن ، فأمسكها وانهضها ومسح دموعها وقال لها : « خففى عنك يابنيـة وكونى حكيمة عاقلة ،

وانبذي امر هذا الغلام وارجعي الى ابيك ، واعلمي اني لا افعل الا مافيه سعادتك »

قال ذلك وأجلسها على الوسادة وجلس هو الى جانبها فاتكأت على صدره فتحقق انها أذعنت لأمره واستسلمت له ، فلم يعد الى ذكر حسن ولكنه اغتنم هذه الفرصة وقال لها : « يظهر أنك كنت فى جهالة عمياء . والحمد لله على أنك أدركت ما أنويه لك . كيف تعيشين مع رجل تعلمين انه ذو فضل على أبيك ؟ . أليس ذلك منتهى الذل والضعف ؟ . كيف أقدر على حفظ منزلتي بين الناس وفى الدنيا رجل يقول انه أنقذني من الموت وله على فضل ؟ »

فظلت سمية صامتة مخافة أن يعود أبوها الى ذكر القتل ، ولكنها استغربت استنكافه الاقرار بالفضل لأهله . وقد فاتها ان من الناس من يتعمدون الايقاع بالمحسنين اليهم لأن تصورهم فضلهم يهيج حسدهم حتى يقودهم الى الفتك بهم ليتخلصوا من ذكر تلك المنة . وأمثال هؤلاء قليلون والحمد لله — وكان عرفجة واحدا منهم — وتلك غاية الدناءة والخسة

ولم تر سمية خيرا من السكوت ، ولكن ذلك لم يغير شيئا من عواطفها بل لعله زادها تعلقا بحسن ، وتعلق ذهنها بالسعي فى تحذيره . وكانت تفكر فى ذلك وهى متكئة على صدر أبيها وقد بللت قميصه بدموعها ، فأنهضها وقبلها وقال لها : « قومي يا سمية وارجعي الى رشدك فاني سأزوجك بأعظم رجل يتحدث به المسلمون الآن لتعلمي أني انما أسأتك بأقوالى لأحسن اليك بأفعالى »

فنهضت ومشت وهى صامتة تمسح عينيها بكمها حتى أتت حجرتها فدخلت وأقفلت الباب ثم استلقت على فراشها وقد تمثل لها عظم الارتباك المحيط بها والخطر الذى يهدد خطيبها فأظلمت الدنيا فى عينيها وأطلقت لدمعها العنان ، ثم استرجعت رشدها وفكرت فى امرها وأمر أبيها وما تعرضت له بسبب حبها لحسن فجعلت تناجي نفسها قائلة : « كيف تعلقت بهذا الرجل الغريب وفى تعلقي به خطر على حياتي وحياته ؟ . أليس هذا أبى الذى رباني وكفلني ولا يريد لى الا الخير والسعادة ؟ كيف أعصاه وأطيع هواى ؟ أليس من التعقل أن أنصاع لرأيه ؟ . أما حسن فماذا يربطني به ؟ . الحب ؟ وما معنى الحب ؟ . ان هذا الحب سبب عذابى وعذاب أبى وعذاب حبيبي . لا . ا[illegible] ، عذابه عذب . آه ما أحلى الحب وما أشرف عواطف المحبين . . [illegible]ف يعيش الناس بدون الحب وما الفائدة من الحياة بلا محبة ؟ . انى لا أرى فى العيش لذة الا حين أفكر فى حسن . آه ما ألطف هذا الاسم . ولكن كثيرا ماكنت

اسمعه قبل أن اعرف الحب فلا التــذ لفظه كما التذه الآن . فأنا انما اتلذذ بالحب . آه ما أحلاه وما أحلى لفظه بفمى وذكره بفكرى وما أحلى صورته فى عينى ! »

ثم مسحت دموعها ولبثت هادئة برهة وهى تفكر فى ابيها وقالت : « ولكن ابى ربانى بعد وفاة امى وبقى وحده لم يتزوج من أجلى وهو يحبنى ويريد سعادتى فكيف أغضبه ؟ »

ثم قالت : « لا . . انه خرج فى معاملته عن حقوق الأبوة ، ان لحسن فضلا كبيرا علينا . ولـكن أبى تنكر له ، بل اراد قتـله من أجل ذلك الفضل. أرا دقتل حسن ؟ !. ان ابى ظالم ، والظالم لايحبه الله فكيف أحبه أنا ؟. اما حسن فشهم تفانى فى سبيل نجاتنا ويكفى انه يحبنى وانى أحبه حبا عذريا نقيا لاعيب فيه . ياالهى ماهذا الحب؟. اذا كنت ترى انى اخطىء فيما أقول فانزع حب هذا الشاب من قلبى . لا . . لاتنزعه . . او انزعه يا الهى . . أو كما تشاء . . آه مالى أزداد تعلقـا وهياما ؟ الله هو الذى اراد أن يحب أحدنا الآخر ، والحب الذى يكون خاليا من الدنس وغايته شريفة انما هو من عند الله »

قضت سمية ساعة فى مثل هذه التصورات ، ثم تذكرت ما سمعته من تهديد ابيها فخافت أن يتمكن من حسن وهو غافل فرات ان عليها أن تحذره حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا

وحدثتها نفسها أن تفر معه الى مكة ولكن تعقلها وآدابها زجراها عن ذلك . على انها اصبحت شديدة الشوق الى رؤيته لتشكوله مافى قلبها ويتعاهدا على الاتحاد والصبر . فتذكرت عزمه على الخروج من المدينة فى تلك اللـيلة ، وانه خارج حوالى الغروب من البـاب المؤدى الى مكة فعزمت على اغتنام فرصة اشتغال أبيها ، لكى تخرج وتقف له فى الطريق وتخاطبه

اما عرفجة فقد كان بينه وبين طارق بن عمرو حاكم المدينـة يومئذ صداقة . وكان طارق يكرم عرفجة لأنه ثقفى من قبيلة الحجاج ، وكان الحجاج لذلك قد اوصـاه به خيرا ، ولأنه كان قد عرف سميـة وطلب الاقتران بها فوعده عرفجة بذلك ولكنه استمهله ريثما يسترضيها . ولم يشأ الحجاج أن يحملها ابوها على ذلك بالكره مخافة أن تشكوه الى الخليفة عبد الملك بن مروان فيأمره بالتخلى عنها كما اتفق له مع عبدالله ابن جعفر لما خطب الحجاج بنته أم كلثوم على مال كثير ثم امره عبدالملك مروان بطلاقها . وجلية الخبر ان الحجاج خطب الى عبد الله بن جعفر ابنته أم كلثوم على الفى ألف فى السر وخمسمائة ألف فى العلانية ، فأجابه الى ذلك وحملها اليه فأقامت عنده ثمانية اشهر ، ثم خرج عبـد الله بن

جعفر الى عبد الملك بن مروان وافدا ونزل بدمشق ، فأتاه الوليد بن عبد الملك (ابن الخليفة) على بغلة ومعه الناس ، فاستقبله ابن جعفر بالترحيب ، فقال له الوليد : « لكنك انت لامرحبا بك ولا أهلا » . قال عبد الله : « مهلا يا ابن اخي فلست اهلا لهذه المقالة منك» . قال : « بلى والله وبشر منها » . قال : «وفيم ذلك ؟ » . قال : «لانك عمدت الى عقيلة نساء العرب ، وسيدة نساء بني عبد مناف ، فعرضتها على عبد ثقيف يتفخذها » . قال : « وفي هذا عتبت علي يا ابن اخي؟ » . قال : «نعم» . فقال عبد الله : « والله ما أحق الناس ألا يلومني في هذا الا انت وابوك ، لأن من كان قبلكم من الولاة كانوا يصلون رحمي ويعرفون حقي ، اما أنتما فمنعتماني رفدكما حتى ركبني الدين . أما والله لو أن عبدا حبشيا مجدعا اعطاني بها ما اعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه . انما فديت بها رقبتي » . فما راجعه الوليد كلمة حتى عطف عنان بغلته ومضى فدخل على ابيه فقال له عبد الملك : « مالك يا أبا العباس ؟ » . قال : « انك سلطت عبد ثقيف وملكته حتى تفخذ نساء بني عبد مناف ! » . وقص عليه الخبر . فأدركت عبد الملك غيرة فكتب الى الحجاج يقسم عليه الا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ، ففعل . وخاف اذا فعل مثل ذلك بسمية أن تشكوه الى عبد الملك بوساطة سكينة بنت الحسين ، لعلمه أنها تحب سمية ولها منزلة وكرامة عند عبد الملك

□

وكان حسن قد ودع رفيقه وسار ماشيا وخادمه يقود جمله وراءه ، قاصدا الى بيت سكينة ، ولما أشرف على بيت عرفجة اختلج قلبه في صدره ، ووقف كأن شيئا استوقفه بالرغم عنه ، وتصور انه شاخص الى مكة وهي محصورة فلا يدري متى يعود منها ولا مايمكن حدوثه في غيابه . وكيف يسافر وهو لم يرسمية . ثم تمثلت له سمية كما رآها في صباح ذلك اليوم قاعدة الى جذع النخلة حاسرة رأسها ولم ير غير جانب وجهها . فلما تصور ذلك زاد هيامه واضطربت جوارحه وظل برهة كأنه فاقد رشده لعظم ما اكتنفه من الهواجس . ولم ينتبه لنفسه حتى خاطبه خادمه . وهو رجل من ثقيف اسمه عبد الله وأصله من الطائف وكان في جملة خدم المختار بن أبي عبيد في أثناء حربه في العراق ، فلما قتل المختار سار في جملة الاسرى الى الشام ثم دخل في خدمة حسن عندما سمع بعزمه على المدينة رغبة منه في الاقتراب من اهله في الطائف ، وكان عبد الله يعرف عرفجة لأنه من قبيلته ولم يكن يحترمه ولا يثق بأقواله ، ولكنه لم يكن يعلم بما بين حسن وسمية .

فلما راى سيده واقفا مبهوتا استغرب ذلك منه فخاطبه قائلا : «مابال مولاى ؟ هل يفكر فى امر نسيه فأقضيه ؟ »

فانتبه حسن لنفسه واستحى من خادمه ، ولكنه تذكر ما بين هذا الخادم وعرفجة من رابطة القبيلة ، فلاح له أن يستخدمه فى ذلك لعله يأتى بفائدة فقال : « أتعرف عرفجة ؟ »

فأجاب عبد الله ولم يصبر الى اتمام السؤال وقال : «كيف لا أعرفه وهو ابو سمية »

فلما طرق اسمها سمع حسن خفق قلبه ، ولو لحظ عبد الله وجه سيده لراى الاضطراب ظاهرا فى محياه ، ولكنه لم يكن يتفرس فى وجهه لفرط احترامه له . أما حسن فقال : « وهل تعرف سمية ؟ »

فضحك عبد الله وقال : « كيف لا اعرفها وهى من قبيلتى ؟ »

قال : « وهل تعرف كل بنات قبيلتك ؟ »

قال : « كلا ، ولكن سمية مشهورة بجمالها وتعقلها ولطفها ، وقد اتفق لى انى رايتها غير مرة يوم كنا فى العراق »

فسر حسن بهذه المصادفة واراد أن يستخدم عبد الله فى البحث عن سمية أو مخابرتها فقال : « اذن اسمع ياعبد الله ، أريد أن أرسلك الى سمية فى مهمة فهل تذهب ؟ » . قال : « لك الأمر وعلى الطاعة »

فأعجب بلطف تعبيره وقال له : « بورك فيك ياعبد الله فاعلم انى قدمت فى هذا الصباح الى عرفجة ، وقضيت معه ساعة ، ولم اتمكن من مشاهدة سمية لأنها كانت مشغولة ونحن الآن سائرون الى مكة ولا ندرى متى نعود فهل أخرج من المدينة قبل أن أراها ؟ »

قال : « كلا بل يجب ان تراها وتخاطبها . هل اسألها موعدا للقاء ؟ »

قال : « لاتستعجل ياعبد الله . فانى أخاف ان يغضب ابوها اذا اطلع على ذلك لأنى سمعت بصرامته فى تحجبها ، فلا يليق بى أن أراها خلسة بعد أن خطبتها منه »

فأرسل عبد الله بصره الى بيت عرفجة وقال : « مادامت خطيبتك فلا بأس من رؤيتها وان لم يعلم ابوها . . أتأذن لى فى الدخول الى هذا البيت والاستفهام عن عرفجة فأحتال لابلاغها موعدك ؟ »

فاستعظم حسن الاقدام على هذا الامر ، ولكن رغبته فى رؤية سمية هونت عليه ذلك فقال : « انى ذاهب الى منزل سكينة ، وأنا أعلم ان سمية كثيرة التردد اليه ، فقل لها أن توافينى الى هناك »

قال : « سمعا وطاعة » . ومضى يسوق الجمل وهو يقول : «سأحمل اليك الجواب فى منزل سكينة ان شاء الله »

مجلس سكينة بنت الحسين

اما حسن فسار حتى وصل الى منزل سكينة بنت الحسين ، فرأى بجانب الباب حظيرة تربط فيها دوابها ودواب من يقدم اليها من الوفود، لأن منزلها كان مقصد الشعراء والأدباء واهل الوجاهة من قريش وغيرهم . وكان حسن قد سمع جعجعة الجمال وجلبة الخدم قبل وصوله الى الدار، فلما وصل رأى كثيرا من الدواب واكثرها للأضياف، ورأى بينها جمل ليلى الاخيلية

فلما انتهى الى باب بستان الدار دخل ولم يستأذن ، لأن الناس كانوا يدخلون منه الى دار الاضياف ويخرجون بلا استئذان، ومشى فى باحة كبيرة راى فى بعض جوانبها غرفا عديدة فى صف واحد عرف انها دار الاضياف ؛ ثم راى فى صدر البستان بيتا متقن البناء على بابه الخدم ، فعرف انه مسكن سكينة ، فتحول الى دار الاضياف . لعله يرى ليلى هناك فيقيم معها ريثما تأتى سمية فتكون له وسيلة الى مقابلتها ، فبلغ دار الاضياف والخدم يقومون باعداد الاطعمة من الذبائح ونحوها ، وقد سره اشتغالهم عنه لكى يتمكن من البحث عن ليلى ، فطاف الغرف غرفة غرفة فلم يجد احدا يعرفه ، فظل ماشيا وهو يسمع ضجة من جهة مسكن سكينة بعضها من الخدم فى الخارج والبعض الآخر من الداخل. وكان يتخلل الضجة قهقهة وقوقاة مثل قوقاة الدجاج، فمشى الى مصدر الضحك فاذا هو فى غرفة بجانب باب المسكن وببابها بضعة رجال لم يعرفهم ، فدنا منهم والقى التحية فردوا السلام وابصارهم شاخصة الى داخل الغرفة ، فأطل حسن من فوق اكتافهم فرأى هناك رجلا قصيرا دميما ، قليل اللحم ، ازرق اللون ، احول البصر ، اقرع الراس ، اثط اللحية ، جلس القرفصاء على اكمة من التبن وهو يحضن بيضا ويقوقىء كما تقوقىء الدجاجة ، فاستغرب حسن ذلك ونظر الى احد الوقوف مستفهما فقال له الرجل : « الا تعرف من هذا ؟ »

قال : « لا . . ومن هو ؟ »

قال : «اشعب الطماع الذى اتخذته سكينة بنت الحسين مضحكا لها»

قال حسن : « اسمع اسمه واعرف بعض اخباره المضحكة ، ولكن منظره اضحك من اخباره . ما الذى أقعده هذا المقعد وهو يقوقىء كأنه يحضن بيضا ؟ »

قال الرجل : « بل هو يحضن بيضا حقيقة عقابا له على ذنب ارتكبه بين يدى سكينة مولاته ، فأمرته أن يقعد على هذا البيض حتى يفقس وقد مضى عليه ايام وهو على هذه الحال ! »

فشغل حسن بذلك المنظر عن قلقه لطول انتظاره خادمه ، وأراد أن يشغل نفسه هنيهة أخرى فقال : « يا أشعب ما الذى أجلسك هذا المجلس ؟ »

قال : « أجلستنى اياه مولاتى سكينة ، فهل فيكم من يخرجنى من هذا الحبس ؟ »

فقال حسن : « ومن يتوسط لك فى هذا الامر ؟ »

قال : « كأنى بليلى الاخيلية قد دخلت دار مولاتى اليوم ، فاذا كانت هنا ، فلا أرى أقدر منها على اخراجى من هذا المكان »

قال حسن : « هان الامر ، فلك على أن أوسط ليلى فى العفو عنك »

□

ولم يتم حسن كلامه حتى سمع صوتا يناديه ، فالتفت فرأى خادمه عبد الله واقفا على بضع خطوات منه فقال حسن : « ما وراءك ؟ »

فدنا عبد الله منه وقال : « دخلت البيت وسألت عن عرفجة فقيل لى انه خرج فى الصباح ولم يعد بعد ولا يعرف أحد مقره »

فابتدره حسن قائلا : « وسمية ؟ »

فقال : « وسألت عن سمية فعلمت انها ذهبت الى سكينة من برهة قصيرة فسررت بذلك واتيت لأخبرك ، فهل رأيتها هنا ؟ »

قال : « لم أرها ولعلها فى البيت مع النساء ، فكيف أصل اليها ؟ . بورك فيك ياعبد الله ، امكث أنت بالباب مع الخدم والجمل معك حتى أخرج أو أحتاج اليك فى شىء »

قال : « سمعا وطاعة » . وخرج

وعاد حسن وقد شغل عن أشعب ونجاته بالبحث عن سمية ، ولما تصور انه سيتمكن من مقابلتها خفق قلبه . فلم ير وسيلة الى ذلك الا ليلى ، فجاء باب القاعة التى تستقبل سكينة فيها ضيوفها ، فرأى عليه

رجلا واقفا وقوف الحاجب فقال لهحسن : « هل في مجلس بنت الحسين أحد ؟ »

قال الرجل : « ان مجلسها غاص بالناس ، وفيهم جماعة من الشعراء والشاعرات »

قال : « وهل فيهم ليلى الاخيلية ؟ »

قال : « نعم »

قال : « قل لليلى ان حسنا بالباب يدعوك اليه »

فدخل الرجل ثم عاد وليلى معه ، فلما رأت حسنا رحبت به فمشى بها الى خلوة وقال لها : « اني مسافر الليلة وقد جئت لوداعك »

قالت : « رافقتك السلامة ووفقك الله في مهمتك »

قال : « ولكني أعرض عليك امرا ارجو مساعدتك فيه الآن وهو لايتعبك »

قالت : « وما هو ؟ »

قال : « اتعرفين سمية بنت عرفجة ؟ »

قالت : « نعم أعرفها وقد رأيتها من برهة وجيزة جالسة بجانب سكينة تخاطبها وسكينة تلاطفها لأنها تحبها كثيرا . وأنت ما شأنك معها ؟ »

قال : « شأني معها شأن الخطيب وخطيبته فهل هي لاتزال هناك ؟ »

قالت : « لقد سرني انك خطبتها فانها زينة بنات المدينة . واظنها باقية لأني لم أرها خرجت . وعلى كل حال تعال معي فندخل القاعة فتمكث أنت مع الجلوس من الرجال وادخل انا الى مجلس النساء وراء الستار حيث تقيم سكينة وصاحباتها فأبحث عن سمية »

قال : « ارجو ان تجمعيني بها ساعة لايرانا فيها أحد سواك ، لأني خطبتها منذ ثلاثة اعوام وجئت المدينة بالامس ، وها أنذا خارج الآن ولم اشاهدها أو أخاطبها »

قالت : « لك على ذلك »

قال : « خير البر عاجله ، فاني مسافر عند الغروب »

قالت : « الا تؤجل سفرك الى غد ؟ »

قال : « كنت ارد ذلك ولكنني على موعد مع صديق لكي نسير معا ، وسيوافيني عند الغروب الى باب المدينة » . ثم غير مجرى الحديث فقال : « وأوصيك بأشعب الطماع فانه يحضن بيضا عقابا له على ذنب ارتكبه وقد وعدته بأن تتوسطي له لدى مولاته سكينة ، فلا تنسيه »

فضحكت وقالت : « قبحه الله ما اكثر مزاحه ، ولكنه وافق هوى فى نفس سكينة ، فهى كذلك تحب المزاح ، وقد تعودت معاقبته بمثل ذلك العقاب ، وحضن بيضا مرة حتى فقس وخرجت فراريجه فملأت الدار ، وهى تسميها (بنات أشعب) . انى ذاهبة وساكلمها فى شأنه . فتعال معى واجلس مع الجالسين فاذا لقيت سمية أومأت اليك فتخرج »

□

دخلت ليلى ودخل حسن فى اثرها . ثم اطل على القاعة فاذا هى واسعة وقد فرشت بالطنافس الثمينة ، وحولها الوسائد المزركشة وفى صدرها ستارة عليها صور اشجار وطيور ملونة خلفها سكينة ونساؤها بحيث ترى ضيوفها ولا يرونها

ورأى فى القاعة جماعة قد تصدرهم خمسة عليهم لباس البدو ، فسألها : « من هؤلاء المتصدرون ؟ »

قالت : « هم الشعراء . الا تعرف احدا منهم ؟ »

قال : « اظننى أعرف الجالس على الوسادة المثناة ، فهو الفرزدق ، وقد عرفته بضخامة بدنه وعبوسة وجهه وغلظه أليس هوالفرزدق ؟ »

قالت : « نعم انه هو بعينه . الا تعجب من اجتماعه هو وجرير فى مجلس واحد مع ما اشتهر بينهما من المهاجاة ؟ »

قال : « واين جرير ؟ »

قالت : « هو ذاك الذى كف شعره وادهن ، ومتى تكلم سمعت لكلامه غنة يخرج بها الكلام من انفه كأن فيه نونا »

قال : « ومن هو الآخر القصير الدميم العظيم الهامة ؟ » . قالت : « هو كثير عزة العاشق المشهور »

قال : « اعاذ الله عزة من منظره فانه قبيح . ومن ذاك الشاب الجميل العريض المنكبين الحسن البزة . وكأنه جالس القرفصاء ؟ »

قالت : « هو جميل بثينة احد عشاق بنى عذرة . الا تراه حزينا لما اشتهر من حبه لها وحرمانه لذلك منها ؟ »

قال : « ومن ذلك الاسود . ؟ انى لأستغرب منظره ، والشعراء يندرون فى السود ؟ »

فضحكت وقالت : « هو نصيب الشاعر الفحل . واما سواده فلأن امه أمة ، وهو من قضاعة » . ثم أشارت عليه بأن يجلس على احدى

الوسائد وان ينتظر ما يكون من شأنها مع سمية

فجلس وهو يخاف فوات الوقت ولم يكد يستقر به المقام حتى سمع لغطا من وراء الستار فاستبشر وظن أن ليلى تخاطب سكينة او سمية . ثم رأى جارية وضيئة خرجت وقالت : « ايكم الفرزدق ؟ »

وكان حسن يتوقع أن تناديه فلما سمعها تنادى الفرزدق التفت اليه فرآه يقول : « ها أنذا »

قالت : « انت القائل :

« هما دليانى من ثمانين قامة كما انحط باز اقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى بالأرض قالتا : احى فيرجى ؟ أم قتيل نحاذره ؟
فقلت : ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا وافلت فى أعجاز ليل ابادره »

قال : « نعم »

قالت : « فما دعاك الى افشاء السر ؟ خذ هذه الالف دينار والحق بأهلك » . فأخذها وانصرف . ثم دخلت الجارية على مولاتها وخرجت فقالت : « أيكم جرير ؟ » . فلما عرفها جرير نفسه قالت : « انت القائل :

« طرقتك صائدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعى بسلام
تجرى السواك على اغر كأنه برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذى حدثتنا لوصلت ذاك وكان غير ذمام
انى أواصل من اردت وصاله بحبال لا صلف ولا لوام »

قال : « نعم »

قالت : « أفلا اخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ . انت عفيف وفيك ضعف ، خذ هذه الالف والحق بأهلك » . فأخذها وانصرف . ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت : « أيكم كثير ؟ » فلما عرفته قالت : « انت القائل :

« واعجبنى يا عز منك خلائق كرام اذا عد الخلائق اربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك أسباب المنى حين يطمع
وانك لا تدرين صبا مطلته أيشتد ان لاقاك أو يتضرع
وانك ان واصلت علمت بالذى لديك فلم يوجد لك الدهر مطمع »

قال : « نعم »

قالت : « قد ملحت وشكلت ، خذ هذه الالف واذهب لأهلك » . ودخلت وخرجت وقالت : « أيكم نصيب ؟ » . قال نصيب : « انا هو »

قالت : « انت القائل :

« ولولا ان يقال صبا نصيب لقلت بنفسى النشأ الصغار

بنفسي كل مهضـــوم حشاها اذا ظلمت فليس لها انتصار »

قال : « نعم »

قالت : « ربيتنا صغارا ومدحتنا كبارا ، خذ هـذه الألف والحق بأهلك » . فأخذها وانصرف . ثم دخلت وخرجت فقالت لجميـل : « مولاتي تقرئك السلام وتقول لك : (ما زالت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

«الا ليت شعري هل ابيتن ليلة بوادي القرى اني اذن لسعيد
لـكل حديث بينهن بشـاشة وكل قتيل عندهن شهيد »

فجعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء خذ هذه الألف دينار والحق بأهلك » . فأخذها وانصرف

وكان حسن ينظر ويسمع ولا يستغرب مثل ذلك المجلس ، لأن اهتمام النساء بالشعر والأدب وجلوسهن لمثـل تلك المطارحة كان شائعا في تلك الأيام ونبغ من النســاء شاعرات ماهرات منهن ليلى الاخيلية وغيرها . ولكنه استغرب اهتمام سـكينة على رفعة مقامها بمباحثة الشعراء فيما قالوه ونظموه . وكان يسمع ويرى وهو قلق البال لتأخر ليلى عنه ولم يكن يدري كيف يدعوها أو يستعجلها فرأى أن يسمعها صوته ، وكان قد لاحظ وجود صور للطير والأشجار على الســتار الحاجز بين مجلسي الرجال والنســاء ، كما لاحظ وجود امثالها على الوسائد ، فرأى أن يتخذ من ذلك موضوعا لاسماع ليلى صوته . وما كادت الجارية تفرغ من مخاطبة الشعراء وتهم بالدخول بعد أن انصرفوا ، حتى استوقفها وقال : « تمهلي يا بنية »

فوقفت والتفتت اليه فقال لها : « لقـد باحثت هؤلاء الشعراء وافحمتهم فانصرفوا فهل أسألك سؤالا ؟ »

قالت : « قل ما تشاء »

قال : « ارى على ستاركم صورا وقد قال رســول الله (صلعم) : (اشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون) . . ؟ »

فأشارت الجارية اليه ان يتمهل ودخلت الى سيدتها ، ثم عادت اليه وقالت له : « وما يضرنا وما نحن من المصورين ؟ »

قال : « ولكنكم اتخذتم تلك الصور أســتارا . ولو كانت تلك صور اشجار فقط لهان امرها ، ولكنها صور لذوات أرواح ، وفي الحديث (ان الملائكة لا تدخل بيتا فيه الصورة) . . »

وهنا سمع صوتا جهوريا من وراء الستار يقول : « لا تنس تتمة الحديث (الا رقما في ثوب) . » . فأدرك ان ليلى هي المتكلمة ، وسكت

بينما عادت الجارية الى مجلس النساء ولبث هو على مثل الجمر لا يدرى ماذا يصنع ، والتفت نحو نافذة عالية فراى الشمس قد مالت الى الغروب فازداد قلقه وخشى ان يطول انتظار صاحبه سليمان بباب المدينة

□

وبينما هو يفكر فى ذلك اذ سمع لغطا وراء الستاراعقبه ضحك كثير وصوت يقول : « قد أطلقنا سراحه اذهبى يا بنانة واخرجيه ، قبحه الله ما اخبثــه » . فأدرك ان سكينة هى المتكلمة ، ولكنه ظنهـا تريد اخراجه هو فاضطرب . ثم ما لبث ان راى ليلى خارجة وهى تشير اليه أن يتبعها ، فسار فى أثرها حتى خرجا من القاعة فدنت منــه وقالت : « لا تخف انها لم تأمر باخراجك ولكنها أمرت باخراج اشعب الطماع لانى اوصيتها به عملا باشارتك »

فقال : « بورك فيك ، ولكن اين سمية ؟ »

قالت : « ليست هنا ، كانت فى المجلس وخرجت قبل ان اراك »

فاستعاذ حسن بالله وانقبضت نفسه ثم قال : « هل أنت على يقين مما تقولين ؟ »

قالت : « لقد تحققت خروجها فلعلها خرجت الى بيت ابيها لانها لا تستطيع الغياب طويلا عنه »

وفيما هما يتكلمان رأيا أشعب مهرولا نحوهما ، فلما بلغ مكانهما هم بتقبيل يد حسن وقال : « جزاك الله عنى خيرا فقد انقذتنى من عذاب طويل لأن البيض لم يكن ليفقس قبل بضعة ايام ، فأسأل الله تعالى ان يقدرنى على مكافأتك . هل استطيع خدمتك فى شىء ؟ »

قال حسن : « انى لم أفعل مايستحق هذا الثناء » . ثم التفت الى ليلى كأنه يريد الرجوع الى الموضوع ، فتنحى اشعب قليلا وقال حسن : « أستودعك الله يا ليلى ، وارجو أن اراك فى خير » . فقالت : « أسأل الله لك السلامة والنجاح »

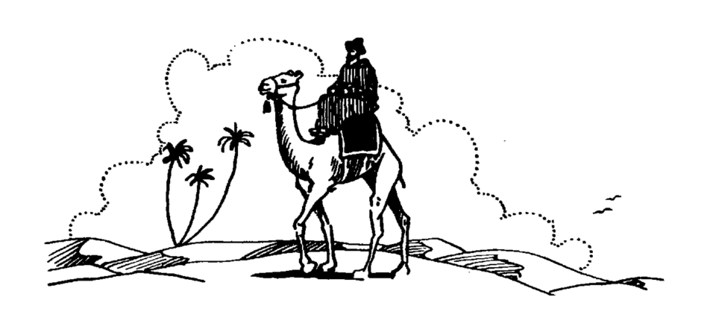
وعجل حسن بالخروج لعله يلقى سمية فى الطريق او فى البيت أو فى مكان آخر . فلما خرج وجد خادمه عبد الله فى انتظاره ومعه الجمل ، فركب والشمس قد آذنت بالمغيب وبان الشفق الأحمر ، وما زال يحث جمله حتى بلغ بيت عرفجة فأحس بشىء استوقفه بغتــة وما هو الا عامل الحب أوقفــه بجانب منزل الحبيب . فلم يتمالك ان نادى

عبد الله ، فجاء هذا ووقف بين يديه وهو يقول : « هل اسال عن سمية فلعلها عادت ؟ »

فأعجب حسن بنباهته ودقة شعوره ، وابتسم ولم يجب ، فاسرع عبد الله الى البيت ثم عاد وهو يقول : « انها لم تعد يا سيدى »

فتنهد حسن ، وخيل اليه أن سمية باقية هناك فى بيت سكينة ولكن ليلى لم ترها ، أو انها رآتها واخفت امرها . وتكاثرت عليه الهموم وتراكمت الظنون ـ والمحب سىء الظن كلما اشتد حبه كثرت هواجسه وزاد سوء ظنه بحبيبته وأكثره من قبل الغفلة ، فاذا راى حبيبه يخاطب احدا مهما يكن من شأنه او مقامه أو قرابته تبادر الى ذهنه أن يغازله او يسر اليه أمرا ، واذا ابطأ عليه بالزيارة سبق الى فهمه انه فى موعد مع آخر أو لايحبه او يحب سواه . وقد يخيل له ان اهل الحبيب كلهم ضده وانهم يمنعونه منه فاذا تخاطبوا همسا أو قصروا معه فى شأن خيل له انهم يريدون به سوءا او هم ينصبون له احبولة فالمحب كثير الهواجس سىء الظنون

فلا تلم حسنا اذا أساء الظن بليلى وحسبها تآمرت على اخفاء سمية عنه . وقضى برهة فى مثل هذه الهواجس وهو على جمله ، ثم انتبه فاذا بالظلام يتكاثف وتذكر صديقه سليمان فأجفل وشق عليه تأخره عن الموعد مع ما أبداه الرجل من الرغبة فى مرافقته وبالغ فى اكرامه والتقرب منه ، فاستحث جمله وطلب باب المدينة وقد يئس من مشاهدة سمية ، وان علل نفسه بلقائها عند رجوعه من مكة



المفاجاة السارة

سار حسن بضع دقائق صامتا حتى أشرف على باب المدينة ، ومن ورائه المستنقعات والتلال وغابات النخيل. وفيما هو ينظر الى ما وراء الباب اذا بشبح وقف له فى الطريق هاتفا باسمه فالتفت حسن وقلبه يخفق لشدة وقع ذلك الصوت على اذنه ، ثم امسك زمام جمله ونظر الي الشبح فاذا هو امراة ، فحدثه قلبه بأنها سمية فوثب على الارض حتى وقف بين يديها ، وتنحى عبد الله وقد اخذ بزمام الجمل وتشاغل باصلاح الرحل

اما حسن فانه نادى : « سمية ؟ »

قالت : « نعم ، ومن الذى معك ؟ »

قال : « هو خادم امين لا تخافى منه . ما الذى جاء بك الى هنا فى هذا الليل ؟ أأنت سمية حقيقة ؟ !.. ما الطف هذا اللقاء وما أسعد هذه الساعة ! . سمية حبيبتى قولى ما بدا لك »

فتنهدت وأسندت كتفها الى حائط هناك وتشاغلت باصلاح نقابها ، وسكتت

وقد سر حسن لسعيها الى ملاقاته ، ولكنه اوجس خيفة مما دعاها الى ذلك لما يعهده فى ابيها من الشدة والغلظة فقال لهـا : « انى لا ارى فى هذه الدنيا احدا اسعد منى الآن ، وقد بذلت الوسع فى سبيل الحصول على هذه المقابلة فلم افز ، وها قد أتتنى الساعة عفوا فالحمد لله ، ولكننى أخشى أن يكون لهذه المخاطرة سبب بسوء » . فتحيرت سمية ولم تدر بم تجيبه فلبثت صامتة ، فازداد هو قلقا وقال لها : « ما بالك؟ قولى . لعلك علمت بذهابى الى مكة فخفت خطرا يهددنى هناك ؟ »

فلما سمعت ذكر الخطر اجابته والبكاء يخنق صوتها : « نعم اخاف عليك الخطر ، ولكن ليس فى مكة فقط بل . . » . وشرقت بالدمع فانقطع صوتها

فتقطع قلب حسن ومد يده فأمسك اناملها ، وهى أول مرة قبض فيها على تلك الانامل ، فأحس برعشة تملكته وقال لها : «ماذا ؟. قولى يا سمية . يا مالكة قلبى. هل تخافين على احدا فى هذه المدينة ايضا ؟

انك ما دمت لى لا تحبين سواى فلست ابالى بعد ذلك اذا كان أهل الارض كلهم اعدائى ! »

قالت : « واذا كنت انا عدوتك ؟ »

فحمل منها ذلك على قصد المزاح وقال لها : « اذا كنت انت عدوتى فلا غرض لى فى الحياة . بالله قولى ما فى نفسك . ممن تخافين على ؟ فأريك دمه مسفوكا ولو كان حوله جيش جرار . قولى »

فتنهدت ومسحت دموعها بطرف نقابها وهى تقول : « لا اريد ان ارى دمه مسفوكا »

فتعجب وقال : « وماذا اذن ؟ افصحى يا سمية . قولى . ممن تخافين على ؟ فقد نفد صبرى وطال تأخرى عن الخروج من المدينة ولى صديق ينتظرنى فى الخارج . قولى »

قالت : « انى اعد قولى عقوقا منى . ولكننى اسيرة حبك لا ارى لى حياة الا بك »

فقطع حسن كلامها وقد أدرك ما تريده فقال : « قد فهمت ماتريدين . انك تخافين على من ابيك . أليس كذلك ؟ »

قالت : « نعم » . واستغرقت فى البكاء حتى كاد يغمى عليها وكان هو ما زال ممسكا بيسراها ، فأمسك بيدها الأخرى وقال لها : « ولا هذا يهمنى ما دمت تحبيننى . هل تحبيننى يا سمية ؟ »

فصعدت الزفرات ولم تجب ، فقال : « فاذا كنا متحابين فمن ذا يحول بيننا ؟ »

وسكت برهة وقد عظم عليه الأمر ثم قال : «وما الذى دعا اباك الى بغضى والحاق الأذى بى وأنا لم ارتكب منكرا ولا اسأت اليه فى شىء ؟ »

قالت : « ذنبك انك احسنت اليه . أو لعل ذلك من سوء حظى . ولكن ما لنا ولهذا ، ان الوقت لا يأذن بطول الشرح . فأخبرك أن أبى لايريدك ، واخاف أن يسعى فى اذاك ، وقد علمت ذلك على أثر خروجك من منزلنا ، فأردت اطلاعك على جلية الخبر لتكون على بصيرة »

قال : « اما الحاق الأذى بى فانى لا أخافه ، ولكننى اخاف ان يلحق الأذى بك انت »

قالت : « لقد اظهرت له الطاعة والرضا ريثما اراك ثم افعل ما تأمرنى بى »

فأطرق حسن ثم قال : « انى مغلول اليدين بما اخذته على نفسى من امر السفر الى مكة عاجلا فى مهمة لرجل احبه وله على فضل كبير .

وكنت احب أن ادعوك للذهاب معي ولكنني ذاهب الى مكان به الحرب قائمة فلا أريد تعريضك لهذا الخطر »

فقطعت كلامه قائلة : « وكيف تعرض نفسك للخطر ؟ ان مكة اليوم فى أضيق حصار وأهلها فى ضنك شديد . بالله الا عدلت عن الذهاب ثم تفعل ما تريد ؟ »

قال : « أما الذهاب فلا بد منه فامكثى أنت هنا واظهرى الطاعة حتى أعود ونرى ما يكون . ولست أخشى بأسا ولا خطرا ما دمت لا تحبين سواى » . ثم سمع جعجعة الجمل فانتبه للوقت وقال لها : « كنت اود الا نفترق منذ الآن ولكن للضرورة احكاما . وسأرسل عبد الله معك الى منزلك لأن الليل قد اظلم ولا آمن عليك المسير وحدك ، فهل تسيرين الى بيت أبيك ؟ »

قالت : « لا ولكنى أعود الى بيت سكينة لأن أبي يعلم أنى سرت اليها فاذا استبطأنى سأل عنى هناك فاعتذر عن تأخرى ، وذلك من غير أن يرانى عائدة الى البيت وحدى فى هذا الليل . ولكن كيف افارقك؟ »

قال : « تشددى يا سمية ان سفرى هذا لابد منه ، ولكنه سيكون آخر الأسفار باذن الله ثم نعود ونعيش معا »

فلما قال ذلك بكت سمية حتى سمع صوت بكائها فانفطر قلبه ، وكاد يشاركها البكاء لولا انه تجلد وقال لها : « لا تبكى يا سمية بل اتكلى على الله واعلمى انى عائد اليك على عجل » . قال ذلك ونادى عبد الله وقال له : « اوصل سمية الى بيت سكينة ، ثم الحق بى فى الطريق المؤدى الى العقيق ، فانى سابقك الى هناك ، فقد ابطأت على سليمان وأخاف ان يكون قد سبقنى أو عاد الى منزله »

□

سارت سمية وهى تقول لحسن : « سر فى حراسة الله ، واسأله ان ينصرك على أعدائك » . وظل صوتها يرن فى أذنيه حتى توارت عنه ، فركب جمله وساقه الى باب المدينة ولم يكن مقفلا فالتفت يمنة ويسرة فلم ير سليمان

فخرج وهو يمشى الهوينى ويصيخ بسمعه لعله يسمع صوتا ، وجعل يحدق بعينيه لعله يرى أحدا فسار والجمل دليله بين تلك المستنقعات . ولكنه لم يسر طويلا حتى سمع جعجعة جمل عن بعد فاستوقف جمله وأصاخ بسمعه وحول الزمام الى جهة الصوت وساق

الجمل سوقا بطيئا فمشى به بين النخيل والظلام سادل ستاره والسكوت سائد فلم يكن يسمع غير وقع خفاف الجمل على العشب او الطين

وبعد قليل سمع حسن صوت بكاء وأنين ، فوقف وأصغى ، فسمع صوتا عميقا ، وخشى ان يجعجع جمله فيشوش الصوت فترجل عنه وعقله وشده الى نخلة ، ثم مشى على قدميه وهو يتلمس الارض مخافة ان يخوض فى الأوحال حتى تحول عن الطريق الأصلى الى ساحة لا نخيل فيها ولا عشب ، فراى جملا معقولا وشبحا متوسدا الى جانبه وفوق راس الشبح شبح آخر يبكى وينتحب . فاختبأ حسن فى منعطف بحيث يرى ويسمع ولا يراه أحد ، فسمع صوتا يقول : « يا لتعاستى وشقائى ! . لقد فتكت بك يا ولدى وفلذة كبدى ، انى لأستحق هذا القصاص ، ولكن ما ذنبك انت ؟ تبا لى ما أتعس حظى ! . ولدى ! حبيبى ! كلمنى يا سليمان . سليمان . . سليمان »

فلما سمع حسن اسم سليمان علم أنه صديقه ، فاقشعر بدنه وخشى ان يكون قد اصابه سوء بسببه ، فنهض ومشى ويده على قبضة سيفه حتى اقبل على الشبحين ولم ينتبه له أحد

ثم سمع الشبح الراقد يقول بصوت ضعيف : « لا تحزن يا ابى فقد ذهبت فداء صديق لى هو أحق بالحياة منى »

فقال الآخر : « اظنك تعنى هذا الشقى لأنه وفى بعهده . انى عاهدت الله على نصر الحسين والقتال فى سبيله وجعلت نفسى فى عداد التوابين ، ثم رجعت لخدمة هؤلاء الطغاة . وكثيرا ما رايتك غير راض بذلك ، فلم أكن أصغى اليك حتى ضربنى الله هذه الضربة على قلبى ! »

فتحقق حسن أن الراقد سليمان ، وأنه فى ضيق ، فلم يتمالك عن أن صاح قائلا : « سليمان ؟ »

فأجفل الرجل الجالس وحسب الجن تخاطبه ، فوقف للحال وقال : « انسى انت أم جنى ؟ » . وكان الرجل كهلا فى نحو الستين من عمره والشيب قد جلل راسه وهو طويل القامة دقيق العضل قصير اللحية صغير العمامة . ولم يتم الرجل سؤاله حتى كان حسن بين يديه وقد أكب على سليمان وهو راقد على ظهره وفوقه القباء وقد تلطخ بالدم فتفرس فى عينيه فاذا هو يفتحهما فتحا ضعيفا ويتألم فأمسكه حسن بيده وقال له : « سليمان ؟ . أخى سليمان ! ماذا أصابك ؟ »

وكان لذلك الصوت وقع عظيم على اذنى الجريح ، ففتح عينيه وصاح : « حسن ؟ اشكر الله على أن جعلنى فداءك »

ولم يتم سليمان كلامه حتى تقدم الرجل الآخر وقال : « حسن ؟

انت حسن ؟ . يا لله ما هذه المصيبة التى نزلت بى بسببك ولكن الذنب ليس ذنبك وانما هو ذنبى انا الشقى التعس ! »

فادرك حسن ان الكهل والد سليمان ، وانه كان يترصده فأصاب ابنه خطأ . فصرف عنايته الى انقاذ حياة سليمان ، وحاول أن ينهضه قائلا لأبيه : « الى بالماء» . فجاءه بشيء منه من مستنقع قريب ، فرش به وجه سليمان وغسل موضع الجرح فى أعلى الصدر ، وكان قداصيب بنبلة أخرجها ابوه .

وكان حسن قد تعلم بعض الوسائل الطبية من معاشرة خالد بن يزيد الاموى فى دمشق ؛ لأن خالدا كان شديد التعلق بالعلوم الطبيبة حتى فاق بها سائر قريش ، وكان بصيرا بصنعة الكيمياء والطب متقنا لهما ، والف فى ذلك بعض الكتب والرسائل وقد اخذ العلم عن راهب اسمه « يانس » . ولم يكن مجلس خالد فى دمشق يخلو من اهل العلم فكان حسن يجالسهم ويسمع اقوالهم

فلما غسل الجرح ضغطه ، وامر ابا سليمان بايقاد النار فأوقدها بالزناد ، ثم انتظر حسن حتى تكون بعض الرماد فأخذ قليلا منه وذره فوق الجرح وربطه

ثم سأل عن ماء للشرب فقال الرجل : « ليس معى قربة »

فقال حسن : « اسند ظهره لآتيك ببعض الماء من قربتى » . قال ذلك ونهض ، ثم تحول نحو النخلة التى عقل جمله عندها فلم يجد الجمل هناك فطار صوابه لأنه كان قد ترك كتاب خالد بن يزيد فى مخبأ بالرحل الذى فوق الجمل حرصا عليه ، وهذا الى ان الجمل كان عزيزا عنده وعليه عدته وثيابه والماء وكل شيء . على انه لم يشأ ان يضيع الوقت وسارع الى اقتفاء آثار الجمل ، وكان قد لاحظ ان حل عقال الجمل لايدل على حدوث عنف ، فتبادر الى ذهنه انه لم يعقله عقلا متينا فانحل من تلقاء نفسه ، وانطلق الجمل هائما على وجهه او يطلب المرعى هنا وهناك

وسار حسن فى طلب الجمل مضطربا خائفا لأنه غريب فى تلك البلاد ، ثم وقف ونظر الى ماحوله من الغياض والبساتين والظلام حالك ، فلاح له ظل يتراءى بين النخيل امامه ، فتفرس جيدا واصغى بسمعه فسمع هدير جمل هناك فاخذ طريقه اليه ، ولاحظ ان ذلك الشبح يبتعد ، فسارع السير فى اثره وهو يتعثر بالاعشاب والاحجار ونظره شاخص اليه ، وما زال يمشى والشبح يمشى أمامه حتى خرجا من بين النخيل الى الفلاة ، فما كاد حسن يتفرس فى الشبح حتى ادرك انه هو جمله فواصل السير فى اثره ، وكان الجمل اجفل من المطاردة فأسرع فى سيره ، وظل سائرا مدفوعا برغبته فى القبض عليه حرصا على ما يحمله

جميـــل وبثينـــة

وفيما هو يركض ويلهث اذا به يرى شيخا عليه لباس الرعاة يسير عاري الراس وقد غرس عصاه فى قفا طوقه ، وعليه عبـاءة قصـيرة وخشونة البداوة بادية فى وجهه مع شـدة الظلام . فنـاداه حسن : « يا اخا العرب ، الم تر بعيرا راكضا هنا ؟ »

وما اتم حسن سؤالهحتى اسرع الرجل اليه وامسك بذراعه وضغطها بشدة فى حين اشار اليه ان يسكت وينتظر ، فالتفت حسن الى ماحوله فراى شجرة كبيرة على اكمة وراى هناك ظلا يتحرك ، فهمس فى اذن الشيخ قائلا : « ما شأنك ؟ . اخبرنى »

قال : « لقد اتفق لى اليوم حادث غريب مع رجل لقيته على غير معرفة فاذا اصغيت لى قصصت الخبر عليك ، ثم نذهب ونستطلع بقيته معا عند تلك الشجرة »

قال حسن : « ولكن هل رايت جملا راكضا من هنا ؟ »

قال : « نعم رايته واظنه طلب هـذا الوادى ، ولا تخف عليه فانى كفيل برده اليك ، لانى اعرف رجال الحى وهم يعرفوننى ، والابل سارحة عندهم ولاخوف عليها »

قال حسن : « واى واد هذا ؟ »

قال : « هو وادى القرى »

قال حسن : « اليس هو موطن بنى عذرة المعروفين بشدة عشقهم وعفتهم ؟ »

قال : « هو بعينه . والحادث الذى وقع لى اليوم يكشف لنا عن حقيقة ما نسمعه عن هؤلاء . فاعرنى سمعك لأقص عليك الخبر »

فمال حسن الى سماع الحديث ، واهل الغرام يميلون الى أحاديثه ، فقال الرجل : « قضيت فى هذه الاودية معظم فصل الربيع ارعى ابلى ، فجاءنى فى أصيل اليوم رجل طويل القامة منطو على رحله كأنه جان ، فسلم على ثم قال : (ممن انت يا عبـد الله ؟) . فقلت : (أحـد بنى حنظلة) . قال : (فانتسب) . فانتسبت حتى بلغت فخذى الذى انا منه . ثم سـألنى عن بنى عذرة اين نزلوا فقلت له : (هل ترى ذلك

السفح انهم نزلوا من ورائه) . قال : (يا أخا بني حنظلة ، هل لك في خير تصطنعه لي ، فوالله لو أعطيتني ما ترعاه من هذه الابل ما كنت بأشكر عليها مني لك عليه)

« فقلت : (نعم ومن أنت ؟) . قال : (لاتسألني من انا ، ولن اخبرك بأكثر من اني رجل بيني وبين هؤلاء القوم مايكون بين بني العم ، فان رأيت أن تأتيهم فانك تجد القوم في مجلسهم فتنشدهم بكرة ادماء تجر خفيها عقلاء من السنة . فان ذكروا لك عنها شيئا فذاك ، والا فاستأذنهم في دخول البيوت وقل : ان المراة والصبي قد يريان مالا يرى الرجال . فاذا اذنوا لك فادخل بين البيوت واسأل أهلها حتى لاتدع أحدا تصيبه عينك ولا بيتا من بيوتهم الا وقفت به وسألت) . . »

فدهش حسن واشتدت رغبته في سماع بقية القصة ، وعاد الشيخ الى الكلام فقال : « فأتيت القوم فاذا هم على جزور يقتسمونها ، فسلمت وانتسبت لهم ونشدتهم ضالتي ، فلم يذكروا لي شيئا ، فاستأذنتهم في دخول البيوت وقلت : (ان الصبي والمراة قد يريان مالا يرى الرجال) . فأذنوا . فأتيت اقصاها بيتا ثم مضيت اطوف بها بيتا بيتا اسألهم فلا يذكرون شيئا . حتى اذا انتصف النهار وآذاني حر الشمس وعطشت وفرغت من البيوت وذهبت لانصرف ، حانت مني التفاتة فاذا بثلاثة أبيات فقلت في نفسي : (ماعند هؤلاء الا ماعند غيرهم) . ولكني عدت فقلت لنفسي : (أيثق بي رجل يؤكد ان حاجته تعدل كل مالي ثم آتيه فأقول عجزت عن ثلاثة أبيات ؟) . فانصرفت عامدا الى اعظمها ، فاذا اهله قد ارخوا مؤخره ومقدمه ، فسلمت فردوا السلام . وذكرت ضالتي فقالت جارية منهم : (ياعبد الله قد أصبت ضالتك، وما اظنك الا قد اشتدعليك الحر واشتهيت الشراب) . قلت : (اجل) . قالت : (أدخل) . فدخلت فأتتني بصفحة فيها تمر من هجر ، وقدح فيه لبن ، والصفحة مصرية مفضضة والقدح لم أر اناء قط احسن منه . فقالت : (دونك) . فأكلت التمر وشربت من اللبن حتى رويت . فقلت : (يا أمة الله ، والله ما اتيت اكرم منك ولا احق بالفضل ، فهل ذكرت عن ضالتي شيئا) . فقالت : (هل ترى هذه الشجرة فوق الشرف ؟) . قلت : (نعم) . قالت : (ان الشمس غربت أمس وهي تطوف حولها ، ثم حال الليل بيني وبينها) . فظننتني فهمت مرادها فقلت : (جزاك الله خيرا ، والله لقد تغديت ورويت) . ثم مضيت فأتيت تلك الشجرة وطفت بها فما رأيت أثرا . فأتيت صاحبي فاذا هو متشح بكسائه وقد قبع بين الابل ورفع عقيرته يغني فقلت : (السلام عليكم) . قال : (وعليكم السلام ، ما وراءك ؟) . قلت : (ما ورائي شيء) . قال : (لا عليك ، فأخبرني بما فعلت) .

فقصصت عليه القصة حتى انتهيت الى ذكر المراة واخبرته بما صنعت فقال : (قد أصبت طلبتك) . فعجبت لأنى لم اجد شيئا . ثم سألنى عن صفة الاناءين والصفحة والقدح ، فلما وصفتها له تنفس الصعداء وقال : (قد أصبت طلبتك والله) . ولما ذكرت له حديث الشجرة وغروب الشمس وهى تطوف حولها ، بدا البشر فى وجهه وقال : (حسبك) . ففهمت أنها ضربت له موعدا للقائه عند هذه الشجرة بعد الغروب . ومكث حتى أوت ابلى الى مباركها ، فدعوته الى العشاء فلم يدن منه وجلس منى بمزجر الكلب . حتى اذا ظن انى نمت ، قام الى عيبة له فاخرج منها بردين، ارتدى أحدهما وائتزر بالآخر ثم انطلق نحو الشجرة . وهو الذى تراه جالسا هناك بقرب جذع الشجرة ، وسنرى مايكون من اجتماع الحبيبين »

□

امسك الشيخ حسنا بيده ، وجذبه الى الجلوس بجانبه على الارض بين شجيرات هناك ، ثم اشار بيده صامتا نحو شبح صاعد من الوادى وعليه لباس النساء ، ومعه شبح آخر وقال : « هذه هى الفتاة ومعها خادمتها ، اضطجع مكانك لنرى مايكون »

فانبطحا ، وبعد قليل زحفا حتى اقتربا من الشجرة واختفيا فى مكان بحيث يريان ويسمعان مايدور بين الفتى والفتاة

ولو أن الليلة كانت مقمرة ، لتبين لهما ما ارتسم على وجه الفتى حين وصلت الفتاة ، فوقف وتقدم للقائها وهو يحسب نفسه فى خلاء وظلمة . وكان قلب حسن فى اثناء ذلك يضرب ضربات سريعة مخافة ان يرى من الحبيبين ما يخجله أو يهيج غيرته ، فندم على اصغائه للشيخ الراعى لما فى اختلاس أسرار الناس من أمر منكر . على أنه أحس بميل شديد لاستطلاع مايدور بين هذين العاشقين . واستطلاع مثل هذه الاسرار مما تتوق اليه النفس . والميل الى ذلك عام فى الناس على اختلاف طبقاتهم وان تفاوتوا فى احترام تلك الاسرار والاغضاء عن استطلاعها عملا بالآداب العامة

وملتقى الحبيبين على هذه الصورة تميل النفس الى رؤيته ولا سيما عند اهل الغرام فلا عجب اذا اختلج قلب حسن واصطكت ركبتاه واقشعر بدنه. ولم يكن سبب ذلك التأثر الا توقعه أمرا يخاف أن يراه ولايريد أن يفوته . ولكنه ماكاد يرى العاشق واقفا لرد التحية حتى عرف من طول قامته وغنة صوته انه جميل الذى رآه اصيل ذلك اليوم فى مجلس سكينة . فتحقق ان الفتاة هى بثينة ، لأنه كثيرا ماكان يسمع

احاديث غرامهما وكيف منعه اهلها منها ولكنه مازال يحبها حبا مفرطا ، كما انها تحبه هي ايضا . وكان حسن يسمع بحب بني عذرة وعفافهم ولكنه لم يكن يصدق ان مثل ذلك الملتقى في ذلك الخلاء على غفلة من الرقباء يكون مقصورا على القاء التحية

وكانت الفتاة مقنعة فجلست على حجر وجلس جميل على حجر لايمس ثوبه ثوبها ولايده يدها . جلسا متقابلين ينظر احدهما الى الآخر ولايفوه بكلمة الا ماكان عتابا او تشاكيا ، ولايقولان فحشا ولا هجرا . فاستغرب حسن مارآه من العفة الصادقة ، ثم سمع الفتاة تنادي خادمتها وكانت الخادمة قد وقفت على مقربة منهما ، فجاءت تحمل قصعة من الطعام فجلسا يأكلان ويتحادثان فلما فرغا من الطعام قالت بثينة : « بلغني انك قلت في اشعارا فهل انت على حبك ؟ »

قال : « لا اعرف في لغة البشر لفظا يعبر عما في قلبي ، فانه اعظم من الحب ، واشد من الغرام ، وارقى من العبادة . لا ادري ما هو يا بثينة فاذا اكتفيت بتسميته حبا فاني لا اراه يؤدي ما في قلبي »

قالت : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « لا ادري ياحبيبتي . لا ادري كيف هو ولا ما هو ! » . ثم صعد الزفرات وقال : « انما اعلم انك نصب عيني اينما سرت وحيثما جلست وكيفما نظرت . ان بثينة امام عيني ، اراها جسما واضحا ومن عداها من الناس اراهم اشباحا اوظلالا . ولم اسمع اسمها الا اضطربت جوارحي وخفق قلبي ، ولا ارى راحة الا بالبكاء ، حتى قلت :

(خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلي؟) . »

فقالت بثينة : « اذا كنت انت كذلك فكيف انا ، ولكننا معشر النساء مقضي علينا بالتعب والشقاء ، فلا تقدر احدانا على بث شكواها الى احد لئلا ينثلم عرضها . واما انتم معشر الرجال فلكم الحرية كلها . وانت تزعم انك تحبني حبا لاتدري مقداره . فهل يهجر محب حبيبه وقد احبه الى هذا الحد ؟ فوالله ما اعلم ماتسمعه عني اوتقوله في اثناء الغياب الطويل . ولا ادري موقع بثينة ممن يقع بصرك عليهن ؟ » . قالت ذلك بنغم الدلال فازداد جميل هياما وقال لها :

« اني لاحفظ غيبكم ويسرني اذ تذكرين بصالح ان تذكري
ويكون يوم لا ارى لك مرسلا او نلتقي فيه ، على كاشهر
يا ليتني القى المنية بغتة ان كان يوم لقائكم لم يقدر
لا تحسبي اني هجرتك طائعا حدث لعمرك رائع ان تهجري
بهواك ماعشت الفؤاد وان امت يتبع صداي صداك بين الاقبر»

فما تمالكت بثينة عند سماعها قوله ان غصت بريقها وقالت .
« وهل انت الذى قلت :

« ألا ليت شعرى هل ابيتن ليلة بوادى القرى انى اذن لسعيد
وهل القين فردا بثينة مرة تجود لنا من ودها ونجود »

قال : « نعم »

قالت : « وما الذى ترجو أن نجود به ونحن بنو عذرة ؟ »

قال : « لا اطمع منك بغير الحديث والنظر ولو كان من وراء نقاب

« لا ، والذى تسجد الجباه له مالى بما تحت ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت بها ما كان الا الحديث والنظر »

فأطرقت بثينة خجلا ثم قالت : « ذلك عهدنا بجميل ، ولولا ذلك ما رايتنى اسعى اليك وحدى »

فلا تسل عن استغراب حسن والراعى مارأياه حتى هانت على حسن نفسه لأنه لم يكن يظن انه يستطيع ما استطاعه جيل اذا التقى بسمية

قضى جميل وبثينة ساعة فى مثل ذلك ثم نهضت فودعته أحسن وداع ، فودعها بمثله ، وانصرف كل منهما فى سبيله وكل منهما يمشى خطوة ثم يلتفت الى صاحبه

فلما توارنا نهض حسن من بين الاعشاب مذهولا وقال للرجل : « لقد رايت منظرا طالما تاقت نفسى لمشاهدته ، انه منظر يخجل منه كل ضعيف النفس دنىء الطبع . ان العفة يا اخا العرب خير ما فى الفضائل »

فقال الشيخ وهو ينقربعصاه على عباءته لنفض التراب عنها : «كيف لا وقد سمعت ابن عباس رضى الله عنه يقول قال رسول الله ــ صلعم ــ (من عشق فعف فمات فهو شهيد) . وقال أيضا : (عفوا تعف نساءكم) . »

فقال حسن : « صدق رسول الله ، وان بنى عذرة كلهم لشهداء فقد بلغنى مثل ذلك عن كثير من عشاقهم ولكننى لم أصدق حتى رأيت ذلك راى العين »

ثم انتبه حسن لما هو فيه من أمر جرح سليمان وضياع الجمل فقال للراعى : « اين الجمل يا اخا العرب فقد وعدتنى باحضاره »

قال : « امكث هنا حتى آتيك به » . قال ذلك وانحدر فى الوادى حتى توارى عن النظر ، ولكن صوت الاحجار المتدحرجة تحت قدميه مازال مسموعا ؛ ثم ساد السكون فجلس حسن تحت الشجرة ولبث ينتظر عودة الشيخ وقد استوحش المكان

ولما خلا حسن الى نفسه تحت الشجرة جالت به هواجسه فى عالم الخيال فانتقل ذهنه مما شاهده فى ذلك المساء الى سمية وحاله معها . ثم الى خادمه عبد الله وتأخره ، ثم الى سليمان وأبيه ، ثم عاد الى الجمل الهارب بكتاب خالد فرأى انه اهمل البحث عنه بتربصه هناك لمشاهدة لقاء ذينك الحبيبين . ولكنه اعتذر بأنه انما فعل ذلك مرغما ، فلو انه لم يطع الشيخ الراعى وظل فى مسيره لما وجد الى جمله سبيلا لانه يجهل تلك البقاع ولا يعرف طرقها

وفيما هو كذلك وظلام المساء لايريه على الآكام والاودية المحيطة به الا ظلالا ضعيفة ، سمع خربشة بين الاعشاب فوقف بغتة ثم فطن الى انها خربشة ضب سارح فلم يلتفت اليه . ولكنه ظل واقفا وقد تزايد قلقه لابطاء الراعى وهم باللحاق به ولكنه خاف أن يختلفا فى الطريق

ولما طال انتظاره مل الوقوف فمشى على غير هدى ، واتخذ علامة علقها على الشجرة لتهديه الى المكان من بعيد . وجعل مسيره فى جهة الوادى الذى سار اليه الراعى يطلب الجمل وهو يتوقع أن يلتقى بالشيخ وهو عائد أو يسمع جعجعة الجمل عن بعد أو يعود الى مكانه . ولذلك فانه كان كلما مشى بضع خطوات التفت الى الشجرة مخافة ان تتوارى عن بصره وراء بعض التلال ، فمشى مسافة طويلة لم يسمع فى اثنائها صوتا ولا رأى شبحا ، ثم نسى أمر الشجرة فانحدر فى الوادى وهو يتلمس الارض ولايرى الطريق فكانت رجله تزلق طورا ، وترتطم أصابعه طورا من فوق النعال بأصول الاعشاب الباقية بعد المرعى ، وهو بين أن يحملق نحو الوادى بعينيه أو يصيخ بأذنيه أو يتفرس فى الطريق بين يديه . فلما طال به المسير ولم يهتد الى شيء ندم لنزوله من مكانه

وبعد مسير طويل على تلك الصورة سمع نباح كلاب فى الوادى فالتفت الى جهة الصوت فرأى نورا ضئيلا فتأثر الصوت فاذا به يتعاظم كلما اقترب من النور ، فعلم انه على مقربة من بعض القرى الكثيرة فى وادى القرى منتشرة فى بطنه وعلى جانبه . ولكنه استغرب النباح فى الليل لعلمه ان ذلك لايكون الا اذا طرق الحى غاز أو لص . فوقف ليستريح ويفكر فى أمره فالتفت الى مايحيط به فاذا هو فى واد بين جبلين والظلام حالك والمكان موحش ولكنه استأنس بتلك النار على بعدها فمشى نحوها فرأى شبحا يعدو صاعدا من الوادى كأنه غزال نافر فلما اقترب منه علم انه الراعى واستغرب مجيئه وحده فصاح فيه : « ما وراءك يا اخا العرب ؟ . اين الجمل ؟ »

قال : « ما الذى جاء بك الى هنا ؟ »

قال : « جاء بى قلقى على الجمل ورغبتى فى التعجيل بالاياب »

قال : « وما الفائدة من انحدارك فى هذا الوادي والليل دامس وانت لاتعرف الطريق وقد تعرضت للخطر بطرقك هذا الحى ليلا اذ نبحتك الـكلاب ، لأنها لم تألفك من قبل كما الفتنى لكثرة ترددى الى هـذه القرى »

فقطع حسن كلامه قائلا : « مالنا ولهذا ؟ قل لى اين الجمل ؟ »

قال : « لم أعثر عليه فى المكان الذى كنت اظنه فيه ، والظاهر انه قصد ماء آخر وقد كنت ذاهبا للبحث عنه فى العقيق بجوار المدينة »

فاستعاذ حسن بالله وقال : « ياالله ! ما هذه المصيبة ؟ »

فابتدره الراعى قائلا : « لاتخف ياسيدى فلن يضيع الجمل ولو غاب عنك طويلا فان اهل البادية يرسلون ابلهم للمرعى وقد لايرونها اياما ثم تعود بنفسها او يعود بها غلام او فتاة . وقد كان ذلك شـأننا فى زمن الجاهلية فكيف ونحن الآن فى ظل الاسلام ، واما أنتم معاشر اهل المدن فاذا غفل الرجل منكم عن عمامته خاف اختطافها »

فمل حسن من جدال الراعى فقال له : « مالنا ولهذا الجدال ؟. اين الجمل وكيف السبيل اليه ؟ »

فقال : « يغلب على ظنى انه سار الى العقيق وهو ماء يخرج أهـل المدينة اليه فيقيمون عنده ساعات أو اياما فى خيـام يحملونها معهم ، وربما ذبحوا الذبائح واولموا الولائم »

فقطع حسن كلامه قائلا : « ثم ماذا ؟ »

قال : « فالعقيق مجتمع اهل الرخاء من اليثربيين وهو يذكرنى ايام الشـباب ، فقد كان العقيق موعدنا لنلقى نسـاء المدينـة . لا تغضب ياسيدى اننا سائرون الآن جنوبا نحو المدينة والعقيق فى طريقنا اليها »

□

استغرب حسن بعده عن المدينة شمال المكان الذى ترك سليمان واباه فيه ، فقال للشيخ : «هلم بنا » . « فمشيا والراعى على شيخوخته اسرع عدوا منه لأنه تعود المشى فى الوعر . اما حسن فلما صـعد من الوادى والتفت الى السماء وتبين الـكواكب فعلم انه فى اواخر الليـل بغت لضياع الوقت وهو لم يأت عملا بعد ، وتشاءم مما تأتى له فى ذلك المساء وهو انما امسك عن رؤية حبيبته رغبة فى المسير الى مكة على عجل ، فكيف يعود الى الوراء بعد قضاء الليل فى المشى والقلق ؟

قضى مدة سائرا فى اثر الراعى ، على أرض رملية ، بعضها رطب بما يرشح فيه من الماء . وفكره تائه حتى راى نجم الصبح فعلم ان الفجر

دنا ثم راى الراعي وقف واشار اليه قائلا: « الا ترى الماء امامنا عن بعد؟»

قال : « انى ارى سطحا لامعا وكانى ارى فيه سماء اخرى من انعكاس انوار الكواكب »

ولما راى الماء شعر بانشراح الصدر واستبشر ببلوغ امنيته وجعل يتفرس فى ضفاف ذلك الماء لعله يرى اناسا او جمالا فلم ير شيئا . ثم سمع الراعي يقول : « ها اننا على ضفاف العقيق ولا نرى فيه احدا سوى آثار اناس كانوا هنا ورحلوا فى اوائل الليل فاقعد على هذا الحجر واغسل رجليك فى هذا الماء واسترح ريثما آتيك بالخبر »

قال : « دعنى اسر معك »

قال : « لا . امكث هنا واغسل رجليك وساعود اليك على عجل فانى لا اتحقق الامر حتى اطوف حول هذا الماء . ولا حاجة الى مسيرك معى فقد تعبت ، وان كنت فى عنفوان الشباب لأن أهل المدن لايقوون على المسير مثلنا » . قال ذلك والتحف العباءة وسار وحسن يتبعه بنظره حتى توارى ، وما لبث أن سمع الشيخ يناديه فنهض واسرع حتى اقبل عليه فاذا هو واقف تحت شجرة منبسطة الاغصان وقد قبض بيده على شيء وهو يقول : « متى خرجت من المدينة ؟ »

قال حسن : « نحو الغروب »

قال : « هل أطعمت الجمل قبل خروجك ؟ »

فتحير حسن بماذا يجيب لانه وكل امر الجمل الى خادمه فقال : « اظن الخادم اطعمه »

فبسط الشيخ يده فاذا فيها ابعار فقال : « ان هذه الابعار لجمل من جمال المدينة جاء وحده الى هذا المكان من مدة قصيرة ورجع »

فاستغرب حسن بته فى الامر وقال : « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال : « عرفته من هذه الاوساخ ، فان فيها النوى وهو علف جمال المدينة لان النوى كثير عندهم . ويظهر من قلة جفافها أنها وضعت من عهد قريب . ولم ار واضعها فيكون قد عاد »

فوجد حسن كلامه معقولا ولكنه لم يقتنع بان الجمل الذى يشير اليه هو جمله ؛ اذ لايبعد ان يكون جمل اناس آخرين فقال له : « وما الذى [illegible] انه جملى و[illegible] من جمال أناس مروا بهذا المكان الليلة ؟ »

فضحك الشيخ وقال : « لو كانت ابعار الجمال كثيرة لرايناها اصنافا والوانا . فهى اذن لجمل واحد ، وهذا الجمل لم يقم هنا الا قليلا . واى جمل من جمال اهل المدينة يخرج الى هذا المكان بعد منتصف الليل الا ان يكون فارا مثل جملك ؟ »

فاعجب حسن ببداهة اهل البادية وتذكر اشتهارهم بقيافة الاثر ولكنه ما زال متشككا فى ان يكون ذلك الجمل جمله فقال : « لا أرى ما يمنع بعض اهل المدينة من الخروج الليلة على جمله يلتمس بعض الاحياء فمر بالعقيق ليشرب او يسقى جمله أو يستريح »

قال : « قد يكون ذلك ، ولكن حال المكان ، لا يدل عليه ، لأنى لا أرى على الارض آثار آدميين »

فقطع حسن كلامه وقال وهو يظن انه افحمه : « الظاهر ان الراكب لم ينزل عن جمله وانما وقف ريثما شرب ثم ساقه »

فقال : « لا ، لان الجمل لا يستطيع الوقوف تحت هذه الاغصان المدلاة وعليه راكب لأنها تمس ظهر الجمل بانبساطها وانحنائها وليس عليه احد »

قال حسن : « ربما برك الجمل ؟ »

قال : « لو فعل لشاهدنا آثار ركبه ، فما الجمل الذى مر من هنا الا جملك ، واذا صبرت هنيهة اريتك الطريق الذى سار فيه فيهون عليك طلبه »

قال : « وكيف ذلك ؟ » . وكان الفجر قد لاح ، وتبينت الارض جيدا فنظر حسن الى ماحوله وراجع ما قاله الشيخ فترجح لديه قوله ، وتحقق ما كان يسمعه عن مهارة اهل البادية فى قيافة الاثر ، فلبث ليرى ما يفعله الشيخ فاذا هو قد مشى خطوات قليلة ثم قال : « انظر الى هذه الخطى فانها آثار خفاف جمل يعدو عدوا سريعا ، يدلك على ذلك عمقها وعدم نظامها ، ويظهر ان الجمل عاد الى المدينة »

فالتفت حسن الى يساره وقد بان الصبح فاذا هو مشرف على المدينة عن بعد ولا بد له من الذهاب اليها . فتذكر حبيبته فيها ولكنه عاد الى التفكير فى امر الجمل فقال : « انى لأستغرب ما رايته اليوم من جملى ولم يكن عهدى به مثل ذلك من قبل »

قال : « للجمال طبائع غريبة وقد يكون الجمل هادئا ساكنا فلا تراه الا وقد دلق لسانه وارغى وأزبد واركن الى الفرار كأنه أصيب بجنة ، وقد يصيبه ذلك على أثر خوف ورعب أو جوع . ومهما يكن من الامر فاطلب جملك فى المدينة . واما انا فانى استأذنك فى العودة الى ماشيتى مخافة ان يكون قد اصاب ابلى ما اصاب جملك وهى وحدها هناك ما عدا غلاما وامة تركتهما لحراستها »

فانثنى حسن على الشيخ وودعه وسار قاصدا المدينة وقد انهكه التعب والقلق واحس بالجوع وتشاءم مما اتفق له فعول على ان يسير توا الى المسجد للصلاة والتبرك ثم يبحث بعد ذلك عن الجمل ، ثم تذكر

حديث سليمان وابيه وما فيه من الاشارة الى الفتك به فأحب استطلاع سر أبى سليمان قبل دخوله المدينة لئلا يكون فيه ما يمنعه من دخولها، فسار يلتمس المكان الذى تركهما فيه بالامس فاستشرف اكمة قرب سور المدينة فراى قرب المستنقعات شيئا كالجمل البارك ثم ما لبث ان سمع جعجعة فاسرع حتى دنا من الجمل فاذا هو جمله بعينه وقد وقع عند حافة المستنقع وقد كسر فخذه ولم يعد يستطيع النهوض ولكنه رآه عاريا لا رحل على ظهره ولا خطام فى راسه فشك فى أن يكون جمله وظنه جملا آخر ، فتفرس فيه جيدا فلم ير فرقا بينه وبين جمله ، ثم تذكر ميسمه وهو العلامة التى يسمون بها الجمال بسمات القبائل فنظر فى الميسم فاذا هو الميسم الذى يعرفه فتحقق انه جمله وانه لم يعد يقوى على المسير فلم يهمه ضياعه وود لو أن الراعى معه ليهبه الجمل فينحره لأهله. ثم عاد الى التفكير فى الرحل وماكان عليه من امتعته وبينها كتاب خالد بن يزيد ، فزاد تشاؤمه من تلك السفرة وقال فى نفسه : « لم يعد لى وطر فى المدينة الآن » . ووقف برهة ثم مشى الى الجهة التى ترك فيها سليمان مطروحا وبجانبه ابوه فراى المكان خاليا الا من آثار الدم على صخر منبسط ، وراى بجانب الصخر ثوبا معفرا فرفعه فاذا هو القباء وقد تلوث بالدم وتمزق قطعا قطعا فاستغرب تمزقه ، ثم طرح بقاياه وفكر فى امر سليمان والكتاب فقال فى نفسه : « لعل أبا سليمان عثر على الجمل وهو سائر الى المدينة فلما رآه معطلا حمل رحله معه على نية أن يدفعه الى عند الملتقى » . فارتاح حسن الى هذه الفكرة وهدا اضطرابه وترجح لديه أن ابا سليمان حمل ابنه الى منزله فى المدينة لمداواته ، فعول على الذهاب اليه

وفيما هو سائر الى المدينة راى غبارا يتطاير فى عرض الأفق مما يلى طريق مكة ، فوقف ينتظر ما يكون فاذا بثلاثة من الابل عليها ثلاثة رجال قد تلثموا وساقوا الابل سوقا عنيفا ، ثم سمع قرقعة اللجم فعلم انها ابل البريد وكان لدواب البريد قعقعة خاصة كأن ارسانها من سلاسل الحديد ، أو لعلهم كانوا يعلقون فى اعناقها جلاجل او نحوها ، فمكث هنيهة ريثما مر البريد فعلم من لباس الرجال وهيئة الركب انهم من العراق فترجح عنده انه بريد الحجاج بن يوسف الى عامل المدينة

حسن وسليمان وأبوه

سار حسن فى اثر البريد قاصدا بيت سليمان من اقرب الطرق فلما وصل اليه سأل عن سليمان فعلم انه مريض فتحقق انه هناك فاستأذن واقبل على حجرة راى فيها سليمان راقدا وابوه الى جانبه فخلع نعليه بالباب ودخل فوقف له ابو سليمان مرحبا به ، واراد سليمان النهوض فامسكه واجلسه وجلس على طرف الفراش بجانبه وجعل يسأله عن حاله وسليمان يحمد الله على أنه احسن كثيرا ، ويعزو الفضل فى شفائه الى نجدته اياه». فقال حسن : « ما اظن المصيبة جاءتك الا بسببى »

فقال سليمان : « اشكر الله لانه نجاك من هذا الخطر »

فتقدم ابو سليمان والدمع ملء عينيه وقبل حسنا وقال له : « اغفر زلتى يا بنى ، فان الله هددني بالقصاص حتى خفت فقد ابنى ووحيدى ، واشكره على السلامة ولانه اكسبنى ابنا آخر »

فنظر حسن الى ذلك الكهل فاذا هو على ما وصفناه من طول القامة ونحافة العضل وقصر اللحية وصغر العمامة ، ولكنه راى فى وجهه دلائل السويداء وانقباض النفس فاذا ابتسم فكأنما يبتسم تكلفا ، واذا ترك ساعة او ساعات ظل صامتا لا يفوه بكلمة كأنه يفكر فى مصاب محدق به

ثم سألاه عن سبب غيابه ، فقص حسن عليهما الحديث مختصرا ، وكان يتكلم وابو سليمان يصغى اليه وهو مثبت بصره فيه وكأنه لم يعره كل انتباهه . فلما جاء على آخر الحديث وذكر لقاء الجمل وضياع الرحل قال : « فلما رايت جملى بلا رحل على مقربة من المكان الذى كنا فيه ظننتكم عثرتم على الجمل ورايتموه معطلا فحملتم رحله معكم لتحفظوه لى عندكم »

قال ابو سليمان : « كلا يا ولدى فاننا عدنا ليلا ، ولم نلتفت يمنة ولا يسرة لانشغالنا بجرح آخيك سليمان ، وانت هل مررت بالمكان الذى كنا فيه ؟ »

قال : « نعم وصلت اليه فرايت اثر الدم ، ووجدت القباء ممزقا

وعليه جلط الدم فعجبت لتمزيقه »

فقال الرجل : « لا تعجب يا ولدى لتمزيقه لأنه مزق قلبى فانتقمت منه فاعذرنى »

فاستغرب حسن ذلك وقال له : « بالله الا قصصت على خبر هذا القباء ؟ »

فقال له : « اعفنى من خبره واقنع بما قلته لك ولو تلميحا »

قال : « وماذا قلت ؟ »

قال : « الم اقل ان هذا القباء هو الذى مزق قلبى لأنه كان دليلى الى الفريسة المطلوبة فاذا هى ولدى وفلذة كبدى »

ففطن حسن لأمور كثيرة كانت موضع شكه ، وتذكر انه ليس من يعلم بوجود ذلك القباء معه غير عرفجة لأنه اخذه من عنده ولم يلبسه قط ، فاحتاطت به الشكوك وتناوبته الهواجس ، وظل صامتا برهة لا يتكلم ثم قال : « الا تقول لى من الذى اغراك بقتلى ؟ . فانى اخشى ان اتهم اناسا ابرياء »

قال : « امرنى بذلك رجل كبير فى هذه المدينة ، وهو صاحب السلطان الأقوى فيها »

ففهم حسن انه يشير الى عامل المدينة طارق بن عمرو ، وكان يعلم بما بين طارق وعرفجة من الصداقة . فترجح لديه ان لعرفجة يدا فى هذه المكيدة ، لكنه اسرها فى نفسه واعتصم بالصبر الى أن يتم مهمته بمكة

واراد سليمان أن يذهب الانقباض عن صديقه فقال لأبيه : « كيف رايت هذا الصديق يا ابى ؟ »

فتنهد ابوه وحاول الابتسام وقال : « لم اكن اشك فيما قلته لى ، ولكن سوء حظى ساقنى الى ما ارتكبته ولكنى احمد الله على خلاصنا من هذا الخطر » . ثم التفت الى حسن وقال : انى أعتذر اليك من تعمدى قتلك على غير معرفة بك ، ولا اظننى دفعت الى ارتكاب الجريمة الا بما جنيته من الذنب برجوعى عن المطالبة بدم ذلك المقتول ظلما » . قال ذلك وشرق بريقه فسكت برهة وحسن ينظر اليه ويعجب . ثم عاد ابو سليمان الى الكلام فقال : « كنت من التوابين الذين ندموا على تخلفهم عن الحسين بن على ، حتى قتل ظلما فى سهل كربلاء . ولكننى لم اثبت على توبتى فانتظمت فى خدمة الذين قتلوه ، ولا ريب ان عملى لم يرض الحق سبحانه وتعالى ، وعلى أن اكفر عن ذلك بتكريس ما بقى من حياتى لنصرة اعدائهم ، وقد علمت انك سائر الى مكة فهل تستصحبنى ؟ . والا فانى هائم على وجهى فى هذه الصحراء »

فقال حسن : « اذا رافقتني فاني آنس بك واتخذك ابا لى لان سليمان اخى ، ولكن ارى ان . . . » . واسكته الحياء

فقال ابو سليمان : « تكلم يا بنى ولا تخف فانى بمنزلة ابيك ، بل انا خادم لك ولا استنكف من امر اجريه فى خدمتك . قل ما بدا لك »

قال حسن : « اذا كنت ترى أن تتفضل على وتعاملنى معاملة الأب لابنه فان لى عندك طلبا استحيى ان اكلفك به »

قال : « لا تستح يا بنى . قل »

قال : « احب فتاة فى هذه المدينة ، وقد خطبتها وانا مضطر للسفر قبل العقد عليها ، ولا يخفى عليك قلب مثلى فى هذه الحال »

قال : « نعم . ماذا تريد منى ؟ هل تريد ان اوقف نفسى لخدمتها ؟ »

قال : « كلا فانها فى بيت ابيها ولكننى قليل الثقة بمن حولها »

قال : « من هى الفتاة ومن هو ابوها ؟ »

فوجم حسن برهة ثم قال : « اذا لم يكن بد من معرفتك اسمها ـ ولا ارى بدا من ذلك ـ فاخبرك انها سمية ابنة عرفجة الثقفى »

فلم يتم حسن قوله حتى بهت ابو سليمان وازداد لونه امتقاعا واطرق وصارت لحيته ترقص فى صدره ، وكان حسن يلاحظه وقد ادرك ما جال فى خاطره . وجعل أبو سليمان يهم بالكلام ثم يمسك لأنه كان مطلعا على تردد عرفجة على مجلس طارق ، وعرفجة مشهور فى المدينة بخيانته وسوء نيته

اما حسن فلم يمهله ريثما يتكلم فابتدره قائلا : « لا اكلفك اطلاعى على سر ، فقد فهمته وهذا يكفى . اما الفتاة فخطيبتى ولا شىء يمكن أن يثنيها عنى او يثنينى عنها . وانما ارجو ان تبحث عنها وتعرف احوالها وهذه هى وصيتى اليك فاذا قبلتها كان ذلك فوق ما اتمناه »

فقال ابو سليمان : « انا عند ما تريد ، وسأولى امرها اهتمامى ، كما أهتم بولدى هذا . كن فى سكينة وراحة بال »

فلما فرغ حسن من امر سمية عاد الى التفكير فى الكتاب والخادم فتبادر الى ذهنه أنه قد يلقى خادمه فى المدينة فيساعده على البحث عن الكتاب وعزم اذا لم ير الخادم فانه يكتفى بابلاغ عبد الله بن الزبير فقد الكتاب ويرى ما يكون ، فنهض مودعا . فقال له ابو سليمان : « اذا لم يكن بد من سفرك فاجعله من غير الطريق الذى كنا فيه امس . اخرج من باب آخر وانا ارسل معك خادمى يهديك الى الطريق ويسوق جملك بدلا من خادمك ، وسأقدم لك جملا احسن من جملك فأنعم بالا وكن على ثقة اننا انا وسليمان فى خدمتك حتى تبلغ مرامك » .

ثم صاح : « يا بلال » . فجاء عبد خفيف السواد حسن الملامح فقال له : « هيىء الجمل الاشرم ، واملأ القرب ماء واعد زاد السفر » . فذهب بلال ثم عاد وقد اعد كل شيء فقال ابو سليمان لحسن : « اذا كان لا بد من سفرك فسر على عجل ولا تقف ولا تسترح حتى تبعد عن المدينة »

فقطع حسن كلامه وقال : « فاتنى ان اخبركم عن ابل البريد ، فقد رايت ثلاثة منها دخلت المدينة فى هذا الصباح واظنها قادمة من مكة »

قال ابو سليمان : « لايبعد انهم جاءوا لطلب نجدة او مدد ، او بخبر فتح او شيء من ذلك ، اما انا فانى سأنتقل من هذا البيت الى سواه واختفى يومين او ثلاثة حتى لايرانى احد لئلا يطلبوننى للمسير معهم »

ثم ودعهم حسن وركب الجمل وسار بلال فى ركابه ؛ وبود حسن لو يعيد النظر الى سمية قبل سفره ولكنه اراد العجلة وخاف الوقوع فيما هو شر من ذلك



سمية في منزل سكينة

فلنترك حسنا قاصدا الى مكة مع بلال ولنعد الى المدينــة لنرى ما كان من امر سمية بعد سفره ، فقد تركناها عائدة الى بيت سكينة ومعها عبد الله خادم حسن يسير فى خدمتها . فلما وصلا الى باب البيت قالت له سمية : « قد وصلت الى مأمنى فانصرف » . وكانت قد استأنست به لأنه ثقفى مثل ابيها فلمــا ودعها قالت له : « قد علمت يا عبد الله منزلة حسن منى فارعه وكن صادقا فى خدمته »

فقال انى عبدك وعبده يا مولاتى ، وانى أفديكما بروحى »

فاطمأنت سمية واشارت اليه براسها اشارة الوداع ، فتحــول مسرعا يلتمس باب المدينة ليلحق بسيده

اما سمية فانها أقبلت على بيت سكينة حوالى العشاء ، فتظاهرت بأنها كانت فى بعض جوانب المنزل ، وسارت الى مجلسها ، فرحبت بها وسألتها عن سبب تخلفها . فقالت : « كنت مشتغلة فى بعض الغرف هنا » فقالت لها ليلى : « قد بحثنا عنك فلم نجدك ، واخشى أن يكون اباك استبطأ عودتك »

قالت : « ربما استبطأنى ، ولكننى هنا فى مأمن من غضبه ، ومتى استبطأنى بعث فى اثرى »

فلما سمعتها سكينة تقول ذلك امسكت بيدها وقربتها اليها حتى اقعدتها معها على الوسادة وضمتها وقبلتها وقالت لها : « أهلا بك يا سمية انك من أعز الأحباء » . وكانت سكينة تستلطف سمية وتحبها

فقالت سمية : « لا حرمنا الله من محبتك يا بنت سبط الرسول ، ان اقامتك بهذه المدينة بركة وسعادة لنا جميعا »

ثم جاء الخدم يدعون سكينة الى المائدة ، وقد مدت الأسمطة فقمن للعشاء . وأما سمية فعادت الى هواجسها واستغربت سكوت أبيها عنها الى ذلك الحين . ثم خطر لها أنه غائب عن البيت ويحسبها فيه . فرأت أن تستأذن سكينة فى العودة الى البيت فأذنت لها ، وبعثت معها بعض الجوارى ليوصلنها اليه

ولما وصلت سميــة الى باب البيت قرعته بطريقة يعرفهــا الخــدم

فأسرعت جارية الى فتحه واستقبلت سيدتها وهى تقول : « لقد ابطأت علينا الليلة وشغلت بالنا »

وكانت هذه الجارية حبشية الأصل اسمها امة الله ، تحب سمية كثيرا ، كما أن سمية كانت تستأنس بها وتكرمها فلما ابطأ قدومها فى تلك الليلة شغل بال الجارية ولم تستطع رقادا ، حتى طرقت سمية الباب ففتحت لها ، وترامت عليها وقبلتها ورحبت بها ، فقالت لها سمية : « الم يأت ابى ؟ »

قالت : « جاء نحو الغروب ودخل الحجرة المعلومة واقفل بابها ، وما زال هناك ولا يدرى أحد ماذا يعمل لأنه انار السراج وحمله بيده الى الغرفة على عادته »

فدخلت سمية غرفتها وخففت ثيابها لتوهم اباها اذا رآها انها فى البيت من مدة طويلة . ولم تستغرب مكثه فى تلك الحجرة طويلا لأنه كثيرا ما كان يفعل ذلك واهل البيت يستغربون تكتمه ولا يعرفون ما فى تلك المحفة المخزونة هناك . ولولا خوفهم من غضبه واستبداده لتوصلوا الى فتحها ولكنهم كانوا يخافون سطوته وشدة وطأته

ثم رأت سمية ان تلجأ الى فراشها قبل خروج ابيها من مخبئه مخافة ان يراها ويسألها عن سبب غيابها وربما اساء الظن بها ، فجلست على فراشها ، ودعت أمة الله لتمشط لها شعرها قبل النوم فجثت الجارية خلفها وجعلت تسرح الشعر وتمشطه ووجه سمية الى باحة الدار ، وكانت سمية ترتاح الى مكاشفة امة الله ببعض شؤونها الخاصة فقالت لها : « هل شغل بالكم غيابى الليلة ؟ »

قالت : « نعم يامولاتى ، لانك قلما تطيلين الغياب ، ولا سيما ان عبد الله جاء للسؤال عنك »

قالت : « وأى عبد الله ؟ »

قالت : « الرجل الذى جاء صباح اليوم »

فعلمت سمية انه عبد الله خادم حسن ، فبغتت لعلمها انه فارقها ليلحق بسيده على عجل فأدارت وجهها الى الجارية وقالت لها : « متى جاء ؟ »

قالت : « جاء قبل وصولك بقليل »

قالت : « وهل جاء وحده ؟ »

قالت : « لم ار معه احدا »

ففكرت سمية فى الامر ، فوجدت انه جاء بعد ان فارقها بساعة او ساعتين ، فتبادر الى ذهنها انه لم يأت الا لغرض اراده حسن منها ، او

لشر اصابه ، فتوالت عليها الهواجس واستغرقت فى التفكير ، وعادت الجارية الى تمشيطها وهى فى غفلة عن كل ذلك

وبينما سمية غارقة فى لجج الهموم لاحت منها التفاتة الى باحة الدار فرات فيها نورا يتحرك وسمعت صوت باب يقفل فعلمت ان اباها خرج من الحجرة السرية . ثم اختفى النور وسمعت تصفيقا فعلمت ان أباها يدعو الخادم فخافت أن يكون عازما على استدعائها ، فتظاهرت بالميل الى الرقاد وقالت للجارية : « لم يعد لى طاقة بالجلوس فقد اخذ منى النعاس مأخذا عظيما فاتركينى ، واذا سأل عنى ابى فأخبريه بأنى نائمة منذ حين » . ففهمت الجارية غرضها فضحكت وقالت لها : « لاتخافى » . وتمددت سمية فى فراشها وتظاهرت بأنها استغرقت فى النوم . وبعد قليل سمعت الخادم يسأل الجارية عنها ، وسمعتها تذكر له انها نائمة فانصرف

واصبحت فى اليوم التالى وهى ما زالت فى حاجة الى النوم ، فظلت فى الفراش حتى الضحى ، ثم جاءتها جاريتها بماء للغسل وبطعام ، فسألتها عن أبيها فقالت : « افقت قبيل الصبح على قرع الباب ، ثم علمت ان بعض الناس جاءوا يطلبون سيدى على عجل ، فخرج وهو لم يتم لف عمامته »

فاطرقت سمية وفكرت فى الامر ، فحدثتها نفسها بأن لهذه الدعوة علاقة بخطيبها . ولما تذكرت سوء قصد ابيها وما سمعته من قدوم عبد الله اليها امس ، تبادر الى ذهنها ان شرا عظيما أصاب حسنا ـ وذلك شأن المحب البعيد عن حبيبه فانه لايكاد يطمئن قلبه عليه واذا سمع أحدا يذكره تبادر الى ذهنه انه فى خطر وقد يفسر الاشارات والرموز والحوادث بما يؤكد ذلك ـ فكيف بسمية وهى تعلم ما ينويه ابوها لخطيبها ؟. فلم تتناول من الطعام الا قليلا ، ولبثت جالسة تفكر فى سبب خروج ابيها وتخاف أن يكون فيه ما يسوء خطيبها

□

قضت سمية اكثر النهار فى قلق واضطراب ، تارة تمشى فى الدار ، وآونة تخرج الى البستان ، وهى تتوقع أن ترى عبد الله آتيا أوتسمع خبرا . ثم سمعت أذان العصر فالتفتت الى مصدره جهة باب البيت فرات اباها داخلا فخفق قلبها ولبثت تنتظر مايبدو منه . فدنا منها وابتسم وناداها اليه فتبعته وهى مازالت فىاضطراب، ولكنها تظاهرت بارتياح حتى أقبل على غرفة الجلوس فوقف بالباب ينزع نعاله وقال :

« كيف قضيت يومك امس عند سكينة ؟ »

قالت وهى تتبعه الى وسادته التى تعود الجلوس عليها : « قضيته مسرورة ، وعدت وانت فى الحجرة فنمت ونهضت فى هـذا الصباح ، فعلمت انك خرجت مبكرا فشغل بالى »

فقطع كلامها ودعاها الى الجلوس بجانبه وعلى وجهه ابتسامةمتكلفة فلما جلست قربها منه وضمها وقبلها فأحست ببرد شفتيه واقشعر بدنها لاحتكاك شعر لحيته بذقنها وعنقها لعظم ماكانت فيه من التهيج العصبى النـاتج عن القلق ، وقبلت يده فاذا هى ابرد من شفتيـه . وتوقعت أن تسمع منه شيئا بعدهذا التملق فاذا هويقول لها : « اظنك مللت طول المكث فى هذه المدينة ؟ »

قالت : « اذا كنت انت فى خير وسعادة فكل حال ترضينى »

فأعجبه قولها والقى يده على كتفها وجعل يلاعب شعرها بين انامله ثم قال : « بورك فيك من ابنة مطيعة ، ان مثل هذا القول يجبر قلب الوالد ، هذا هو البر الذى كنت ارجوه منك . فالحمد لله الذى اذهب ماكان يخامر ذهنك ، وعدت الى ماهو جدير بأمثـالك من النزول على حكم آبائهن »

فأحست سمية من هذا التعريض كأن صخرة وقعت على راسها ، واسرع خفقان قلبها . ولو انتبه ابوها وهى مستلقيةعلى صدره لسمع دقات قلبها ولأدرك اضطرابها . أو لعله ادرك وتجاهل خبثـا ورياء . ثم قال ولم يترك لها مجالا للتفكير : « سـنذهب غدا لترويح النفس فى العقيق فانه متنزه جميل ، فهل يسرك ان نأخذ طعامنا وشرابنا ونقضى يومنا هناك ؟ »

فعجبت سمية من عناية ابيها بأمر نزهتها والترويح عنها ، ولاسيما انه كان لايخاطبهـا بالحسنى أو يلاطفهـا الا اذا كان له مارب من وراء ذلك . فأصبحت لاتسمع منه مثل هـذه الملاطفـة الا توقعت شرا ، ولكنها لم تكن تستطيع غير مداراته فقالت : « اشكرك يا ابى على هذه العناية »

فقطع كلامها وقال : « لاشكر على واجب ، فانى ابوك ، وسـأخبر الخدم ليعدوا لنا خياما وطعاما ويسيروا امامنا الى العقيق قبل الفجر، ثم نركب انا وانت عند طلوع الشمس ونقضى يومنـا فى العقيق ، فقد مللنا المدينة واسواقها ونخيلها » . قال ذلك بنغمة الاب الحنون ، فلم يسع سمية الا مجاراته ، على انها كانت اشـد حاجة منه الى النزهة ، وخطر لها انها ربما استطاعت فى اثنـاء مرورها بالشوارع والطرق ان ترى عبد الله او تسمع خبرا عنه او عن حسن . فأثنت على ابيها وقبلت

يده ، فقبلها ثم صفق فجاء عبد اسود كان قد فوض اليه ادارة شؤون منزله وجعله رقيبا على اهل بيته. وكان ذلك العبد قبيح الخلقة عظيم الشفة السفلى افطس الانف يكاد الشرر يتطاير من عينيه ، ويندر أن يتبسم فاذا فعل فانه يكشر عن انيابه . فلما وقف بين يديه قال له : « ياقنبر ، اننا عازمون على الخروج فى صباح الغد الى العقيق فاعد ما نحتاج اليه من الخيام والاطعمة ، وهيىء الهودج لسمية ، ثم اسبقنا مع الخدم عند الفجر ، وسنلحق بكم بعد ذلك »

قال : « الامر لمولاى » . وخرج

ثم نهض عرفجة ودخل الحجرة السرية ، واتجهت سمية الى غرفتها وطلبت من جاريتها أمة الله ان تتهيأ لمرافقتها فى صباح الغد

☐

باتت سمية ليلتها والاحلام المزعجة تنتابها ، وتريها حسنا فى خطر ، ورات مناظر مخيفة اخرى ، فنهضت وهى فى اضطراب شديد . فاذا ابوها قد خرج وتهيأ للرحيل ، وجاءتها الجارية فمشطتها والبستها ثيابها . ثم ركبت معها الهودج ، وركب ابوها بغلة ، وساروا وقدامسك بخطام الجمل احد الخدم

وجعلت سمية تطل من خلال الستور على المارة فى الطرق وتتفرس فيهم ، فاستغربت امة الله ذلك منها لعلمها بأدبها وحشمتها . وزاد فى استغرابها شدة مالاحظت فى وجهها من القلق . فلما خرجوا من باب المدينة بالغت سمية فى التطلع نحو الطريق الذى يؤدى الى مكة لعلها ترى اثرا او تستطلع خبرا فرات بجانب باب المدينة خياما ورايات وخيولا وجمالا ، وقدتفرق العبيد بين النخيل وحول المستنقعات يجمعون العيدان للوقود ، فذهلت ولم تفهم امر هذا المعسكر ، ولم تر بدا من ان تسأل اباها فاخرجت راسها من بين الستور لتبحث عنه فاذا هو قد اركض بغلته نحو المعسكر فظنت انه ذهب لاستطلاع الخبر فأمرت الغلام ان يظل فى مسيره فسار حتى بعدوا عن المعسكر وسمية تشرف على الطرق وتتطلع الى كل جهة والقلق باد فى عينيها

وفيما هى تتطلع سمعت جمجمة جمل يتألم فالتفتت فرات جمل حسن الذى ذكرنا أمره ولم تكن قد راته الا فى اثناء مقابلتها حسنا فى المساء ، ولكن صورته انطبعت على ذهنها . فلما راته خفق قلبها كأنها تنسمت منه رائحة الحبيب ، فأوقفت الهودج عنده ونظرت اليه فرجحت انه جمل حسن وجعلت تفكر فى الامر ، فخيل اليها ان حسنا

قتل وقد اخذ قاتلوه رحل الجمل وخطامه وتركوه . فلما تصورت ذلك تساقطت دموعها وخفق قلبها جزعا واشفاقا

وكانت امة الله تلاحظ قلق سيدتها ولكنها لم تجرؤ على مخاطبتها فى هذا الشأن الا لما رات دموعها تتساقط فقالت لها بصوتها الناعم الرخيم : « ما بالك ياسيدتى تبكين لا اراك الله سوءا ؟ »

فلما سمعت سمية سؤال الجارية اجهشت فى البكاء حتى علا صوتها ، فامسكتها امة الله وقبلت يدها وقالت لها : « بالله كفى عن البكاء واخبرينى ما سبب ذلك فلعلى انفعك فى شىء »

فتنهدت سمية ومسحت دموعها بكمها ، ثم التفتت الى خارج الهودج فلم تجد اباها عاد ، ولارات احدا يسمعها ، فقصت على جاريتها الحديث مختصرا ، واطلعتها على مكنون قلبها . فشاركتها الجارية البكاء ثم قالت لها : « انك لم تتحققى ان هذا الجمل جمل حسن ، وهبى انه جمله فليس معنى هذا انه اصيب بسوء ، ولا احسب هذا الجمل الا لبعض اهل هذا المعسكر انكسر فتركوه ، ومهما يكن من شىء فليس هناك مايدعو الى الاخذ بالظن والتوهم »

فارتاحت سمية لهذا التعليل ، ولكنها تذكرت عبد الله ورجوعه الى منزلها فى تلك الليلة فقالت : « ولكن ماسبب رجوع خادمه الينا ؟ »

قالت الجارية : « قد يكون جاءك برسالة من حسن فلما لم يجدك عاد اليه بها وسافر معه ، ولولا ذلك لزايته امس . وقد مضى يوم ونحن الآن فى ضحى اليوم الثانى ولم نره »

فقطعت كلامها وقالت : « اتظنينه اذا علم بسوء اصاب حسنا ، ينقل ذلك الخبر الى ؟ » . قالت : « دعى عنك هذه الافكار وتوكلى على الله »

وفيما هما فى الحديث سمعتا وقع حوافر البغلة ، فعلمتا ان ابا سمية قد عاد ، وبعد قليل وصل الى محاذاة الهودج فنادى سمية فاطلت عليه فقال لها : « لعلى غبت عنك طويلا ؟ »

قالت : « نعم ، وقد راينا خياما وجمالا وخيولا فلم نفهم سبب وجودها »

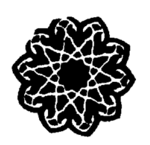
فاجابها وهو يحاول اصلاح الرسن فى راس البغله « ان هذا معسكر طارق بن عمرو عامل المدينة ، وقد خرج برجاله وحده قاصدا مكة » قالت « ولماذا ؟ »

قال : « جاء بريد الحجاج بن يوسف امس يستقدم طارقا ورجاله مددا له فى حصار مكة وعما قليل يسافرون » . قال ذلك وساق بغلته

متظاهرا بانهـا هي التى اسرعت من تلقاء نفسـها ، فانقطع الحديث . وسرت سمية بانقطاعه لتعود الى التفكير فى حسن لعلها تلتمس تعليلا يريح بالهـا . والمرء ميـال الى التماس مثل ذلك التعليل ، والنـاس يتفاوتون فى مقدرتهم على ذلك . فبعضهم اذا وقع فى مصيبة هان عليه تطبيق عواطفه على تلك المصيبة فيجعل لنفسـه مخرجا من سوء عواقبها ومنهم من يزيده قلقا ولكنه لايلبث وان طال قلقه ان يتوصـل الى حل يتوكأ عليه ريثما يرى ما يأتى به القدر

وكانت الجارية قد رفعت أستار الهودج منذ الخروج من المدينـة ، فظلت سمية تسرح نظرها فيما حولها من الهضاب والبطاح وبرك الماء وغابات النخيل ، وهى كأنها لاترى شيئا لاستغراقها فى عالم الخيـال ، فلم تنتبـه الا على رائحة الشـواء ، فالتفتت فاذا هى على مقربة من ثلاث خيام : اثنتين قرب الماء وواحدة منفردة بظل نخلة كبيرة . فنظرت فرات نفسها على غير ماء العقيق ، وكانت تعرفه فتفرست فيماحولها فاذا هى ما زالت على مقربة من المدينـة وخيـام المعسكر ظـاهرة . وتفرست فى الخيام فادركت انها خيامهم ، فاستغربت ذلك ولكنها لم تعلق عليه اهمية اذ لم يكن لها رغبة فى العقيق أو غيره

وجاء الخدم فاناخوا الهودج بقرب الخيمـة المنفردة فنزلت سـمية وجاريتها ودخلتا الخيمة ، ثم رأت سميـة اباها واقفـا مع عبده على انفراد ، وكانت تكره هذا العبـــد كرها شديدا لغلظ طبعه وفظاعة خلقته ، فاستعاذت من شرهما بالله



القتل أو الزواج بالحجاج

عادت سمية الى هواجسها بعد ان دخلت الخيمة ، فاخذت تفكر فى حسن وجله ، وتصورت وقوع ما تخشاه عليه من القتل فازداد بلبالها . ثم خرجت أمة الله لمساعدة بقية الخدم فى اعداد الاطعمة وظلت سمية فى الخيمة وحدها

وفيما هى على تلك الحال سمعت سعال ابيها ، ثم راته والعبد قنبر قادمين نحو خيمتها فاستعاذت بالله من شر ذلك القدوم ، ثم رات العبد يبطىء بينما اسرع أبوها حتى وصل الى الخيمة فنهضت للقائه ، فقال لها : « كيف رايت هذا النهار ؟ انه نهار جميل اليس كذلك ؟ »

فتظاهرت بالابتسام وقالت : « انه نهار جميل ، ولكننى سمعتك تقول اننا ذاهبون الى العقيق ، وارانا ما زلنا بباب المدينة ! »

قال : « ان العقيق بعيد فاحببت ان نستريح قليلا ثم نستأنف المسير الى العقيق . وما أريد الا أن تكونى مسرورة فرحة والا أراك منقبضة النفس وقد تهيأت لك أسباب السرور وانك لتعلمين حبى لك ، وانى انقطعت عن العالم لأجلك . . ولا ادخر جهدا فى سبيل راحتك وسعادتك »

فلما رات مبالغته فى التلطف خافت ما وراء ذلك وظلت ساكتة ، فعاد هو الى اتمام حديثه فقال : « ولقد سرنى منك انصياعك الى مشورة ابيك فى شأن ذلك الشاب ، ورجوعك الى ما هو جدير بأمثالك . ويسرنى ايضا أن ابشرك بسعادة قد وفقك الله اليها ، ويندر أن تنالها فتاة من فتيات المدينة بل هن يغبطنك عليها »

فازداد قلقها واحست من وراء ذلك الكلام نذير سوء يزيد فى اضطرابها ، فظلت ساكتة وقلبها يخفق ، ومالت الى استطلاع ما فى نفس ابيها ولكنها خافت ان يكون فى علمها بذلك ما يسوؤها ، فلبثت صامتة لا تدرى ما تقول . وكان هو ينظر الى وجهها خلسة ، ويتشاغل بالعبث بلحيته . فتوقع أن يسمع منها استفهاما ، فلما بقيت صامتة دنا منها وهى مستندة الى عمود الخيمة ووقف امامها واسند يده الى العمود وجعل يده الاخرى على كتفها . فاضطربت وازداد قلقها فلم

تعد تصبر على السكوت ، ثم اذا هو يقول لها : « لماذا لم تسالينى عن تلك السعادة التى أعددتها لك ، الا يسرك أن تعلمى بما يبذله أبوك فى سبيلك ؟ انك ستصيرين عما قليل سيدة نساء هذا الجيش » . قال ذلك واشار الى المعسكر

فلمـا سمعت قوله علمت انه يعرض بخطبتهـا لأحـد كبار رجال الجيش ، فتحققت سوء ما اضمره لها بالأمس وانها مقبلة على خطر شـديد ، فارتبـكت وحارت فى أمرها ولم تدر بماذا تجيب ، ولـكن الاضطراب بدا على وجهها. ولو انه تفرس فى قرطيها لرآهما يرتعشان ارتعاشا يحاكي خفقان قلبها ـ وما ارتعاشهما الا من رجع ذلك الخفقان ـ واحرت وجنتاها فتشاغلت باصلاح دمالجها فى معصميها والنظر اليها فى حين أنها لم تكن ترى شيئا لأن الدمع غشي بصرها ثم تساقط كاللؤلؤ على معصميها. فلما رآها تبكى تحقق أنها لاتزال عالقة القلب بحسن، فاراد ان يقطع املها منه فقال لها : « ما بالك لا تجيبين ؟ . الم يعجبك ما دبرته لك من أسباب السعادة ؟ ام لم تفهمى مغزى كلامى ؟ انك ستكونين سيدة نساء هذا الجند وجند بنى امية المحاصرين مكة الآن ، واذا اشكل عليك فهم مرادى فاعلمى أنك ستزفين الى الحجـاج بن يوسف كبير امراء مولانا الخليفة عبد الملك بن مروان ، وهو من ثقيف مثلنا ، وله ما لا ازيدك بيانا عنه من علو الشأن »

فلما سمعت تصريحه لم تعد تتمالك نفسها ، فغطت وجهها بكمها واسندت راسها الى العمود وظلت صامتة وقد حبست نفسها عن البكاء أو التنهد حتى كادت تختنق وهى لا تدرى بماذا تجيب ، مخافة أن يفتك بها ، فلم تر سبيلا غير البكاء . فلما رآها تبكى أمسك يدها وابعدها عن العمود بلطف فطاوعته وهى تبالغ فى الاطراق فقال لها : « أحسب صورة ذلك الغلام فى ذهنك ، مع أنه قد مضى وانتهى أمره فلم يبق لك سبيل اليه . فاذا كان فى قلبك بقية أمل فيه فانزعيها واطرحيها جانبا »

فأجفلت سمية ، ورفعت راسها ونظرت الى ابيها وعيناها تقطران دمعا وكأنها فى شك من قوله ، فابتدرها قائلا : « صدقينى انه لم يعد لك سبيل الى حسن ، ولا سبيل له اليك أيضا ، لأن امره قد انقضى واصبح فى عداد الأموات »

فلما سمعت قوله صاحت صيحة سمعها كل من فى الخيام ، ولطمت وجهها وقالت : « حسن مات ؟ مات ؟ لا . لا. انه لم يمت ، انه حى» . قالت ذلك واسـتغرقت فى البكاء ، وجلست على حصير من سعف النخل كانوا قد فرشوه فى ارض تلك الخيمة وجعلت راسها بين كفيها

واطلقت لدموعها العنان وابوها ما زال واقفا وقد بغت لما رآه منها ، على انه قال لنفسه : « انها لا تلبث أن تفرغ من البكاء ، فمتى تحققت موت حسن عادت الى رأيي » . فصبر هنيهة وهو يظهر الاستخفاف بما بدا منها ، ثم عاد فقال لها : « اراك كانك لم تصدقي قولي مع انك تعلمين اني لم اكذبك قط . صدقيني أن حسنا قتل فى أثناء خروجه من المدينة فلا سبيل الى رجوعه . ام تريدين أن تقتلي نفسك من اجله ؟ »

فصاحت مولولة وقالت : « نعم اقتل نفسي ، ولاغرض لي فى الحياة بعده . لقد قتلتموه ظلما وغدرا ! . ويلك يا ظالم ! . كيف قتلته ؟ . اقتلني معه . . اقتلني ! » . قالت ذلك وعادت الى البكاء ، فلما راى عرفجة تصلبها عمد الى الملاينة فقال لها : « أنا لم اقتله ولكنه قتل بذنبه . ولا فائدة من البكاء عليه ، فاشكرى الله على انه مات قبل أن يقترن بك ، والا ما وجدت حظوة فى عيني الحجاج »

فقطعت كلامه وقالت : « ما لي وللحجاج ؟ اني لا اريد غير حسن . حسن خطيبي . هو وحده حبيبي حيا أو ميتا » . ثم اجفلت وقالت : « لا لا ، لم يمت حسن ، بل هو حي وايدى الظلمة اللئام تقصر عنه »

فقال عرفجة : « الا تزالين تنكرين قتله ؟ هل اريك جثته لكي تصدقي ؟ » . فوثبت سمية من مجلسها وقالت : « لا . لا . لا تريني اياه ميتا . ويلاه ! . قتل حسن . قتلته انت يا ظالم !. فاقتلني وارح نفسك مني وارحني من الحياة . اقتلني كما قتلت رجلا انقذك وانقذ اهل بيتك من القتل . ويل لك من مشهد يوم عظيم » . قالت ذلك وقد احست بقوة عجيبة ويئست من الحياة . فلما سمع عرفجة تقريعها صاح بها : « اقصرى يا فاجرة ، ابمثل هذا الكلام تخاطبين اباك ؟. والله لولا حرمة البنوة ولولا أن يقال اني قتلت فتاة لمزجت دمك بهذه المياه . . . ولكني اعاملك معاملة صبية حمقاء ، وسأصبر عليك قليلا فاذا ابيت الا ما بدا من وقاحتك فاني قاتلك بهذا الخنجر ! »

قال ذلك واستل من منطقته خنجرا لمع نصله كالبرق فلما رات النصل تعرضت له وقد حسرت ثوبها عن صدرها وهي تقول : «اضرب. اغمد خنجرك فى هذا القلب . اطعن . أتخوفني بالموت ؟ . ان الموت احب الي من الحياة »

فلما راى منها ذلك العناد صاح قائلا : « اهذه نتيجة تعبي فى تربيتك يا فاجرة ؟ لقد حل لي قتلك ، ولكني لا الوث يدي بدمك وسترين قبل موتك جميع أصناف العذاب » . ثم صاح : « قنبر » . فأقبل ذلك العبد بأسرع من لمح البصر كانه كان فى جيب عرفجة واخرجه بيده ،

وقال : « لبيك يا مولاى » . فقال له : « شد يدى هذه الخائنة بالأمراس وقيد رجليها بالحبال وسأريها عاقبة العناد »

فلما رات سمية قنبر مقبلا نحوها وثبت من مقعدها وصاحت به : « اذهب يا عبد السوء لا تدن منى . اغرب من وجهى ، لا تدن منى . اذهب قبح الله وجهك » . قالت ذلك وهى لا تعى ما تقول

اما قنبر فاخرج من جيبه حبلا كان قد اعده لمثل هذا الغرض ، وهجم عليها وهو لا يبالى صياحها فقبض على يدها وهى تحاول التخلص منه ، وقد اشتد ساعداها حتى صارت مثل اشد الرجال ونسيت حزنها ، ودفعته عنها وهو يحاول اخضاعها بلا عنف ، فلما رآها تدفعه وتقاومه عزم على استعمال العنف فصاح فيها صيحة دوت دويا عظيما وجذبها من يدها فلطم راسها عمود الخيمة ، فوقعت مغشيا عليها ، فاخذ فى شد وثاقها غير مكترث لحالها

وكان الخدم قد سمعوا صياح سمية ، ولكن لم يجرؤ احد منهم على الاقتراب من الخيمة الا أمة الله جاريتها فانها هرولت خلسة واستترت وراء نخلة حولها عشب العليق ولبثت تسترق السمع . فلما رأت هجوم قنبر على سيدتها علمت انه لن يحجم عن قتلها ، ثم سمعت لطمة عقبها سكوت فخافت ان يكون قد اصاب سمية سوء ، فلم تر سبيلا الى نجدتها الا بالحيلة ، فأسرعت الى عرفجة وترامت على قدميه وقبلتهما وقالت : « بالله الا اشفقت على سيدتى وأغضيت عن جراتها وانا اضمن لك كل ما تريده منها »

وكان عرفجة يعامل سمية بذلك العنف لكى يحملها على قبول الزواج بالحجاج ، لأنه يرجو من وراء ذلك منفعة كبرى لنفسه . وقد ذكرنا ما فطر عليه من حب الذات والطمع مع سوء النية . وقد بلغ منه الطمع حدا هون عليه تقديم ابنته ضحية على مذبح أغراضه ، ومات ضميره فلم يعد يهمه ما يرتكبه فى سبيل بلوغ مقاصده . وكان يعلم ان الحجاج يرغب فى الزواج بسمية ويبذل لها مهرا كبيرا ، ولكنه كان يخاف ان تشكوه لعبد الملك بن مروان بوساطة سكينة بنت الحسين أو غيرها من اهل الوجاهة والنسب فى المدينة . فلما اطمأن الى مقتل حسن اخبر طارقا بن عمرو أمير المدينة بأن مثل ابنته لا تليق بغير الحجاج بن يوسف وانه يعلم برغبته فيها . وكان طارق أيضا مثل عرفجة قسوة وطمعا ولاسبيل له الى غرضه الا اذا تقرب الى الحجاج بما يرضيه ، فرأى ان يتقرب اليه بسمية فيخطبها له ويحملها اليه . فوافق عرفجة وساعده على التخلص من حسن ودفع اليه بعض مهر سمية ، على ان يأخذ بقية المهر بعد وصولها الى الحجاج بالقرب من مكة

وكان عرفجة يعلم ميل ابنته الى حسن ، ونفورها من الحجاج وغيره، ويتوقع اباءها فهيأ الأسباب لاقناعها باية وسيلة ، وتواعد مع طارق على أن يخرج بها الى قرب المعسكر ويحاول اقناعها بالحسنى فاذا لم تقتنع عمد الى العنف فيحملها الى الحجاج مكرهة ولم يكن هو ينوى الذهاب معها لغرض له بالمدينة يتعلق بتلك المحفة السرية ، فاراد اقناعها خارج المدينة وارسالها توا الى مكة مخافة أن تفر الى سكينة وتلتجىء الى بيتها في المدينة فتحميها أو تساعدها في ابلاغ أمرها الى عبد الملك بن مروان قبل وصولها الى الحجاج . اما بعد أن تسير الى مكة ويتزوجها الحجاج فلا يعود هناك محل للشكوى . ولا يهمه أن تشكو سمية اذ يكون قد نال بغيته ، ولذلك أوصى طارقا بأن يعقد الحجاج قرانه بها حال وصولها حتى ينقطع لديها كل أمل في النجاة . ثم احتال في اخراجها الى المعسكر كما تقدم . فلما راى نفورها مما عرضه عليها من أمر الحجاج ، اصدر امره الى قنبر بشد وثاقها وخرج هو من الخيمة لا يلتفت اليها

فلما لقيته امة الله وترامت على قدميه ووعدته باقناعها ، نادى عبده فخرج ، وامر امة الله فدخلت الخيمة وحدها ، فرات سيدتها مغمى عليها فبادرت الى ركوة من جلد فيها ماء فرشت سمية به حتى افاقت ، واخذت في حل وثاقها . فلما رات سمية جاريتها فوق راسها تقبلها وتحاول انعاشها ، ارتدت روحها اليها ، وسمعت امة الله تقول لها بصوت منخفض : « ماذا فعلت بنفسك يا سيدتى ؟ ما هذا الذى ارى ؟ »

فعادت سمية الى البكاء وقالت : « أتسالينني يا أمة الله عن ما ترينه ، لقد مات حسن قتله الظالمون قبحهم الله »

فقطعت امة الله كلامها ووضعت يدها على فمها وهمست في اذنها وقالت : « اخفضى صوتك لنتدبر الأمر بالحكمة لأن العنف لا يجدي »

قالت سمية : « دعينى يا امة الله . فانى لا اريد الحياة بعد مقتل حبيبى ومنية فؤادى حسن . لقد قتلوه لعنهم الله ! . ليتهم قتلونى عوضا عنه »

فتقطع قلب امة الله حزنا على سيدتها ، ولكنها كانت عاقلة حكيمة صاحبة دهاء ، فتجلدت وقالت : « من قال لك انهم قتلوه ؟ »

قالت : « اتسالينني ؟ . اما راينا معا جمله مكسورا مهجورا ؟ . وهبى ان ذلك لم يكن يدل على قتله فما قولك وقد اخبرنى بقتله ابى الظالم الخائن ، وعرض على أن يرينى جثته راى العين ؟ . هل بعد ذلك من شك ؟ وهل تلومينني اذا ندبت حياتى ونحت على شبابى ؟ . وهل

ترين سبيلا الى راحتى غير الموت ؟ »

فقالت الجارية : « ان امر القتل لا يمكن ان نعده يقينا حتى الآن ، وليس يخفى عليك رغبة ابيك فى تزويجك بالحجاج ، فلعله ادعى ان حسنا قتل لكى يحول قلبك عنه ، ومع ذلك فان قتلك نفسك امر مستدرك ولا يجوز لك ذلك الا بعد ان تتيقنى انهم قتلوا حبيبك . فعليك ان تصبرى ، ثم اذا لم يفتح الله عليك بابا للفرج ورايت الحجاج اوشك ان يبلغ مرامه منك ، فليس اسهل من ان تقتلى نفسك بتجرع السم قبل وصوله اليك »

قالت : « ومن اين آتى بالسم ؟ »

قالت : « انا آتيك به ، فاشترطى على ابيك ان اكون فى خدمتك ، وانا اهيىء لك السم ، ومتى تحققت انقطاع الأمل ، اسعفتك به ، وتجرعت منه معك ، اما الآن فدعى العناد وتظاهرى بالرضا ، ولا يبعد أن يفتح علينا قبل وصولنا الى هذا المعسكر ، او قبل وصولنا الى مكة ، او لعلنا نجد حسنا فى الطريق فتذهبين اليه . وليس يليق بك أن تطلقى لنفسك عنان اليأس ، اذ ماذا يكون الشان اذا قتلت نفسك وكان حسن لا يزال حيا ؟ »

فلما سمعت سمية كلام امة الله احست بانشراح صدرها وارتاح بالها وعادت اليها الآمال . والانسان سريع الرجوع الى الأمل لان طبيعة الوجود تبعده عن اليأس ، وحب ذاته يهون عليه الرجوع عن الانتحار حبا فى البقاء ، ويندر ان يرتكب احد جريمة الانتحار بعد اعماله الفكرة والتبصر . وما لبثت سمية ان استحسنت راى جاريتها فقالت لها : « افعلى ما بدا لك ، فأنت تعرفين ما فى قلبى ، فعسى أن يأتينى الله بالفرج على يدك »

فسرت الجارية لنجاحها فى اقناع سيدتها ، ولكنها شعرت بهول الموقف ، وكانت ترجح موت حسن . على انهـا عمدت الى الصبر وخرجت الى سيدها وكان واقفا مع عبده تحت نخلة ، فلما رآها أومأ اليها أن تدنو منه . فمشت منحرفة عن موقفه ففهم انها تريد الاختلاء به . فمشى وحده حتى التقيا . فقالت : « انى رايت سمية مطيعة لك فى كل ما تريد ، لكنها استوحشت معاملة قنبر فلا تدعه يخاطبها او يكلمها . ولا يخفى على مولاى ان من كان فى حال سمية لا يؤخذ بالعنف ، وقد خاطبتها الآن باللين فرايتها لانت ، ولا بد من جلسة أخرى اتمم بها المراد . فاذا كان لا بد من ارسالها الى معسكر طارق اليوم فدعنى اكن فى خدمتها حتى نأتى الحجاج ولك على كل ما يسرك »

فاطمان بال عرفجة وهان عليه ابعاد قنبر عنها ، واطاع امة الله فى

ارسالها معها وقال لها : « لا بد من ذهابها الآن الى خيمة اعدوها لها فى معسكرهم ولا آمن ان تسير وحدها ، فاذهبى أنت معها واكدى لهـا انى لم أفعل ما فعلته الا رغبة فى راحتها »

فقبلت امة الله يده وقالت : « بارك الله فيك ، ولكن سمية تحتاج الى احضار ثيابها وادواتها »

فقطع عرفجة كلامها وقال : « كل شىء معد لها فى خيمتها بالمعسكر وما عليها الا الرجوع اليه »

فقالت امة الله : « ادخل الآن عليها فى الخيمة ، وكلمها كلاما لينا » . قالت ذلك ومشت فمشى عرفجة حتى دخل الخيمة فراى سميـة جالسة باكية ، فدنا منها وامسك بيدها وقال : « لقد ساءنى ما الجأتنى اليه من الكلام الجافى ، ولكنى علمت من امة الله انك فعلت ذلك بالرغم منك ، فانهضى وسيرى معها الى خيمتك فى المعسكر ، وقد أوصيتها بأن تكون فى خدمتك »

فنهضت سمية مطرقة ، فأسرعت امة الله الى يد عرفجة وقدمتها الى سمية وهى تقول : « قبلى يد ابيك ليتم رضاؤه عنك » . فقبلتها . وكان الهودج لايزال معدا فقبلها وأركبها ، وامة الله معها ، وركب هو بغلته وسار امامهما حتى اوصلهما الى المعسكر وسلم الجمل الى عريف الجند . فتسلمهِ العريف وسار معهم الى خيمة فى بعض أطراف المعسكر

□

كانت سمية فى اثناء الطريق غارقة فى هواجسها وقد زال أثر كلام امة الله فى نفسها . ولما مرت بالمكان الذى كان الجمل المكسور فيه رأت بعض العبيد قد نحروه واخذوا فى سلخ جلده ، فتصورت انهم قتلوا حسنا ونحروا جمله ، وعظم عليها الامر ولكنها تجلدت ، وكانت أمة الله تراقب حركاتها خلسة . وبعد هنيهة وصلوا الى المعسكر فتحققت سمية انها وقعت فى الشباك وعز عليها ان تزف الى رجل فظ غليظ القلب بدلا من حبيبها ، فاستوحشت وزاد قلقها ــ والفتاة اذا زوجوها برجل تعرفه وترضاه لا بد من استيحاشها فى اوائل ايامها الا اذا كان زواجها عن غرام متبادل فكيف بسمية وهى ترجح قتل حبيبها ظلما ، وترى ان اباها قد باعها لرجل لا تحبه والناس يتحدثون بقساوته وشدته وبأن أمره نافذ لامرد له ؟

فلما وصل بعيرها الى الخيمة المعدة لها اناخوه وانزلوها وامة الله معها ، ثم دخلتا الخيمة فرات سمية صندوقها وفراشها وكل معداتها

هناك فجلست على بساط كانوا قد فرشوه لها . وجلست امة الله الى جانبها تحادثها وتلاطفها ، وسمية تنظر الى خارج الخيمة تتشاغل بما تراه من حركات الجند والعبيد والخيل والجمال وهى مستغرقة فى الهموم . وكان اشد ما شغل ذهنها ان رات كلبا ينهش خرقة سوداء ويلاعبها بين يديه فيقذفها ثم يعدو فى اثرها عدوه الى فريسة ، وتلك عادة الكلاب اذا لم تكن جائعة ثم اتفق أن قذف الكلب تلك الخرقة فوقعت بين يديها ، فما كاد بصرها يقع عليها حتى اجفلت وخفق قلبها ومدت يدها اليها ففر الكلب من امامها

فأمسكت الخرقة بأنملتين ورفعتها وتفرست فيها فاذا هى ملوثة بالدم . وما لبثت ان قلبتها وصاحت : « ويلاه هذا هو القباء . هذا قباء ابى قتل حسنا به ! »

فتناولته امة الله من يدها وقد عرفته ولكنها راحت تغالط سمية لتخفف عنها فقالت : « كيف عرفت أنه قباؤه والأقبية تتشابه ؟ »

فقطعت سمية كلامها وقالت : « قد عرفته من هذا الوشى على هذا الكم فانى طرزته بيدى وأنا اعلم الناس برسمه » . قالت ذلك وشرقت بدموعها ولم تنتظر جوابا من امة الله واخذت تبكى وتقول : « قتلوه . لم يبق عندى شك فى قتله »

فقطعت امة كلامها وقالت : « وما علاقة هذا القباء بقتله ؟ »

قالت : « الا تتذكرين ان ابى اهداه اليه يوم عزمه على السفر ، والح عليه ان يلبسه للوقاية من البرد ؟ ويل له من مشـــهد يوم عظيم . لقد البسه القباء واوعز الى احد من صنائعه ان يقتله وكأنه اتخــذ القباء دليلا عليه فأصابوا غرضهم منه ، وهذه هى بقية القباء وعليها الدم . فهل من بعد هــذا شك فى انهم قتلوه ؟ . وما العمــل ؟ كيف أسلم نفسى الى قوم قتلوا حبيبى ؟ » . قالت ذلك وغصت بريقها

فقالت امة الله : « سلمى أمرك الى الله ولا تيأسى من رحمته . واعلمى ان ما يقدره الله واقع . فاصبرى والله مع الصابرين »

فلم تر سمية غير الصبر فصبرت نفسها . والمرء قبـــل وقوع المصيبة يتوهم انها اذا وقعت يستحيل عليه احتمالها ، وقد يتوهم ذلك أيضا اهله وذووه ، ولكنه متى وقعت لا يعدم سبيلا لاحتمالها والصبر عليها وامثال هذه الحوادث كثيرة نراها كل يوم . فلا غرو اذا صبرت سمية بعد ما تحققته من مقتل حبيبها

وفى اصيل ذلك اليوم نودى الجند : « الخيل الخيل » فركبوا بعد ان قوضوا الخيام ، وساروا والفرسان فى مقدمتهم واصحاب الرايات بينهم وفيهم رؤساء القبائل يحيطون بطارق بن عمر ، وكلهم بلباس أهل

البادية الا هو فانه لبس درعا فلوسية كان قد جاء بها من العراق

اما سمية فحملوها على هودج ومعها خادمتها ، وكان يقود الجمل عبد ، ويسوقه عبد ، والى كل من الجانبين حارس على هجين . وكان طارق يتردد الى الهودج يتعهده ويسال اهله هل يحتاجون الى شيء ، ثم يركض فرسه الى اطراف الجند يتفقده ويدير شؤونه

□

فلنترك سمية في هودجها تفكر في مصيرها ولنرجع الى المدينة للبحث عن عبد الله خادم حسن فقد تركناه راجعا من بيت سكينة بعد ان اوصل سمية اليه. ثم اخبرت امة الله سمية انه جاء الى المنزل للسؤال عنها فلم يجدها فرجع على اعقابه

وكان عبد الله لما رجع من بيت سكينة قد اسرع لملاقاة سيده خارج باب المدينة ، وهو قلق لما سمعه من حديث سمية مع حسن في تلك الليلة . وتصور ما يحدق بسيده من الاخطار فسار وهو يفكر في الامر، ونسي نفسه فأخطأ الطريق وخرج من غير الباب الذي خرج منه حسن، ثم سار من طريق آخر يؤدي الى جهة اخرى . وكثيرا ما يتفق ذلك في مثل هذه الحال فيتجه الرجل شرقا وهو يرى انه يسير غربا . وبعد ان سار ساعة وهو لا يرى راكبا ولا يسمع صوتا وقد اشتد الظلام ، وقف ونظر الى ماحوله فاذا هو بين النخيل لا يتبين الطريق ولا يدري اين هو ، ولكنه لم يكن له علم بطريقة الاستدلال بالكواكب ، فحول سيره الى جهة اخرى ، ولكنه لم يصل الى المكان المقصود ، على انه كان كلما بعد عن المدينة استدل عليها ببعض مايبدو فيها من الانوار فيرجع الى جوارها . وحدثته نفسه بدخولها ولكنه خاف ان يكون سيده في انتظاره ببعض ضواحيها ، ثم بدا له ان سيده ربما كان قد عاد الى بيت سمية لسبب ما ، فرجع الى المدينة وجاء منزل عرفجة فلم يجد سمية هناك كما تقدم ، فعاد الى خارج المدينة وقضى ليلته في هذا الاضطراب

وقبل الفجر سمع جعجعة جمل يتألم فولى وجهه شطر جهة الصوت ، وقد خيل اليه انه جمل سيده ، فاستأنس به ، واخذ ينادي الجمل بما تعود ان يناديه به من الاسماء والاصوات فازداد الجمل جعجعة ولكنه بقي في مكانه حتى بلغه عبد الله فعرف انه جمل سيده حقا غير انه لا يستطيع النهوض كأنه معقور ، فغاص عبد الله في الماء حتى دنا منه فادار الجمل راسه اليه كأنه يحييه ويستنجده

ولما تحقق انه معقور ، ولم يجد حسنا عنده ، اضطرب وشغل باله ، فأسرع الى الرحل فنزعه عنه ، ووقف مدة وهو يفكر فيما عسى ان يكون قد حدث لحسن . واشتد به الاضطراب والقلق . ولم يجد فائدة من ان يسأل عنه فى بيت عرفجة لأنه لم يجده هناك بالامس ، وقد خشى اذا سأل سمية عنه ان يزيد فى بلبالها . فخطر له أن يقصد الى المكان الذى باتا فيه ليلة وصولهما الى المدينة مع ليلى الاخيلية ، فسار اليه ، ومر أثناء مسيره بمنزل عرفجة فتنسم الاخبار ، ولما لم ير اثرا لحسن واصل السير حتى أتى البيت فلم يجد به احدا ، فجلس وقد أخذ التعب منه ماخذا عظيما ، ووضع الرحل بين يديه وجعل يفتشه فوجد أسطوانة مختومة وعليها اسم عبد الله بن الزبير فعلم انها الرسالة التى يحملها حسن الى مكة . فلما رآها ازداد قلقه وقال فى نفسه لو أن حسنا ترك الجمل باختياره لحمل هذا الكتاب معه ، لأنه انما جاء هذه الديار من أجله . فترجح لديه انه قتل او اصيب بمكروه ، فقضى نهاره لم يذق طعاما ، واخذ يندب مولاه تارة ، ويعلل نفسه بلقياه تارة اخرى . ولم يغادر سوقا ولا دربا من دروب المدينة الا مر به وهو يتفرس فى وجوه الناس ويتنسم الاخبار ، فلم ير الا انهماك الناس فى اعداد النجدة للحجاج عملا بما حمله البريد اليهم . وبات ليلته بالمدينة وهو يفكر فى الامر ، فقر رأيه أخيرا على أن يحمل كتاب خالد الى عبد الله بن الزبير فى مكة فيتم المهمة التى جاء حسن من أجلها ، على أن يبحث عنه فى أثناء ذلك



عبدالله بن الزبير

كان عبد الله بن الزبير بن العوام من كبار الصحابة . وكان قد رفض المبايعة ليزيد بن معاوية كما رفضها الحسين بن علي ، وخرجا من المدينة الى مكة ، ودعا كل منهما الى بيعته هو ، على ان عبد الله رأى ألا يتظاهر بذلك والحسين فى مكة لعلمه انه أولى منه بالبيعة . فلما كان شخوص الحسين الى الكوفة ومقتله فى كربلاء ، خلا الجو لابن الزبير فبايعه الناس واستفحل أمره ، وجعل مكة عاصمته . وبايعه أهل الحجاز واليمن . وحاربه بنو امية ولكنهم لم يبلغوا منه وطرا ، فلما كانت خلافة عبد الملك بن مروان ، وكان الحجاج يومئذ احد امراء عبد الملك ، ولهذا ثقة فى شجاعته ، رغب الحجاج فى قتال عبد الله ، وقص على عبد الملك رؤيا قال انه رأى نفسه فيها وقد أخذ ابن الزبير وسلخه ، وطلب من عبدالملك أن يشخصه لقتاله ، فأشخصه فى ثلاثة آلاف من أهل الشام، وأعطاه كتاب امان الى ابن الزبير ومن معه ان اطاعوا ، واوصاه بأن يرفق بالكعبة

فسار الحجاج سنة ٧٢ هـ . وحدثت بينه وبين ابن الزبير مناوشات لم يتم الفوز فيها لأحدهما ، فمل الحجاج ، وأرسل الى عبد الملك يستأذنه فى دخول الحرم وحصر ابن الزبير ، فأذن له وانجده بخمسة آلاف آخرين ، فاشتد بذلك ازر الحجاج ، وحاصر الكعبة ورماها بالمنجنيق . فعظم ذلك على المسلمين وانبوه ، ولكنه اصر على رايه . وطال الحصار على أهل مكة حتى قل زادهم واصابهم جوع شديد . وكانت مكة يومئذ قليلة العمارة ليس فيها غير المسجد وفى وسطه الكعبة وبعض الابنية ، وكانت الكعبة قد تهدمت فى حصارها قبل قدوم الحجاج فأعاد ابن الزبير بناءها على أوسع مما كانت عليه

ونصب الحجاج المنجنيق على جبل ابى قبيس المشرف على مكة من جهة الشمال والشرق

وكان ابن الزبير مقيما مع اهله بالمسجد الحرام ، ومعه جماعة من رجاله قد بايعوه حتى الموت وصبروا معه صبر الرجال . وأما الحجاج فكانت خطته أن يستمر فى تضييق الحصار على عبد الله ، وبعث بسراياه يطوفون حول مكة يمنعون الدخول اليها والخروج منها . ولما طال امد

الحصار دون ان يستسلم المحاصرون استنجد الحجاج طارقا امير المدينة كما تقدم

□

ولنرجع الى حسن وقد خرج من المدينة على جمل أهداه اياه أبو سليمان ، ومعه العبد بلال . وبعد مسيرة ايام اشرفا على مكة عند الغروب فراياها محاطة بشراذم من الفرسان يطوفون حولها . فقال بلال : « انى أرى الطلائع الاموية حول مكة ، ولا آمن اذا واصلنا السير ان يمنعونا ، فهل تأذن لى فى الخروج اليهم للاستطلاع ثم أعود اليك ؟ »

فوافقه حسن على ذلك ، واوصاه بالرجوع اليه عند حائط انتظره فيه بعيدا من الطريق العام

وسار بلال ، واتجه حسن الى ذلك الحائط ، وهو من آثار بناء قديم هناك ، وترجل وعقل جمله وراء الحائط ثم اتكأ بجانبه بحيث لا يراه أحد من المارة . ولبث مدة وقد طاب له الاتكاء لعظم ما قاساه من الجهد فى اثناء ركوبه الطويل من المدينة الى مكة فأحس براحة ، ولكنه ما لبث ان راى الشمس تغرب والظلال تتقلص وبلال لم يرجع . فلما آن العشاء استبطأه وحسب لتأخره ألف حساب ، ثم وقف وتسلق الحائط وجعل ينظر الى الافق لعله يراه قادما

وفيما هو فى ذلك سمع سعال بلال ، فالتفت فرآه قادما يعدو عدو الغزال والارض رملية لا يسمع وقع الخطى عليها ، فلما وصل اليه قال : « لا سبيل لنا الى مكة الليلة لأن رجال الحجاج مضيقون عليها الحصار ، من كل ناحية حتى لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد »

قال حسن : « وما الحيلة ؟ . لابد من دخولنا »

قال : « ليس لنا يامولاى الا أن نصبر الى الغد ، لإبحث عن سبيل الى دخولنا »

فقال : « انبقى وراء هذا الحائط الى الغد ؟ »

قال : « كلا يامولاى ، فقد دبرت وسيلة اظنها تريحك وتسهل عليك الدخول »

قال : « وما هى ؟ »

قال : « اتعرف محمدا بن الحنفية ؟ »

قال حسن : « كيف لا وهو ابن الامام على ، واخو الحسن والحسين من ابيهما ؟ »

قال: « ان له حرمة عند الحجاج وعنـــد ابن الزبير ، فاذا وســـطناه دخلنا مكة على أهون سبيل »

قال: « كيف تكون له هذه الحرمة وهو عدو لابن الزبير ولعبدالملك ، لأنه يزاحم الاول على الخلافة فى الحجاز ، ويزاحم الآخر على الخلافة فى الشام . الم تـسمع بحديث المختار ؟ »

فقال بلال: « كيف لم أسمع به ؟ »

فقال حسن ولم ينتظر اتمام جوابه: « لقد كان المختـــــار يطالب بالخلافة لمحمد بن الحنفيــة ، ثم قتله مصعب أخو عبـد الله بن الزبير المحصور فى هذا الحرم الآن ، وجاء عبد الملك بن مروان فحارب مصعبا وقتله واخذ العراق منه »

قال: « صدقت يامولاى ، ولكن المختار طلب من تلقاء نفسه البيعة لابن الحنفية دون ان يكلفه هــذا بذلك ولا اراده ، وقد لجـأ المختار الى هذه الخطة تمهيدا لاستقلاله بالامر لنفسه ، وعلى هــذا حل الكرسى المشهور امره عنــد النــاس ، وزعم انه كرسى الامام على ، كما ادعى مايشبه النبوة حتى كرهه الناس ونفروا منه »

فقال حسن: « هل رايت ذلك الكرسى وهل تعرف اصله ؟ »

قال: « ان سر هــذا الكرسى عندى ، وطالما جلست عليه قبـل أن يصبح مقدسا كما ادعى المختار »

قال: « وكيف ذلك يابلال ؟ انك والله لواسع الاطلاع »

قال: « ان الذى يعيش طويلا يرى كثيرا . فقد اتفق لى منذ بضع سنين وانا فى المدينة انى اصطحبت رجلا اســمه الطفيل بن جعدة بن هبيرة ، وكانت جدته أم جعدة أخت على بن ابى طالب . وكان يتردد الى جار له زيات كنت أتردد اليه احيانا ، فأصيب الطفيل يوما بضيق ولم يبق معه ماينفقه على نفسه . وكان المختار يومئذ قد قام لمحاربة قتلة الحسين ، فأراد الطفيل ان يحتال عليه ليكسب منه مالا ، فاشترى من جاره الزيات كرسيا قديما كان مهملا عنده ثم غسله وسقاه الدهن حتى لمع ، وذهب به الى المختار وقال له: انى كنت اكتمك شيئا وقد بدا لى أن اذكره لك . ان أبى جعــدة كان يجلس على كرسى عنــدنا ، ويروى ان فيه أثرا من على . فقــال له المختار: ســبحان الله لمــاذا كتمت خبره ، ابعث به الى . فبعث به اليه وقد غشاه بملاءة ، فدفع له اثنى عشر الف درهم . فأخذها الطفيل وانصرف . ثم غشى المختار الكرسى بالديباج وزينه بأنواع الزينة ، ودعا الناس الى المسجد حيث اراهم اياه بعد الصــلاة وقال لهم: « ان هــذا الكرسى من ذخائر أمير

المؤمنين على عليه السلام ، وهوعندنا بمنزلة التابوت لبنى اسرائيل) . فصدقوه وصار اذا حارب خصومه حمل الكرسى معه الى ميدان القتال وقال لمن معه : (قاتلوا ولكم الظفر والنصر ، هذا الكرسى محله فيكم محل تابوت بنى اسرائيل ، وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مددا لكم) . . »

فقال حسن : « لعلك تعرف ابن الحنفية ؟ »

قال : « نعم يامولاى ، وقد شهدت كثيرا مما يتناقله الناس من احاديث قوته البدنية . واذكر انى رايته فى حياة ابيه الامام على ، وكنت غلاما ، وفى يد ابيه درع طويلة فأراد أن ينقص بعض حلقاتها فدفعها الى محمد وامره أن ينقص منها كذا حلقة ، فقبض محمد باحدى يديه على ذيلها وبالاخرى على فضلها ، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذى حدده أبوه . وهو يعرفنى ايضا »

فقال حسن : « وماذا ترى أن نصنع الآن ؟ »

قال : « ان ابن الحنفية مقيم الآن بالشعب فى جوار مكة ، فاذا شئت نزلنا عنده الليلة ثم نرى مايكون فى الغد »

فقال : « وهل تعرف الطريق اليه ؟ »

قال : « عرفته فى أثناء غيابى عنك الآن ، وقد اوصانى بك مولاى ابو سليمان خيرا اراك اهلا له . . فأنا خادمك حتى تبلغ مأمنك »

فقال حسن : « بورك فيك » . واخذ يهيىء رحله للركوب وبلال يساعده ويقول : « انى أرى مكة فى ضيق شديد ، واخاف على ابن الزبير من عاقبة هذا الصبر ، فان الامويين غالبون آخر الامر على ما أرى »

فتذكر حسن ما هو قادم لأجله وخاف الفشل ، ولكنه صبر ريثما يدخل مكة فى الغد

سار حسن وبلال حتى اتيا ارضا صخرية مشيا بين شعوبها ، ثم صعدا تلالا أشرفا منها بعد قليل على شعب بعيد أوقدت به نار لهداية الضيوف كما هى العادة عند العرب . وهم حسن بأن يسأل بلالا فاذا بهذا يقول له : « اننا على مقربة من الشعب ، وعما قليل تبدو لنا الخيام ونسمع صهيل الخيل ، فهل تريد ان تنزل فى دار الاضياف رأسا أم نقصد خيمة محمد نستأذنه ونخاطبه فى أمر دخولنا مكة ؟ »

قال : « اخشى أن يكون فى ذهابنا الآن الى خيمته مايزعجه ، فلنترك ذلك الى صباح غد »

قال : « اذن نذهب الى دار الضيافة فانهم لايسألون القادم البهاعر

سبب قدومه ، ومتى أصبحنا نرى مايكون . وربما خرجت انا الليلة لادبر الامر »

فأثنى حسن على غيرته . وبعد قليل لاحت لهما خيـــام عديدة منصوبة على غير نظام يتوسطها فسطاط كبير عرفا من اتساعه ووقوف بعض الخدم ببابه انه فسطاط محمد بن الحنفية ، فوقف بلال برهة وهو يتفرس فى الخيام حتى تبين خيام الاضيـاف وعرفها من انفرادها عن سواها وقربها من النار . فسارا حتى اقتربا منها فسمعا لغطا وكلاما . ثم ترجل حسن ، وسبقه بلال الى اقرب الخيام فلقيه رجل رحب به وسأله عما يريد ، وطلب اليه ان ينتسب ، فانتسب وقال : « اننـا أضياف غرباء » . فأنزلهما على الرحب والسعة ، وافرد لهما خيمـة ليس فيها أحد . فدخل حسن ، وأعطى بلال الجمل لاحد الخدم ليأخذه الى المعالف ، ثم عاد الى حسن فوجد عنده طعاما اعده القوم ؛ فاكلا ، ثم خرج بلال ، على ان يعود بعد قليل ، وتوسد حسن على فراش من جلد فرشوه له ، وكان التعب قد اخذ منه مأخذا عظيما فغلب النعاس عليه فنام ، ولكن هواجسه لم تنم معه فتحولت الى احلام مزعجة راى فيها انه دخل مكة وقد دخلها الحجاج وقبض عليه وحبسه وقيده ، فشق ذلك عليه وانزعج ، ثم افاق من نومه مذعورا فشكر الله لان ذلك كان حلما ولكنه تشاءم وغلب عليه الارق فجعل يتقلب والنوم لايأتيه. فأراد رؤية بلال لعله يقص عليه ما يتسلى به ريثما يطلع النهار، وخرج للبحث عنه عند باب الخيمة حيث ظن انه نام هناك ، وناداه فلمـا لم يجب ظنه مسـتغرقا فى النوم ، ثم ما لبث ان تبين انه لم يعد بعـد ، وتفرس فى النجوم فعلم انه فى الهزيع الاخير من الليل ، فقلق على بلال، ثم التف بردائه اتقاء للبرد ، وخرج ليبحث عنه حول الخيام

□

وفيما هو فى ذلك سمع جعجعة جمل قادم نحو الخيـام فالتفت فاذا هناك جمـلان على أحدهما ما يشـبه الهودج ويقوده رجل ماش لم يستطع تبين وجهه لاشتداد الظلام ، فتبادر الى ذهنه ان رجلا وامراته وخادمه قادمون للمبيت هناك الى الصباح . ولكنه استغرب مسيرهم فى أواخر الليل بجوار مكة وهى فى حصار شـديد . فعاد الى خيمته وفى نفسه ان يستطلع حقيقة القادمين ، فجعل ينظر من شـقوق فى الخيمـــة تطل على الطريق ، فراى ان الجملين قد انيخا ونزل راكب أحدهما وهو رجل قصير القامة ، ملثم بعمامته وقد التف بعباءته . ثم راى الرجل الذى كان ماشيا يقود الجمل فاذا هو عبد كبير الجثة سريع

الحركة ، تسلم جمل الراكب الاول وعقله بجانب الجمل الآخر وهو يقول : « اترى يامولاى أن ابقى هنا مع الجملين ، أم اسير فى خدمتك ؟ »

فرد عليه الرجل بصوت منخفض قائلا : « امكث انت هنا واحتفظ بما على الجمل فانه أعز شيء عندى كما لايخفى عليك »

قال : « هل اسير فى خدمتك الي خيمة الاضياف ؟ »

قال : « لست ذاهبا الى هناك ، فامكث انت هنا ريثما أعود اليك» . قال ذلك ومشى

وكان حسن يتوقع أن يرى زوجة الرجل الاول تنزل من الهودج ، ولكنه رآه ما زال مجللا بغطائه ، ثم راى العبدعاد الى الجمل الذى يحمل الهودج وجلس بجانبه مستندا الى بطن الجمل ، وما لبث أن نام نوما عميقا وعلا شخيره . فاستغرب حسن مارآه ، وكان قد تعب من الوقوف ، فعاد الى فراشه وفكره مضطرب . وبعد ان جلس قليلا عاد الى باب الخيمة للبحث عن بلال وقد ازداد قلقه لغيابه ، فأطل برأسه من الباب وتلفت يمنة ويسرة فلم يجد احدا ، وحال الظلام بينه وبين الاشباح البعيدة فعاد الى فراشه وقد احدقت الهواجس به ، فحدثته نفسه بأن يخرج الى ذلك العبد ويسأله عن سر الهودج ، ولكنه احجم وقال : فى نفسه : « لو كان بلال هنا لكلفته بهذه المهمة »

وفيما هو فى ذلك سمع وقع اقدام خارج الخيمة تقترب من بابها ، فأدرك ان بلالا قادم ، ولم يشأ أن يناديه لئلا ينتبه العبد الآخر النائم بجانب الجمل . فوقف ومشى الى الباب، فرأى بلالا يهم بالاتكاء ، ورآه بلال فوقف وقال : « ما الذى ايقظك فى آخر الليل يامولاى ؟ »

قال وهو يشير اليه أن يخفض صوته : « لقد استيقظت من زمن ، فقلقت لغيابك ، ثم رأيت بعض الناس حطوا رحالهم وراء خيمتنا ، وظهر لى من امرهم ما اقلقنى »

فقال بلال : « وما الذى تبغيه منى فأفعله ، انى رهن اشارتك »

قال : « هل مررت من وراء هذه الخيمة ؟ »

قال : « كلا وانما جئت من هنا »

قال : « تعال اذن » . وامسكه بيده فأدخله الخيمة واراه الجملين والعبد النائم تحت الهودج ، وقص عليه ماكان من امرهم الى ان قال : « فهل تستطيع مخاطبة هذا العبد لتعرف منه الغرض من قدومهم ؟ »

قال : « ذلك شيء يسير » . ثم خرج من باب الخيمة ودار حتى دنا من الجملين وحسن ينظر اليه من شق الخيمة فرآه يقترب من العبد رويدا رويدا حتى دنا منه وتفرس فى وجهه والعبد نائم ثم انكفأ راجعا

مسرعا حتى دخل الخيمة ، فبادره حسن سائلا : « لماذا لم تخاطبه »

قال : « لانى اعرفه واعرف حكايته »

قال : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « اجلس لاقص عليك ما يغنيك عن كثرة البحث . لقد نمت اول الليل بباب هذه الخيمة ولكننى ما لبثت ان استيقظت واخذت افكر فى حيلة نستطيع بها مقابلة محمد غدا حتى لا يطول مكثنا . وخفت ان يكون علينا باس اذا عرفوا مدخلنا ومخرجنا وغرضنا فرايت ان اذلل العقبات وانت نائم ، فنهضت وسرت الى رجل من المقربين الى الامير كنت قد عرفته ايام كنا بالمدينة ولى عليه دالة . فلقيت الرجل فى خيمة له بقرب خيمة ابن الحنفية وبينهما طريق مفتوح ، يدخل عليه صاحبى منه من باب خاص دون سائر الناس ، فلما اتيته رحب بى واكرمنى وسألنى عن امرى ، فقلت له اننا جئنا نلتمس من الامير وسيلة ندخل بها مكة . فوعدنى خيرا ثم اجلسنى وجعل يسألنى عن حوادث مرت بنا قديما وامور يهمه الاطلاع عليها ، وكلما هممت بالنهوض اقعدنى حتى طال بى الجلوس . وبينما انا اهم بالنهوض سمعنا وقع اقدام خارج الخيمة على غير انتظار فاقعدنى صاحبى وخرج وهو يقول : (من الرجل ؟) . وسمعت من يجيبه قائلا : (انا عرفجة) . ولما كنت اعرف رجلا اسمه عرفجة كان يتردد على عامل المدينة وكثيرا ما رايته فى دار الامارة خرجت لاحقق امره فرايت الرجل ملثما ولكننى عرفت انه هو صاحبى هذا من صوته وقامته »

وهنا تذكر حسن أن الصوت الذى سمعه لما اناخ الرجل الجملين يشبه صوت عرفجة ، فبغت واستغرب مجيئه فى هذا الليل ، وتبادر الى ذهنه انه ربما علم بقدومه فجاء للوشاية به لدى ابن الحنفية ، ولكنه استبعد ذلك لعلمه انه ليس على وجه البسيطة رجل عرف بخروجه من المدينة غير سليمان وابيه وخادمه بلال . ثم على فرض ان عرفجة عرف بمسيره الى مكة فكيف يعرف انه فى هذا الشعب . ولكن اذا كان هو عرفجة فمن عسى ان تكون التى جاءت معه فى الهودج ؟ انه غير متزوج وليس عنده من النساء الا ابنته سمية ، فهل هى التى فى الهودج ؟ وخفق قلبه وتصاعد الدم الى وجهه . كل ذلك وبلال واقف بين يديه ينتظر اشارته لاتمام حديثه

فقال حسن : « وهل عرفت الغرض من قدوم هذا الرجل فى هذا الليل ؟ »

قال : « كلا يامولاى لانى رايته يحدث صاحبى همسا فرايت ان انصرف لاخلى لهما المكان . ولما استاذنت صاحبى نادانى اليه وقال :

« موعدنا غـدا ان شـاء الله » . فعلمت انه لايزال على وعده فاتيت وآثرت النوم بباب الخيمة الى الصباح »

فقال حسن : « وما الذي عرفته من امر العبد النائم بجانب الجمل؟ »

قال : « عرفت انه قنبر خادم عرفجة ، وهو عبد سمج الخلق فظ الطبع يعرفه كل اهل المدينة »

قال حسن : « وما ظنك بمن فى الهودج ؟ »

قال : « لا اظنه هودجا وانما هو محفة . ولايبعد أن يكون فيها بعض النساء او ربما كانت فيه ابنته سمية لأنه ليس له سواها »

فلما سمع حسن اسم حبيبته تجددت اشجانه ، وتذكر ان بلالا لايعلم شيئا من أمره مع سمية ، فضاقت نفسه عن كتمان سره ولكنه تجلد وقال : « اتظنه يحمل ابنته معه الى هنا فى مثل هذه الظروف؟ »

قال : « لا اخاله يفعل ذلك ، وهب انه حملها فلا اظنه يبقيها محبوسة لانسمع لها صوتا ، ولاسيما ان المحفة ضيقة لاتكفى لكى تنام فيها »

فاطمأن قلب حسن على سمية ولكنه بقى مشغول الخاطر بأمر المحفة ، وهم بأن يعود الى سؤال بلال فى شأنها ، فاذا بهذا يبتدره قائلا : « ليس فى المحفة فتاة ولا امرأة ، فقد تذكرت الآن ان لهذا الرجل محفة قد احتفظ بها فى منزله لايطلع أحدا على مافيها ، واهل المدينة مشتاقون لمعرفة سرها . فلعلها هى هذه »

فازداد حسن شوقا الى معرفة سر المحفة ، ولـكن القلق عاوده من جهة ماحمل عرفجة على القدوم فى هذا الليل ، فقال لبلال : « متى نذهب الى ابن على ؟ » .

قال : « عند طلوع الشمس »

فعاد حسن الى فراشه ، واضطجع بلال بباب الخيمة . وقضيا مابقى من الليل بين نوم وتقلب وهواجس ، ولما طلع النهار نهضا وخرجا فما كاد حسن يلتفت الى موضع الجملين وراء خيمته حتى بغت اذ لم يجد لهما اثرا ، وظن ان عرفجة قد سافر

وواصلا سيرهما بين الخيام ، وهى على مرتفع من الارض متشعب ، به للخيل والجمال مسارح وقد خرج الخدم ليقدموا لها علفها . فلما بلغا خيمة محمد ، وكانت رحبة عالية قائمة على عمد عديدة ، رايا بابها مسدلا فعلما ان محمدا فى شاغل ، فتحولا الى خيمة صاحب بلال وهى ملتصقة بها ، فلما دخلا عليه رحب بهما وادخلهما وهو يشير اليهما الا يتكلما . فدخل حسن ونظر من كوة فى الخيمة تطل على خيمة الامير فرأى محمدا جالسا وبين يديه رجل قصير القامة عرف انه عرفجة ، فقال فى نفسه هذه فرصة لاينبغى ان نضيعها ويجب ان نطلع على سر

هذه المقابلة . وتفرس حسن فى محمد فاذا هو كبير الوجه وقد بانت فيه ملامح الشيخوخة وهو لايزال كهلا ، ولكنه كان يخضب لحيته بالحناء والكتم فلا يظهر فيها الشيب على ان دلائل القوة لاتزال ظاهرة فى كفيه ووجهه وعينيه

وخاف حسن أن يكون فى تطلعه هكذا مايؤاخذ به صاحب بلال ، فأراد ان يعتذر فتظاهر بالرغبة فى الخروج فقال له الرجل : « تفضل يامولاى واجلس فانى احب الاطلاع على غرض هذا الرجل من هذه المقابلة السرية التى يزعم انها ذات بال ، ولقد ساءنى بخشونته حتى صرت لا ابالى كتمان سره »

فنزل هذا القول بردا وسلاما على قلب حسن ، وفرح لتمكنه من نيل بغيته ، ولكنه تظاهر بعدم اكتراثه للاطلاع على السر ، وجلس بحيث يرى ولايرى فراى عرفجة جالسا بين يدى ابن الحنفية ويخاطبه متهيبا ، وسمعه يقول له : « انت تعلم ايها الامام انك اولى الناس بهذا الامر بعد الحسن والحسين سيدى شباب اهل الجنة . ان الخلافة بعدهما لك فأنت وحدك ولى هذا الامر وليس بنو امية سوى معتدين »

وظل محمد صامتا لايتكلم، فظنه عرفجة راضيا بما يقول، فاستأنف الكلام قائلا : « وانت تعلم يامولاى ان المختار قام بالدعوة لبيعتك ، ولكنه لم يثبت على عهده فلم يوفقه الله ، كما تعلم ان السر الذى كان يستعين به على بث الدعوة جدير بأن يقوم به من تندبه لذلك »

وظل محمد صامتا مطرقا كأنه يفكر فى امر آخر، فى حين مضى عرفجة فى حديثه فقال : « ولايخفى على مولاى الامام ان بنى امية الآن فى شغل بعبد الله بن الزبير ، واكثر جندهم منهمكون فى حصاره ، والعراق خال ممن يدعو اهله الى الحق ، فاذا ندبت احدا وسيرته الى العراق ليدعو الى بيعتك كان ذلك من سداد الراى »

فرفع محمد رأسه وقال : « ان الفشل لم يأتنا الا من العراق ، ففيه قتل ابى واخى غدرا وخيانة »

فزحزح عرفجة نفسه على البساط وقال : « ان السبب فى ذلك الفشل لم يبق منه شىء الآن . وانى ارى السبل قد تمهدت والوقت دنا لظهور الحق »

فقال محمد : « ومن تراه يليق لهذه المهمة ؟ »

قال : « انك انت الذى ستضع سرك بين يديه وتعهد اليه فى النداء بصوت الله ، فأمر اختياره اليك »

قال : « وبمن تشير ؟ »

فسكت عرفجة واطرق ، وكأنه يخشى ان يصرح بترشيح نفسه

لهذه المهمة لئلا يساء الظن به ثم قال : « ان هـذا الانتداب لايكون الا بالهام من الله ، فاختر من يلهمك الله اختياره »

قال : « واذا لم يلهمنى الله ؟ »

فارتبك عرفجة فى امره وتهيب التصريح له بغرضه . وكان غرضه الاول من هذا الامر كسب المال فباع ابنته للحجاج وجاء لنصرة عدوه

وكان محمد بن الحنفية يومئذ على الحياد وقد طلب الحجاج منه ان يبايع لعبـد الملك ، وطلب منه ابن الزبير ان يبـايع له ، فأبى البيعتين ولبث فى انتظار مايكون من أمر مكة وحصـارها ، وذلك لأنه كان عاقلا لايجهل عجزه عن القيام بدعوة جديدة الى بيعته هو بعد ذلك الفشل. على انه ظل يساير عرفجة وهو لاينوى ترك الحياد

اما عرفجة فلم ير بدا من الاجابة فقال : « اذا لم تلهم اختيار احـد لهذه المهمة فاختر صاحب الكرسى »

فقال محمد : « واى كرسى ؟ »

فنهض عرفجة وتحول الى باب الخيمـة ونادى قنبر عبده ، ثم رجع ، وبعد هنيهة دخل قنبر وعلى كتفه المحفة وعليها ستار، فوضعها بين يدى محمد وخرج . فقال محمد لعرفجة : « ما هذا ؟ »

قال : « هذا تابوت العهد ! » . ثم اخرج مفتاحا ورفع الستار عن المحفة وجعل يعالجها بالمفتا حتى فتحت فرفع سقفها وحسن ينظر ويتطاول بعنقه وهو يعجب من غدر عرفجة وخبثـه . ثم ما لبث أن رآه مد يده الى داخل المحفة واخرج شيئا مغشى بالديبـاج فرفع الديباج عنه فاذا هو كرسى خشبه يلمع كالمرآة

وتقدم عرفجة بالكرسى حتى وضـعه بين يدى محمـد وهو يقول : « اليس هذا كرسى الامام على الذى انتصر به المختار ؟ »

فابتسم محمد وقال : « ولكنه فشل بعدئذ »

قال : « لقد فشل لأنه لم يخلص النية فى سعيه »

فقال محمد : « وهل تخلص أنت النية اذا ندبناك لهذه المهمة ؟ »

قال وقد بان السرور فى وجهه : « كيف لا ، وهذه بغيتى واكون قد نصرت الحق واهله ؟ »

□

عجب حسن لقبول محمد هذا الامر ولـكنه ما لبث أن سمعه يقول لعرفجة : « ولكن دعوة اهل العراق تحتاج الى المال ، لأن بنى امية انما

غلبوا اخوى بالمال ، وسيغلبون اللائذ بالكعبة بالمال ايضا ، فان ديارهم غنية وعندهم المال كثير ينفقونه فى ابتياع الاحزاب والاتباع . فاذا كنت صاحب مال فانى أرجو لك النجاح »

فلما سمع عرفجة كلام محمد سقط فى يده ، وخاب ما امله ، ولم يدر بماذا يجيب . ولكن محمدا لم ينتظر جوابه فقال له : « ان هذا الكرسى الذى تزعم انه كرسى ابى ليس سوى كرسى قديم لأحد الزياتين . وقد زعمت انى ندبت المختار ليدعو الى بيعتى ، وهذا وهم باطل لأن ذلك الثقفى انما ندب نفسه لتلك المهمة ليشبع بطنه . فاذا كنت انت جائعا فالتمس بابا آخر غير هذا ! » . قال ذلك وقد ظهر الغضب والجد فى وجهه

فارتبك عرفجة وتحقق ضياع امله بعد ان قضى بضعة اعوام فى تنميق ذلك الكرسى وصقله ، وكتمان امره عن اهل المدينة . وكان لا يشك فى انه اذا عرض الامر على محمد بن الحنفية وجد منه قبولا ، وبذلك يبتز منه المال ليشبع مطامعه وشرهه ، ويضيف ذلك المال الى ماقبضه ويقبضه مهرا لابنته من الحجاج

وكان عرفجة من اصحاب الاحساس الاصم والعواطف المائتة . لايحجم عن عمل مهما يكن خطيرا ، اذا وجد فيه مايشبع نهمه الى المال فلما تبين الغضب فى عينى محمد ، عمد الى الخديعة فوقف بين يديه وهو يظهر الاستغراب وقال : « لقد عجلت يامولاى بالحكم على ، وأنا انما ادعوك الى امر عائدته لك ولأهل بيتك ، ولا التمس على ذلك اجرا ولا شكورا »

فقطع محمد كلامه وهو ينظر اليه شزرا وقال : « اتظن امرك يخفى على ؟. لقد قرات المكر والخديعة فى عينيك . ولولا حرمة الجوار لألحقتك بالمختار والحقت بك بنى ثقيف ! » . ثم نادى : « سعيد »

فنهض صاحب بلال وهو يكاد يطير من الفرح ، واسرع حتى دخل على محمد ، وحسن وبلال ينظران وقد غلب عليهما السرور

فلما وقف سعيد بين يدى محمد قال له : « الق هذا الكرسى فى النار ، واخرج هذا الثقفى من خيمتى ، وليقم حيثما يشاء واذا رحل فزودوه بما يحتاج اليه »

فلما سمع عرفجة ذلك خرج من تلقاء نفسه وهو يظهر الاسف ، وتبعه سعيد حتى خرج من الفسطاط ، فوجده يبحث عن عبده قنبر فلما لم يجده التفت اليه وقال : « انى راحل الى بلدى وقد اسفت لأن الامام محمدا لم يفهم مرادى » . قال ذلك متلطفا خوفا على حياته . فعجب سعيد للفرق العظيم بين هذا التزلف وبين

مقابلته الخشنة ساعة وصوله بالأمس – وذلك شأن اهل الكبرياء يستبدون بالضعفاء من الناس . فاذا لقوا قويا استولى عليهم الذل وصغرت نفوسهم . لأن ما كان يبدو من كبريائهم واستبدادهم لم يكن عن نفس كبيرة وانما هو ضعف رأى وصغر نفس

وكأنما رق قلب سعيد لتزلف عرفجة ، فعرض عليه النزول فى دار الاضياف فاعتذر برغبته فى الرجوع ، وكان قنبر قد عاد فناداه وامره باعداد العدة للرحيل . ثم ركب عرفجة جملا وقنبر الجمل الآخر وخرجا من الشعب يلتمسان معسكر الحجاج . فلما بعدا عن الخيام اخذ عرفجة يتوعد محمدا بالسوء عند الحجاج ويذكره بكل قبيح من الشتم والسباب ليستر ما بدا لعبده من فشله

اما سعيد فانه عاد الى فسطاط محمد وتناول الكرسى والقاه فى النار وعاد الى حسن وبلال فى خيمته فأخبرهما بخروج عرفجة من الخيام ، وهنا عاد حسن الى التفكير فى دخول مكة فسأل سعيدا فى ذلك فأجاب بقوله : « سألت مولاى الامام فى هذا الشأن فأمر بذهابى معكما لأنى تعودت الذهاب الى مكة خلال الحصار وأكثر الطلائع يعرفوننى » . قال ذلك ودخل على محمد يستأذنه فى الذهاب معهما فأذن له

وعاد سعيد اليهما بالاذن فخرجا الى دار الأضياف ليتأهبا للسفر ، وبعد قليل جاءهما سعيد على جواد ، فركبوا وساروا يلتمسون مكة من طريق يعرفه ، والشمس قد تكبدت السماء

□

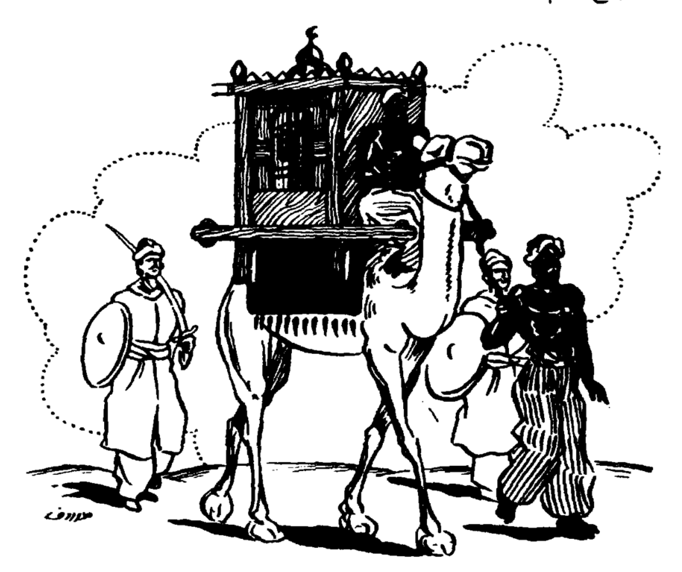
وفيما هم يسيرون وحسن يفكر فى مهمتــه وكيف يدخل على عبد الله بن الزبير وليس معه كتاب خالد ، رأوا غبارا يتصاعد فى الأفق من جهة طريق المدينــة ، ثم انقشع الغبــار عن أعلام تخفق وخيــول تركض وجمال تجعجع ، فلما اقترب الركب تفرس حسن فى الأعلام والناس ، فأدرك انهم من انصار بنى أمية وانهم قادمون من المدينة لنجدة الحجاج

ولكنه استغرب وصولهم فى ذلك اليوم مع انه أقلع قبلهم ، والسيارة كلما زاد عددهم ثقلت خطواتهم ، فظن نفسه مخطئا فى حكمه عليهم فأعاد النظر الى الرايات والملابس فتحقق أنها لأهل المدينة والقبائل القاطنة بجوارها . وعلم من عظم السرعة التى مشت بهــا تلك الحمــلة ما يدل على اضطرار الحجاج اليهــا . فترجل حسن ورفيقــاه والتجأوا الى مكان يرون الركب منه ولا يراهم احد ، وجعل يتفرس فى وجوه الناس

ومر الفرسان وحملة الرايات اولا ، ثم تبعهم المشاة ، فأحمال الزاد والمؤونة

واخيرا رأى هودجا يقوده عبد ويسوقه عبد والى كل من جانبيه فارس . ولم ير فى تلك الحملة هودجا غيره وكان من عادة العرب فى الجاهلية وأوائل الاسلام ان يحملوا معهم النساء والأولاد حين يخرجون الى القتال . فاستغرب حسن امر هذا الهودج وتبين من الاحتفاء بأمره انه لبعض الامراء . وما درى انه يقل حبيبته التى سلبت لبه وانهم يحملونها الى سواه . ولو درى ذلك لطارت نفسه شعاعا اليها. ولو صح ما قاله الشعراء من تواصل القلوب عن بعد لاضطرب حسن وخفق قلبه ودله على ساكنة الهودج

وظلوا وقوفا يراقبون مسير تلك الحملة حتى رأوها اتجهت الى جبل أبى قبيس ، فتحققوا انها نجدة المدينة الى الحجاج ، لعلمهم بأن الحجاج مخيم هناك



رمى الكعبة بالمنجنيق

سار حسن وصاحباه حتى اقبلوا على مكة فراوا الطلائع من الفرسان والهجانة تجول حولها ، وجاء اليهم بعضهم ، فتقدم سعيد لاستقبالهم واخبرهم بأنهم ذاهبون فى شأن يخص ابن الحنفية ، فأذنوا لهم فى الدخول

ونظر حسن الى جبل ابى قبيس فراى فيه خياما وحولها الناس وقد صغرت أشباحهم لبعد المسافة . وبعد قليل وصلوا الى تل فيه بعض المدافن فقال سعيد : « اننا فى الحجون » . فوقف حسن على مرتفع ونظر الى مكة فاشرف على المسجد الحرام والكعبة فى وسطه . وكان قد زار مكة من قبل وراى الكعبة لكنه رآها اليوم اكبر مما عهدها ، وراى على سطحها اشياء غريبة كالفرش والأثاث ، فوقف هنيهة يفكر فى الأمر ، ثم قال لسعيد : « انى أرى الكعبة على غير ما أعهدها فيه ، وكأنها اتسعت ، وكأن عليها فرشا وأثاثا ، وكأن على ارض المسجد خياما !.. ألست ترى ذلك ؟ »

فقال سعيد : « لقد صدق ظنك ، فالكعبة الآن اكبر مما تعهدها لأنها احترقت فى الحصار الماضى على عهد يزيد بن معاوية ، فأعاد ابن الزبير بناءها ووسعها الى ما كانت عليه فى الزمن الاول قبل أن تبنيها قريش . واما ماتراه على سطحها فهو الواح من الساج وضعها عبد الله هناك ووضع فوقها الفرش والقطائف وقاية لها من حجارة المنجنيق ، لان الحجاج نصب المنجنيق على جبل ابى قبيس وجعل يرمى الكعبة بالحجارة نكاية بابن الزبير »

فقطع حسن كلامه وقال : «أعوذ بالله ! أيرمون بيت الله بالحجارة ؟ »

فقال : « هذا عمل الحجاج فانه رجل ظالم لا يبالى شيئا فى سبيل مقاصده ، فقد رأيناه يرمى الكعبة بالمنجنيق والناس يطوفون حولها . واتفق فى الحجة الماضية ان عبد الله بن عمر حج ، وكان مولاى الامام محمد فى جملة الحجاج ، فكنا نطوف والحجارة تتساقط علينا ، فبعث ابن عمر الى الحجاج يقول له : (اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فانك فى شهر حرام وبلد حرام ، وقد قدمت وفود الله من أقطار

الارض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرا ، وان المنجنيق قد منعهم من الطواف والسعي) . فلما فرغوا من طواف الزيارة نادي منادى الحجاج : (انصرفوا الى بلادكم فانا نعود الى رمي الحجارة على ابن الزبير الملحد) . وسمعت انه اول ما رمى الكعبة بالمنجنيق أرعدت السماء وابرقت وعلا صوت الرعد على الحجارة ، فأعظم رجاله الأمر وامسكوا أيديهم . فأخذ الحجاج حجارة المنجنيق بيده فوضعها فيه ورمى بها معهم . فلما أصبحوا جاءت الصواعق فقتلت من اصحابه اثنى عشر رجلا فقال الحجاج لرجاله : (يا اهل الشام لا تنكروا هذا . فاني ابن تهامة وهذه صواعقها . وهذا الفتح قد حضر فأبشروا) . فلما كان الغد جاءت الصاعقة فأصابت نفرا من أصحاب ابن الزبير ، فقال الحجاج : (الا ترون انهم يصابون وانتم على الطاعة وهم على خلافها) . . »

فعجب حسن لدهاء الحجاج وعتوه وساق جمله حتى نزلوا اسواق مكة فقال لسعيد : « لقد بلغنا مأمننا ، فاذا رأيت الرجوع فارجع جزاك الله خيرا »

فقال : « بل أوصلكما الى المسجد فأطوف طوفة واعود »

. ولما دنوا من المسجد سمعوا صدمة قوية فقال سعيد : « هذا صوت حجر من حجارة المنجنيق وقع على جدار الكعبة . انظر الى حمام الحرم كيف تطاير اجفالا من صوت وقوعه »

وكان حسن قد احس بالجوع لانهم خرجوا من الشعب ولم يأكلوا ، فقال لسعيد : « بالله الا اخذتنا الى احد باعة الأطعمة فنأكل شيئا » . فضحك سعيد وقال : « ان الاطعمة قليلة في مكة والناس في ضنك شديد من الجوع ، فقد بيعت الدجاجة بعشرة دراهم ، والمد من الذرة بعشرين درهما ، وقد سمعت أن ابن الزبير اضطر لما أصاب رجاله من المجاعة ان يذبح فرسه ويقسم لحمها فيهم » . قال ذلك وادنى فمه من اذن حسن وقال بصوت منخفض : « ولكنني اعلم ان بيوت ابن الزبير مملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا اختزنهاخوف المجاعة ، ولولا ذلك لما استطاع الصبر على هذا الحصار ، والحجاج ورجاله ينتظرون فراغ ما عنده من المؤونة ليستسلم »

فقال حسن : « لابد من ابتياع شيء نأكله ولو كان غاليا » . واشار الى بلال فانصرف الى السوق وعاد بشيء من خبز الشعير والسويق فأكلوا على عجل ، وساروا حتى اتوا المسجد الحرام ، فدخل حسن وسعيد الى المسجد وهما يتظاهران بالرغبة في الطواف ، ثم سأل حسن عن ابن الزبير فقيل له : « انه يصلي بجانب الكعبة » . فسأل :

« واين يذهب بعد الصلاة ؟ » . فقالوا : « انه يذهب الى بيته » . ثم دله سعيد على بيت ابن الزبير وودعه وعاد الى الشعب

وبعد ان صلى حسن ركعتين وطلب الى الله ان يرشده الى الصواب، جلس فى بعض اطراف المسجد ينتظر فراغ عبد الله من صلاته ، وجعل يفكر فى أمر المهمة التي جاء لاجلها ، والوقت ليس وقت خطبة ولا زواج . ثم تذكر ما كان من امر سمية وانتظارها رجوعه ليقترنا . وانتقل به التفكير الى ما كان من امر عرفجة فى ذلك الصباح ، وخيل اليه ان الفشل الذى اصابه سيحمله على العودة الى المدينة لانه لا يستطيع الغياب عنها طويلا وليس عند سمية أحد ، ولعله يعدل بعد ذلك عن رفضه تزويجها له

ولاحظ ان من يدخلون المسجد قليلون ، ثم ما لبث ان سمع قرقعة واحس شيئا هوى بالقرب منه وسمع رفرفة اطيار فالتفت فرأى حجرا كبيرا اصاب الكعبة وسقط على الارض ، فعلم انه من احجار المنجنيق وقد اجفل حمام الحرم من وقعه فتطاير ثم عاد فوقع على جوانبها وعلى جدران المسجد . ولم ير النـاس يهتمون لتلك الحجارة لانهم الفوا سقوطها بينهم

وتذكر ان عبد الله يصلي بجوار الكعبة فاستغرب تعريضه نفسه لحجارة المنجنيق . وخاف ان يكون ذلك الحجر قد اصابه ولا سيما ان وقت صلاته طال . فقلق عليه ، ونهض فسار فى فناء المسجد يلتمس الكعبة حتى مر بالحطيم وحجر اسماعيل، ودار نحو بئر زمزم فرأى وراء الكعبة من الجهة الاخرى بضعة رجال وقوفا . فأقبل عليهم ليسألهم عن عبـد الله ، فلما دنا منهم راى بجانب الكعبة رجلا ساجدا قد استقبل الارض بوجهه ، ورأى على ظهره حمامتين من حمام المسجد كأنهما واقفتان على حائط والرجل لا يتحرك . فخيل له انه ميت ، واستغرب وقوف الناس هناك دون أن يهتموا له . فاقترب من أحدهم وحياه ، وسأله ما شأن ذلك الساجد ، فابتسم الرجل وقال : « الا تعرف من هو ؟ انه امير المؤمنين »

فأدرك حسن انه عبد الله بن الزبير وزاد استغرابا وقال : « وما للحمام يقع على ظهره فلا يتحرك »

قال : « انك غريب فيما يبـدو ، فلا تعلم ان مولانا أمير المؤمنـين أكثر الناس صلاة وسجودا ، وكثيرا ما رأينا الطير على ظهره فى أثناء الصلاة تظنه حائطا لسكونه وطول سجوده »

فقال حسن : « انه سجود طويل »

وجاء رجل آخر كان واقفا هناك وقال : « انكم لاتعلمون من تقوى

امير المؤمنين الا قليلا . اما انا فقد صحبته طويلا فرايته يقضى لياليه على ثلاث : ليلة يقضيهـا قائما الى الصباح ، وليلة راكعا ، وليـلة ساجدا . ناهيك بصومه فانه يصوم الدهر كله الا ثلاثة ايام يفطرها فى كل شهر »

فدهش حسن وقال فى نفسه : « يجدر بمن كان هكذا ان يكتب له النصر »

وفيما هم وقوف سمعوا صوتا كهزيم الرعد، ادركوا انه صوت المنجنيق فتنافروا ووقع الحجر على حائط الكعبة وسقط الى الارض بجانب ابن الزبير فنفر الحمام عنه وهو لا يزال ساكنا لا يتحرك ، فذهل حسن وقال لصاحبه : « الا تخافون على حياة امير المؤمنين ؟ »

قال : « لقد طالما نبهناه الى ذلك وكثيرا ما وقع له مثل ما تراه وهو لا يبالى »

فقال حسن : « ارجو ان يحرسه الله »

فقال الرجل : « ان الله حارسه لفرط تقواه وكثرة عبادته ، وقد وقع هنا فى العام الماضى سيل طبق البيت ومنع الناس من الطواف فطاف امير المؤمنين سابحا ! »



فشل ابن الزبير

تأمل حسن فى وجه مخاطبه وهو يتكلم والاهتمام باد فى محياه لا يدرى بماذا يعبر عن منزلة ابن الزبير عنده ولا مقدار حبه له ، ورآه موجها نفسه اليه كأنما يتوقع أن يسأله عن ابن الزبير ليشرح له ما يعلمه من تقواه وشجاعته وصدق دعوته . قرأ حسن كل ذلك فى عينى الرجل فأدرك انه من أشد انصار ابن الزبير غيرة عليه ، وتبين له من قيافته وهندامه أنه من وجهائهم . وزاد اعتقادا فى وجاهته لما آنسه من لطفه ودعته ، لأن الانسان يزداد لطفا ووداعة بازدياد منزلته رفعة ، فاذا رأيت جفاء وكبرياء من أحد الناس وانت لا تعرفه فاعلم انه دنىء الطبع ولا عبرة بما قد يكسوه من اللباس الفاخر ، ولا بما فى خزائنه من الاموال الطائلة

وبينما حسن يفكر فى ذلك ومخاطبه واقف الى جانبه ، سمعا عبد الله ينادى : « اين ابن صفوان ؟ » . ثم رأى الرجل الذى كان يخاطبه بغت وأسرع الى عبد الله يقول : « لبيك يا أمير المؤمنين »

ففهم حسن انه عبد الله بن صفوان الجمحى ، وكان قد سمع عن حبه لابن الزبير وتفانيه فى نصرته ، وهو أصلع فى نحو الستين من عمره ، عريض الجبهة خشن الملامح عريض الفكين ، مما يدل على الثبات والقوة . ثم التفت حسن الى ابن الزبير وتهيأ للسلام عليه اذا مر بجانبه فاذا هو طويل القامة عريض الكتفين لحيته غزيرة فى أسفل ذقنه خفيفة فى عارضيه . وتفرس فيه وهو يصلح عمامته عند نهوضه من الصلاة فرأى شعره جمة مفروقة طويلة . وتأمل فى وجهه فرأى الهرم قد بدا فى ملامحه لفرط ما قاساه من أمر ذلك الحصار وشدة ما أحاط به من الضيق ، وهو فى الثالثة والسبعين من عمره ، لأنه أول مولود ولد للمسلمين بعد الهجرة

وهم حسن بالسلام عليه وتقبيل يده ، ولكنه رآه اتجه الى موضع آخر دون ان يلتفت الى احد ، واعجب بمشيته الثابتة التى تدل على جلال ووقار ، ورأى ابن صفوان يسير فى أثره مراعيا اياه بعينيه وكل جوارحه ، وفى مشيته عرج ، فعلم انهما سائران الى البيت ، فاقتفى اثرهما وهو يفكر فى مخاطبة عبد الله بالامر الذى جاء من أجله لكنه تهيب

واستحيى لما رآه فيه من الاضطراب والضيق ، ورأى ان يتحين لذلك فرصة أخرى

وخرج عبد الله من المسجد وابن صفوان يتبعه وحسن فى اثرهما . وكان الناس يقفون فى الطريق لتحية عبد الله . حتى اشرفوا على دار واسعة قد غصت بالواقفين من الناس . وخارجها مرابط الخيول والمعالف . فلما أقبل عبد الله على الدار توجهت ابصار الناس اليه ووسعوا له ، فاخترق الصفوف وهو مطرق حتى اشرف على مقعد فى صدر القاعة فجلس عليه الاربعاء ، وجلس الى يمينه شاب كبير الشبه به ، فأدرك حسن انه احد أولاده ، ثم جاء شابان آخران فجلسا عن يساره. وجلس بقية القوم بين يديه لا يفوه احدهم بكلمة لفرط ما احاط بهم من الامر العظيم . ولبثوا هنيهة كأن على رؤوسهم الطير . اما حسن فرأى نفسه غريبا بين هذه الجموع ، وهم بالخروج فرأى ابن صفوان يشير اليه من بعض جوانب القاعة داعيا اياه الى الدخول ، فمشى اليه وجلس الى جانبه وقال له : « يسرني انى عرفتك اليوم وقد طالما سمعت باسمك » . فقال ابن صفوان : « فهلا انتسبت لأعرفك انا ايضا »

قال : « سأطلعك على امرى فيما بعد ، فلا غنى لى عن معونتك »

وكانا يتكلمان همسا والناس سكوت ، وربما ادرك احدهم السعال فأمسك عنه . فالتفت حسن الى ابن صفوان وقال له : « اى ابناء امير المؤمنين هؤلاء ؟ »

قال : « ان الذى تراه الى يمينه هو اخوه عروة بن الزبير . اما الجالسان الى يساره فولداه حمزة وحبيب ، وترى على مقربة منهما شابا مطرقا هو الزبير ولده الثالث ، وان هذا الشاب لجدير بأن يكون ابن امير المؤمنين » . ثم تهيأ للنهوض قائلا : « لابد لى من مفارقتك الآن لامر يدعو الى ذلك ، فانا فى مجلس ذى بال اليوم ، وستسمع وترى فان هؤلاء من قريش وهم رؤساء القبائل » . ثم سار حتى وقف على مقربة من عبد الله فأشار اليه عبد الله ان يقعد

وبعد قليل ، وقف احد الجالسين وخاطب عبد الله قائلا : « يا امير المؤمنين ، اننا بحمد الله نؤمن بصدق دعوتك وانك على الحق . وقد قاتلنا معك حتى لانجد مقيلا ، ولئن صبرنا معك مانزيد على ان نموت . وانما هى احدى خصلتين ، اما ان تأذن لنا فناخذ الامان لأنفسنا ، واما ان تأذن لنا فنخرج »

فلما سمع حسن ذلك الكلام تحقق ضعف القوم وانهم صائرون الى الفشل . ثم سمع ابن الزبير يقول : « الم تبايعونى على انفسكم واموالكم ؟ »

فقال الرجل : « بلى ولكنا نرجو ان تقيلنا بيعتنـــا ، اذ لانرى فائدة من البقاء عليها »

فقال عبد الله : « انني عاهدت الله على الا يبايعني احد فاقيله بيعته الا ابن صفوان »

فالتفت حسن الى ابن صفوان فرآه قد وقف بغتة والحمية والغيرة تنبعثان من عينيه وقد ظهر التأثر في وجهه وقال : « اما انا فانى اقاتل معك حتى اموت ولا اسلمك فى مثل هذه الحالة »

ولم يتم ابن صفوان قوله حتى علت الاصــوات وضــج النـــاس ، وانقسموا شيعا واحزابا ، وبدا ان اكثرهم لايرون راى ابن صفوان . فشق ذلك على حســن ودبت الحميـــة فى عروقه فوقف وقال : « بورك فيك يا ابن صـــفوان ، بورك فى رجل بايع وثبت على بيعتـــه ، ان امير المؤمنين كما تعلمون اولى الناس بهذا الامر ، وذلك لان عثمان استخلفه على داره يوم مقتله فهو ولى عهده من ذلك اليوم . وانكم لتعلمون انه نعم الخليفة لاتغره بهارج الدنيا . الا ترون عبـــد الملك بن مروان كيف يستعين على هذا الامر بالمال والرجال ؟ فى حين يستعين امير المؤمنين بالصوم والصلاة . تلك هى خلافة الراشـــدين رحمهم الله اجمعين . الم تسمعوا ماذا فعل عبـــد الملك يوم جاءه الخبر بالبيعة بعد موت ابيـــه مروان ؟. انتم تعلمون انعبد الملككانمن فقهاء المدينة ، ولكثرة ماكان يظهره من التدين والتقوى سموه حمامة المسجد . فلما مات ابوه وبشر بالخلافة كانالمصحف فى يده فاطبقه وقال : (هذا فراق بيني وبينك !) . فاين هذا من سجود امير المؤمنين وصـــلاته وصيامه مما لايخفى على احد . هذا وان لأميرالمؤمنين بيعة فى اعناقكم ، وانتم جماعة قريشاهل الحماسة والنخوة ، فكيف تغادرون امير المؤمنين فى مثل هذه الحال ؟. اما لكم اسوة بابن صفوان ؟ »

وكان حسن يتكلم والعرق يتصبب من جبينـــه وقد امتقـــع لونه وايقن ان القوم قد نكصوا على أعقابهم . ولكنه لم يستطع غير الانتصار لما رآه حقا. وكانت الابصارشاخصة اليه لانهغريب لم يعرفه أحدهم . وكان عبـــد الله ابن الزبير ينظر اليه ويعجب بغيرته . فلمـــا فرغ من الكلام علت الضوضاء فوقف رجل آخر وقال : « لقد نطقت بالصواب، وان البيعـــة فى اعناقنـــا لاننكرها ، وما نحن خارجون من بين يديه الا بامره . ولكننا نرى القتال أصبح عبثا ، ومعنا من الرجال عشرة آلاف ، وقد جعنا جميعا وعطشنا وقلت مؤونتنا وذخيرتنا . وهذه منجنيقات الحجاج ترمينا من فوق الكعبة لايبالى حرمة هذا البيت . وقد نصب لنا الحجاج الآن راية الامان فمن خرج اليها سلم . فما بالنـــا لا نختار

الطريق الاسلم » . ثم التفت الرجل الى عبد الله بن الزبير وقال : « اكتب الى عبد الملك بن مروان لترى رايه فلعلكما تنتهيان الى امر فيه صلاح الحال »

فلما سمع عبد الله اسم عبد الملك بن مروان اجفل وتغير وجهه وقال : « كيف أكتب اليه ؟ . . ابدا بنفسي او ابدا به . االكتب (من عبد الله امير المؤمنين الى عبد الملك بن مروان ؟) . فوالله لايقبل هذا ابدا . ام اكتب (لعبد الملك بن مروان امير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ؟) . فوالله لان تقع الخضراء على الغبراء احب الى من ذلك » . قال ذلك وعاد الى اطراقه ، وسكت الناس ينتظرون رأيا جديدا فاذا بعروة بن الزبير اخى عبد الله التفت اليه وهو جالس بجانبه على المقعد وقال له : « يا امير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة »

فقال عبد الله وقد ظهر الغضب فى جبينه : « من هو ؟ »

قال عروة : « حسن بن على ، فانه خلع نفسه وبايع معاوية » . ولم يتم عروة قوله حتى رفع عبد الله رجله وضربه بها حتى القاه عن المقعد . فاجفل الناس من سقوط عروة واعظموا غضب عبد الله فتهيبوا ، ثم سمعوه يقول له : « ياعروة . والله لو قبلت مايقولون ماعشت الا قليلا ولا اخذت الا الدنية . وان ضربة بسيف فى عز لخير من لطمة فى ذل » . ثم وقف والتفت الى الجموع ولحيته ترقص فى وجهه من شدة التأثر وقال لهم : « انتم مخيرون فافعلوا ماتشاءون ، وان رجلا يجر الى الحرب بحبل لايحارب ، وان الله وليي ونعم النصير » . قال ذلك واراد الانصراف . فوقف ولداه حمزة وحبيب وقالا : « هل نحن مخيران ايضا ؟ »

فعجب حسن لما سمعه وقال فى نفسه : « حتى اولاده تخلوا عنه » . والتفت الى عبد الله فرآه ينظر اليهما وعيناه تلمعان بما يتجلى فيهما من الدمع ثم قال : « نعم وانتما ايضا فى حل ، امضيا واطلبا الحياة ولا تموتا » . ثم اختنق صوته فسكت ريثما ابتلع ريقه ونظر الى ابنه الثالث الزبير وقال له : « وانت يابنى اطلب لنفسك أمانا مع اخويك فوالله انى لأحب بقاءكم »

فوثب الزبير من مجلسه وقال ولم يبد على وجهه شيء من الخوف : « حاش لله ان اتخلى عنك فما كنت لأرغب بنفسى عنك »

□

انصرف عبد الله من باب يؤدى الى دار النساء ، وظل حسن واقفا يسمع مايدور بين الحاضرين . فعلم انهم اجمعوا على الخروج الى الحجاج

يلتمسون أمانه . وادرك ان اشد ما ابعدهم عن عبد الله انه يقتر عليهم ، فى حين يسخو عبد الملك على بنى امية ويبذل الاموال لمناصريه . فساءه ذلك لاعتقاده ان هؤلاء انما ارادوا الخروج رغبة فى العطاء ، وان صبر ابن الزبير لايفيده شيئا ولكن الانسان لايعيش فى هذه الدنيا عمرين وانما هى موتة فلا كانت عيشة تشرى بالشرف والمروءة

واحس حسن بيد امسكته ، فالتفت فاذا بابن صفوان يدعوه اليه فتبعه حتى دخلا حجرة بجانب تلك الدار وابن صفوان يقول : « ان امير المؤمنين يدعوك وقد احب ان يراك » . قال ذلك وتركه هناك وخرج

فسر حسن لهذه الدعوة ورآها فرصة لأداء المهمة التى جاء لأجلها ، وان كان الكلام فيها لايجدى نفعا

ثم عاد اليه ابن صفوان واشار اليه أن يتبعه ، ومضى به الى حجرة رايا عبد الله يتمشى فيها وحده وقد اخذ منه الغضب مأخذا عظيما ، وهو تارة يمسح جبهته وطورا يحك لحيته ، وآونة يشمر عن ساعده او يرسل كمه مما يدل على عظم البلبال . وتأمل حسن فى تلك الحجرة فاذا هى لاشىء فيها من الاثاث غير حصير ومقعد . فلما اقبلا عليه تقدم حسن اليه وسلم بالخلافة فرحب به ودعاه الى الجلوس على المقعد ، فلم ير الجلوس وابن الزبير واقف ، فألح عليه هذا بالجلوس وقال : « دعنى واقفا وساجلس بعد هنيهة »

فجلس حسن وبقى ابن صفوان واقفا مكانه يراعى عبد الله ويراقب حركاته ولا يتكلم

ثم التفت عبد الله الى حسن وقال : « من اين قدمت ؟ »

قال : « من الشام »

فبغت عبد الله عند سماع اسم الشام لان فيها أعداءه ومناظريه ، والتفت الى ابن صفوان كأنه يطلب مشاركته فى الاستغراب فرآه لايقل عنه استغرابا ، فقال عبد الله : « وما الذى جاء بك الينا ونحن فى هذه الحال . لعلك جاسوس ؟ »

قال : «معاذ الله يامولاى! . كيف اكون جاسوسا وافعل مافعلته اليوم؟»

فجلس عبد الله على جانب المقعد وامر ابن صفوان بالجلوس فجلس . ثم قال عبد الله : « لا غرابة فيما ظهر منك ان كنت جاسوسا ، لأن الجواسيس يتلونون تلون الحرباء . على انى لا ابالى مهما يكن من أمرك فما انا ممن يستعينون بالجواسيس وانا لا اخافهم وانما استعين بالحق والعدل »

فوقف حسن وهو يقول : « العفو يا مولاى ، انى أجل نفسى عن

الجاسوسية فى هذا السبيل، وانما انا رسول اليك فى مهمة لاارى مسوغا للكلام فيها الآن »

قال : « وماذا تعنى ؟ وكيف لامسوغ لها ؟ . قل . . لاباس مما تراه من الاحوال . من ارسلك الينا من الشام ؟. لعلك قادم من عبد الملك بنصيحة ؟ »

قال : « لايامولاى ، بل انا قادم من عند خالد بن يزيد بن معاوية »

قال : « وهو ايضا اموى ، وشأنه عندنا مثل شأن عبد الملك وان يكن اعرف منه بالكيمياء والشعر وما الى ذلك »

فقال حسن : « ماكنت احسب الحقيقة تخفى على مولاى امير المؤمنين فانها عكس ذلك على خط مستقيم »

قال : « كيف يكون هذا وكلاهما اموى وقد اتحدا علينا وقاما لحربنا ؟ »

قال : « اما الحرب فقد نصبها عبد الملك وليس خالد . ولو عرفت مابينهما من الدخائل لتحققت ان خالدا ارغب فى بيعة امير المؤمنين من آل العوام انفسهم »

فقال عبد الله وهو يبتسم ابتسامة الاستخفاف : « وكيف يكون ذلك وهو ابن يزيد الذى امر بحصار هذا البيت وقاتلنا حتى هدم الكعبة بمنجنيقاته ثم احترقت واعدنا بناءها ؟ »

فقال حسن : « صدقت يامولاى انه ابن يزيد بن معاوية ، ولكن لايخفى عليك انه لما مات يزيد كان الحصين بن النمير لايزال محاصرا البيت الحرام وانتم فيه ، وهو لايعلم بموت خليفته يزيد ، وقيل انكم عرفتم بموته قبله ، واذا صح ما سمعته عما دار بينكم وبينه فى شأن الخلافة »

فقطع عبد الله كلامه وقال : « اظنك تعنى انه عرض على البيعة بعد موت يزيد ؟ »

قال حسن : « نعم يامولاى ذلك ما اعنيه ، ولو انك اجبته الى هذه البيعة لما كان على منصة الخلافة سواك »

فتقطب حاجبا عبدالله بغتة كأنه تذكر امرا يؤلمه ذكره وقال : « ولكنه اراد ان اذهب معه الى الشام ، وابى الا ان تكون البيعة هناك »

قال : « وما منع مولاى ان يذهب الى الشام ، انك لو ذهبت معه اليها وقربته منك لم يختلف عليك أحد »

فاسرع عبدالله فى قطع الكلام لانه لايحب ان يتذكر الخطأ الذى ارتكبه فى ذلك ولولاه لكان بنو العوام خلفاء الاسلام بدل بنى امية لشدة

اضطراب حال بنى امية فى ذلك الحين . وقال لحسن : « ثم ماذا ؟ . اوصلنا الى حديث خالد »

قال : « لما مات يزيد بايع اهل الشام ابنه معاوية (الثانى) كما تعلمون وهذا لم يكن يرى لبنى امية حقا فى الخلافة كما صرح جهارا فى خطابه بعد ان تولاها بأربعين يوما . فانه امر فنودى : (الصلاة جامعة) . فلما اجتمع النـاس وقف فحمد الله واثنى عليه ثم قال : (اما بعد ، فانى ضعفت عن امركم . فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه ابو بكر فلم اجده . فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم اجدهم ، فأنتم اولى بأمركمُ فاختاروا . ماكنت لأتزودها ميتا وما استمتعت بها حيا) . ثم دخل داره وتغيب حتى مات . فلما مات معاوية هذا اختلف الناس فيمن يولونه . واضطربت الاحوال حتى آل الامر الى مبايعة مروان بن الحكم لانه اكبر بنى امية سنا . وكلنا نعلم شأن هذا الرجل فى امر عثمان وكيف انه قد اوقد جذوة تلك الفتنة التى لم نتخلص من عواقبها الى اليوم. وهكذا تولى الخلافة مروان دون خالد بن يزيد الذى كان احق بها منه ، بحكم نظام الوراثة الذى وضعه جده معاوية . على ان بنى سفيان لم يرضوا ببيعته حتى عاهدهم على انه يجعل الخلافة بعده لخالد . فلما تولاها مروان حدثتـه نفسه ان يخرجها من نسل معاوية الى نسله ، فتزوج ام خالد حتى تصغر نفس خالد عن طلب الخلافة . واتفق بعد بضعة اشهر أن مروان ناظر خالدا فى شأن وشتمه واهان امه ، فخرج خالد الى امه واطلعها على ماكان فقالت له : (دعه فانه لايقولها بعد اليوم) . وفى المساء جاءها مروان وسألها : (هل اخبرك خالد بما جرى بيننا) . فقالت : (يا امير المؤمنين ، خالد اشد تعظيما لك من أن يذكر لى خبرا جرى بينك وبينه) . فلما امسى المساء وضعت مرفقة على وجهه وقعدت عليها هى وجواريها حتى مات ولم يتم السنة فى خلافته ، والناس يظنونه مات حتف انفه . فخلفه ابنه عبد الملك وهو يعلم بالامر ، ولكنه خشى اذا انتقم لأبيه أن يفتضح امره ويقال ان امرأة قتلته . فظل حاقدا على خالد ، وظل خالد ينظر اليه نظره الى مختلس . ولهذا قلت لمولاى امير المؤمنين ان خالدا أرغب من آل العوام فى خلافتك »

☐

لما فرغ حسن من كلامه ، اطرق عبد الله طويلا ، وشعر حسن وابن صفوان بما يجول فى خاطره فى اثناء ذلك الصمت الطويل . ثم رفع راسه بغتة ونظر الى حسن وقال : « لقد فات الوقت ، ما يقدره الله

فهو كائن . على انى ما اظن خـالدا يرضى بخروج هـذا الامر من بنى أعمامه الى رجل حاربه ابوه عليه . ولا ارى ثمة مسوغا لذلك » . ثم استدرك فقال : « ولكنك لم تذكر بعد ما هو الامر الذى جئت لأجله ؟»

فقال حسن : « انه أمر لايستحسن الخوض فيه الآن ! »

قال : « بل قل »

قال : « لقد بعثنى خالد الى امير المؤمنين خاطبا »

قال : « من ؟ ولمن ؟ »

قال : « مولاتى رملة اخت امير المؤمنين ، الى مولاى خالد بن يزيد . وقد كتب بذلك كتابا فقدته فى المدينة لسبب يطول شرحه »

فوقع الطلب موقع الاستغراب عند عبد الله لما بينه وبين بنى امية . على انه لما تذكر ماسمعه من حسن مال الى تصديق الامر ، وان بقى مرتابا فى حقيقه مهمتـه ، فقال له : « اذا كان خالد كما وصفت فانى أرحب بمصاهرته ، وكنت اود الاطلاع على كتابه . وليس هناك مايدعو الى العجلة والحال على ماترى . فلنصبر حتى يقضى الله بيننا وبين هذا الطاغية الذى يرمى بمنجنيقاته بيت الله ولا يخاف عقابا »

فقال حسن : « ذلك مادعانى الى التردد فى تبليغ الرسالة . ولكن يكفينى ماعلمته من رضاكم ، رغم انى لا احمل كتاب خالد . وسأكتب اليه لأطمئنه بالقبول ولكى يرسل كتابا آخر فى هـذا الشأن . ثم انى اعرض على مولاى ان أكون فى خدمتـه لعلى استطيـع امرا يكون فيه مصلحة له . فهل ترى ان اذهب الى الحجاج فأكلمه فى شأن الهدنة او الصلح فربما كان لكلامى وقع عنده لأنى أعد من انصار بنى اميـة فلا يرتاب فى اخلاصى ؟ »

فقطع عبـد الله كلامه وقال : « لا . . لا . . دعهم وما يفعلون ، انى لا اريد وساطة لدى عبـد ثقيف » . قال ذلك ووقف ، فوقف حسن وحياه ثم انصرف من غير الباب الذى دخل منه ، وكان الليل قد أرخى نقابه فتبعه ابن صفوان وناداه قائلا : « رويدك يا اخا العرب »

فوقف حسن حتى اقترب ابن صفوان منه ، فامسك هـذا بيـده وادنى فمه من اذنه وقال همسا : « تعال معى »

فمشى معه حتى دخـلا دارا بجانب دار ابن الزبير ، فأدخـله غرفة خالية وقال له : « سـمعتك تعرض على امير المؤمنين التوسـط لدى الحجاج فى المهادنة او نحوها ، وامير المؤمنين لم يقبـل ذلك انفة منه . ولكننى اعلم ما نحن فيه من الضنك . وان المهادنة تفيدنا فى لم شعثنا لاننا قد تشتتنا . لا اقول ذلك خوفا من الموت فاننا لارغبة لنا فى هذه الحياة ، وانما نحن نطلب الآخرة وبنو امية يريدون هـذه الحياة الفانية

ويسفكون الدماء من اجلها . فاذا رايت ان تقوم بهذه المهمة فافعل »
قال : « سأسعى فى ذلك جهدى ، ولعلى أوفق الى مافيه الخير ان شاء الله »
فقال ابن صفوان : « انزل الآن فى دار الاضياف اذا شئت . او انزل فى دارى »
فقال حسن : « بل أنزل فى دار الاضياف ريثما ادبر الامر »
قال : « ولكن الليل ادركنا ، فامكث عندنا الليلة ، فاذا أصبحنا خرجت الى حيث تريد »
فتذكر حسن بلالا والجمل ، وكان قد تركهما بباب المسجد فقال : « ان خادمى ينتظرنى بباب المسجد والجمل معه ، وأخاف ان يستبطئنى فيظن أن قد مسنى سوء »
فقال ابن صفوان : « انه اذا استبطأك ، فسينام حيث هو ، وفى الغد نراه »
فأطاعه حسن وبات عنده . وقضى معظم الليل يفكر فى امر ابن الزبير وفى مسيره الى الحجاج ، ثم ادركه النوم فرأى فى منامه انه لقى الحجاج وجادله فى امر الكعبة وكيف يرميها بالمنجنيق ، فسمع من الحجاج كلاما غليظا ، فأفاق فى الصباح وهو منقبض النفس
ثم جاءه ابن صفوان بالطعام فأكل ، وعرض عليه أن يسير معه الى بيت الاضياف فقال حسن : « ارى أن أبحث عن الخادم والجمل »
فقال لاخوف عليهما ، هلم بنا الى دار الاضياف لتعرفها فانها بجانب بيت امير المؤمنين ، ثم تذهب بعدئذ الى حيث تشاء »

□

سار ابن صفوان مع حسن حتى ادخله دار الاضياف ، واتجه هو الى بيت عبد الله . ورأى حسن فى الدار اناسا لم يعرف احدا منهم ، فجعل يتفرس فى الوجوه لعله يرى خادمه بينهم ، فلما لم يجده هم بالخروج الى مواقف الدواب عسى ان يجده مع جمله هناك ، ثم رأى بلالا مقبلا والبغتة بادية فى وجهه وعيناه شائعتان كأنه يفتش عن ضائع ، وما كاد بلال يراه حتى سارع اليه وقال : « اين كنت يامولاى . ان سيدى ابا سليمان يبحث عنك »
فبغت حسن لذكر ابى سليمان لعلمه انه فارقه فى المدينة وقد عهد اليه فى تنسم اخبار سمية ، فقلق لمجيئه ونهض وقال : « اين هو ؟ »
قال : « تركته فى المسجد وجئت للبحث عنك ، فهل ادعوه اليك ؟ »

قال : « بل اذهب انا اليه » . وهم بالخروج فراى اهل الدار فى هرج ومرج يزاحم بعضهم بعضا كانهم يوسعون الطريق لقادم عظيم، فوقف مع الواقفين وسأل احدهم عن القادم ، فقال له : « ان ذات النطاقين قادمة الى دار الاضياف »

فعلم انها اسماء بنت ابى بكر ، ام عبد الله بن الزبير ، وكان يحسبها قد ماتت لكبر سنها لانها ولدت قبل الهجرة بنسبع وعشرين سنة . فهى يومئذ قد بلغت المائة من عمرها . وكانت مشهورة بكبر العقل وسعة الصدر وصحة الدين . فاحب ان يراها فجعل يتطاول حتى اقبلت فاذا هى قد احدودب ظهرها وعميت ، وجاءت تتوكأ على عكاز ، وبجانبها رجل يسندها ويرشدها الى الطريق . وراى الناس يدنون منها ويقبلون اطراف ثوبها تبركا بها ، حتى اذا اقبلت على موقف خدم الدار قالت لهم : « خافوا الله ولا تبخلوا على عباده بالطعام وان كان قليلا فى الاسواق فان الله كفيل بطعام الغد »

فعجب حسن لاهتمام ام الخليفة بامر الاضياف على عجزها وضعفها ، ولكنه تذكر مايقال عن بخل ابنها عبد الله فظنها جاءت تحث الخدم على اكرام الضيوف لاعتقادها ان ذلك يدفع البلاء عن اهلها . ولاشك فى انها كانت قلقة على ابنها عبد الله لعلمها بما يتهدده من الخطر العظيم

وبعد ان مر موكب ذات النطاقين ، خرج حسن ومعه بلال وسارا الى المسجد ، وسارع حسن الى لقاء ابى سليمان . فحياه وقال : « ما وراءك ياعماه ؟ »

قال : « ان ما ورائى ذو بال يابنى »

فبغت حسن وقال : « وما هو ؟ . قل ياعماه . هل اصاب سمية سوء ؟ »

قال : « لم يصبها سوء ولكنها جاءت الى مكة »

قال حسن : « جاءت الى هنا ؟ . واين هى ؟ »

قال : « اصبر ريثما نجلس فى بعض جوانب المسجد على انفراد واقص عليك الخبر » . وكان المسجد خاليا من الناس خوفا من حجارة المنجنيق ، فانتحيا ركنا فيه . وحسن فى قلق شديد فلما جلسا قال : « قل ياعماه اين سمية الآن فقد نفد صبرى . وكيف جاءت مكة ؟ »

قال : « انها جاءت مكة ، ولكنها الآن خارجها »

فانتبه حسن وقال : « لعلها عند الحجاج ؟ »

قال : « نعم يابنى انها عنده »

فصاح وهو لايعى مايقول وما فى المسجد من يسمعه غير ابى سليمان : « وكيف كان ذلك ؟ افصح بالله »

قال : « اخذها زوجة له ، لان اباها عرفجة زفها اليه يوم سفرك ، وارسلها مع الحملة التى بعث الحجاج يطلبهـا من طارق بن عمرو عامل المدينة »

فلما سمع حسن ذلك اطرق كانه اصيب بذهول ، وتذكر انه شاهد تلك الحملة بالامس مارة قرب مكة ومعها هودج يحرسه فارسان فارتعدت فرائصه وهز راسه وقال : « اعوذبالله !. الرى سمية تساق الى الحجاج وابقى واقفا انظر الى هودجها ولا انقذها ؟ . ولكننى لم اعرفها ولابد من انقاذها من يد ذلك الظالم ، ومن يد ابيها الخائن الغادر قبحه الله » . ثم التفت الى ابى سليمان وقال : « وهل سيقت الى الحجاج برضاها ؟ »

فقال ابو سليمان : « ما اظنها الا سيقت مرغمة. فقدعلمت ان اباها احتال فى اخراجها من المنزل الى ضواحى المدينة وسلمها للجند المعسكرين هناك »

قال حسن : « اذن هى الآن امامنا فى هذه الخيام قرب جبل ابى قبيس . لابد لى من الذهاب اليها ، فاما ان انقذها اواموت فى سبيلها »

فقال ابو سليمان : « اعلم يابنى انى رهين اشارتك وقدقلت لك انى وقفت حياتى على خدمتك ، فاذا رايت ان تبعثنى فى شأنها فافعل »

فصمت حسن مفكرا ثم قال : « اننى احتاج اليك ياعماه فى ابلاغ رسالة الى مكان بعيد »

قال : « انى على استعداد للذهاب الى السند فى خدمتك »

قال : « لا . . بل الى الشام ، الى خالد بن يزيد ، فهل تقبل ؟ »

قال : « افعل ان شاء الله ، اين الرسالة ؟ »

قال : « اكتبها اليه الآن وهى خاصة بالمهمة التى جئت لأجلها »

قال : « اكتب وانا بين يديك »

فأخرج حسن من جيبه منديلا من القباطى (نسيج مصرى) وكان قد اعد دواة وقلما فى جيبه لمثل هذه الغاية . وجلس على حجر بجانب احدى عضادات المسجد فكتب اسطرا قال فيها :

« الى خالد بن يزيد من حسن . اما بعد فقدجئت البيت الحرام بعد ان مررت بالمدينة واضعت فيها كتابك ، ولهذا حديث سأقصه عليك عند اللقاء . على انى واصلت السفر الى مكة ولقيت ابن الزبير وأبلغته الامر خلال اشتغاله بالحصار وضيق ماحوله ، فأجاب بالرضاء . ولكنه رأى ان تبعث اليه بكتاب آخر فى هذا الشأن ، فاذا شئت فافعل ، وابعث الكتاب مع حامل هذا اليك ، وانا باق هنا لأمر يهمنى كثيرا ،

والسلام عليكم ورحمة الله »

ثم سلم الكتاب الى ابي سليمان وقال له : « امض على عجل، واحذر ان يعترضك الحراس حول مكة »

قال : « لقد دخلت ولم ينالوا مني مأربا ، وسأترك بلالا في خدمتك لعلك تحتاج اليه في شيء »

فأثنى عليه وودعه ، وعاد الى ماكان فيه من الاهتمام بأمر سمية ، فرأى ان يذهب الى معسكر الحجاج يبحث عنها ويستطلع خبرها . وكان كلما فكر في الامر، وتصور انها زفت الى الحجاج ، اضطرب وثارت اشجانه واشتد قلقه ، حتى لم يعد يستطيع صبرا فعزم على الذهاب الى معسكر الحجاج بحجة انه مندوب من قبل ابن الزبير للمخابرة في شأن وقف الحرب، ولكنه لم ير بدا من استشارة ابن صفوان لئلا يغضب ابن الزبير . فنهض لساعته واسرع الى بيت ابن صفوان فلم يجده ، فالتمسه في دار ابن الزبير ، فلم يجد احدا في القاعة التي كان الاجتماع فيها بالامس ، وبينما هو مار بالقرب من مرابط الخيل والجمال وبينها الخدم والجمالة وقع نظره على رجل كان في خدمة ليلى الاخيلية ، فتوسم فيه الخير وناداه وقال له : « ما الذي جاء بك الى هذا المكان ؟ »

قال : « جئت مع مولاتي »

قال : « ليلى هنا الآن ؟ واين هي ؟ »

قال : « هي عند امير المؤمنين في بيته ، واظنها في حجرة امه ذات النطاقين »

قال : « ومن اين اتيتم ؟ »

قال : « من معسكر الحجاج »

فاستبشر حسن بذلك الخبر لعلمه بأن ليلى لابد أن تكون قد رأت سمية هناك وسمعت منها شيئا ، فلم يعد يصبر على لقائه ليلى واخذ يتمشى خارج البيت ، وكلما سمع حركة او صوتا ظنها خارجة ، حتى مل الانتظار فعاد الى الخادم وقال له : « هل اقمتم بمعسكر الحجاج طويلا ؟ »

قال : « اقمنا يوما وليلة ، ثم رأيت مولاتي أسرعت الى مكة ، وارسل الحجاج معنا من أوصلنا اليها لئلا يعترضنا الحراس المحيطون بها »

فادرك حسن انها جاءت باشارة الحجاج فزادت رغبته في مقابلتها واستطلاع حقيقة الامر . وفيما هو يفكر في ذلك رأى ابن صفوان خارجا من الدار مهرولا . فلما تلاقت نظراتهما اقبل عليه ابن صفوان وقال : « احمد الله على اني رأيتك هنا ، فقد كنت ذاهبا للبحث عنك مخافة ان تكون قد مضيت في الامر الذي ندبت نفسك له بالامس »

قال حسن : « وماذا تعنى ؟ »

قال : « اعنى مقابلة الحجاج »

قال : « وما الذى حدث ؟ »

قال : « لقد جاءت ليلى الاخيلية من عنده ، لمثل ذلك الغرض . وقد سمعت من أمير المؤمنين انه لايرى صلحا ولا هدنة ، لأن الحجاج لايريد منه غير الاستسلام ، وهذا أمر مستحيل عندنا والموت أهون منه »

فقال حسن : « واين هى ليلى الآن ؟ »

قال : « فى دار النساء وقد نزلت عند مولاتى ذات النطاقين ، ورملة بنت الزبير عندها ايضا »

قال : « هل من سبيل الى مقابلتها ؟ »

قال : « ذلك يسير . هل أخبرها بأنك تطلب مقابلتها ؟ »

قال : « افعل »



سمية فى بيت الحجاج

دخل ابن صفوان ، ثم عاد واشار الى حسن ان يتبعه ، فدخل وراءه غرفة راى فيها ليلى وحدها فى انتظاره ، فلما اقبل عليها قالت : « اذن انت حسن حقا ؟ . كيف اذن اكدوا لى انك قتلت ؟ »

فابتسم وقال : « كدت اقتل ، ولكننى حى الآن فاخبرينى هل كنت فى معسكر الحجاج ؟ »

قالت : « نعم »

قال : « وهل رايت سمية هناك ؟ »

قالت : « نعم رأيتها »

فخفق قلبه عند سماع جوابها وعاد يسالها قائلا : « هل رأيتها حقيقة ؟ »

قالت : « رايتها وراتنى ، وكلمتها وكلمتنى ! »

قال : « بالله كيف حالها ؟ وما الذى جرى لها ؟ »

قالت : « اراك غائبا عن الدنيا ؟ الم تعلم انها حملت الى الحجاج لتزف اليه ؟ »

فلما سمع ذكر الزفاف صعد الدم الى وجهه وقال وهو يظهر التجلد : « نعم علمت ، ولكن هل زفت اليه حقا ؟ »

قالت : « زفت اليه منذ يومين ، وهى الآن فى داره مع نسائه »

قال : « فى داره مع نسائه ؟ . اذن صارت زوجة له ؟ »

قالت : « نعم »

قال : « وهل ذكرتمانى فى حديثكما ؟ »

قالت : « ذكرناك وبكينا عليك وهى التى اخبرتنى بموتك »

قال : « وهل هى آسفة على موتى ؟ »

قالت : « اما قلبها فمعك ، فهى لاتفتر عن ذكرك لحظة منذ [illegible]ها من لقائك ، لايهنأ لها العيش مع احد غيرك »

فابرقت اسرة حسن عند سماعه ذلك وقال : « اذا كان الحجاج عقد

قرانه بها كما تقولين ، ويئست من لقائي فكيف القاها ؟ »

قالت : « الحب كله رجاء ياحسن ، بل الحب يضع الرجاء في موضع اليأس »

قال : « اباقية هي على حبي ؟ »

قالت : « نعم وهي مع ذلك لاترجو لقاءك فكيف اذا علمت بأنك حي؟ فهل أنت تحبها مثل حبها لك ؟ »

قال : «كيف لا ؟ » . وهاجت اشجانه ولم يعد يستطيع صبرا على الذهاب اليها واحس انه مقصر في حق سمية ، وهان عليه أن يضحي بنفسه لانقاذها . وكلما تصور انها زفت الي الحجاج عظم الامر عليه وكادت الغيرة تحرقه ، فاطرق برهة ثم قال : « وهل زفت الى الحجاج حقيقة ؟ »

قالت : « قلت لك انها زفت اليه وهي في داره مع سائر نسائه »

قال : « أعوذ بالله ! . ولكن قلبي لايصدق انها في بيته مثل احدى نسائه . وهل يحبها هو ؟ »

قالت : « يحبها حبا شديدا ، ولم يكن يحلم بحصوله عليها لأنها لاتريده ، ولكن المقادير ساعدته فحملوها اليه قسرا »

فاضطرب وجد الدم فيعروقه وقال : « انى اطير اليها واختطفها من وسط بيته ومن بين مخالبه ! »

فقطعت ليلىكلامه وقالت : « تبصر ياحسن ، ان دون الوصول اليها عقبات لايستطاع تجاوزها الا بالحكمة »

قال : « واى حكمة ؟ كيف يمسها الحجاج وانا حي ؟. ليس في الحب حكمة . الحب شيء والحكمة شيء آخر . ان الرجل اذا احب ، خضع لقوانين الحب وحدها ، وما في الحب حكمة ولا سياسة ولا رياء »

فلما رات ليلى شدة هياجه اشفقت على حياته مما يعترضالسبيل الى سمية من الاخطار ، ولاسيما انها عند الحجاج الذى اشتهر بالظلم والجبروت. فاذا وقعحسن بين يديه فلن يعفيه من القتل، فقالت له : « انى معك في ان الحب لاسياسة فيه ولاحكمة ، ولكن المحب ينبغي أن يحرص على حياته لأجل حبيبه ، فيجب أن تحرص على حياتك لأجل سمية . تبصر في الامر يابني ، وساكون في عونك حتى تبلغ ماتريده ، فاني اعرف قيمة الحب ويسوءني ان يفرق احد بين حبيبين ، بل اني لانقم على من يسعى فيالتفريق بينهما ! » . قالت ذلك وتنهدت واشرق الدمع في عينيها

فادرك حسن انها تنطق عن احساس صادق لأنها احبت توبة

ومنعوها منه فقال : « بورك فيك ياليلى فلقد خففت من شدة بلواى ، فاشيرى على بما ترين »

فقالت : « انى وفدت على الحجاج فى معسكره : على عادتى فى الوفود على الامراء ، فرحب بى وانزلنى فى دار اعز نسائه عليه ، وهى هند بنت النعمان . ولعلك تعلم انها جميلة ذات حسب ونسب ولكنها لا تحبه ولا تحترمه ، فلقيت سمية عندها ، وتحدثت معها فى شأنك فلما انبأتنى بفقدك شق ذلك على ، واعتزمت ان استطلع خبرك فى مكة ، فعرضت على الحجاج ان آتى اليها واحاول اقناع ابن الزبير بالاستسلام ، مع انى أعلم ان استسلامه مستحيل . فلما جئت مكة علمت انك جئتها بالامس ، وخطبت رملة لخالد فقبل ابن الزبير ولكنه استمهلك ريثما تنقضى الحرب . فكان سرورى مزدوجا بسلامتك ونجاحك فى المهمة التى جئت لاجلها . وارى ان اعود الآن الى معسكر الحجاج واجعلك راويتى ، وانت تعلم ان لكل شاعر عربى راوية يرافقه فيحفظ اشعاره ويرويها عنه . والحجاج لايعرفك . فلن يخطر بباله انك مناظره على سمية ، ومتى وصلنا الى المعسكر واقمنا به ، تفكرنا فى امر سمية ، واسأل الله التوفيق »

فاستحسن حسن رايها وقال : « اذن هلم بنا الآن ، فانى لا اصبر على هذه الحال »

قالت : « اسبقنى الى المسجد ريثما اودع ذات النطاقين والحق بك»

قال : « لقد أنسانى حديث سمية استطلاع مادار بينك وبين ابن الزبير فى امر الصلح او الاستسلام »

قالت : « كنت على يقين من انه لن يقبل ، وقد رأيت امه اسماء ذات النطاقين اكثر منه تشددا ، وانى لاعجب لهذه العجوز وصبرها على المكاره فقد رايتها مع يأسها من نجاح ابنها تشجعه وتحرضه على الثبات فى دعوته . على انى وقد رايت معسكره ومعسكر الحجاج ، لا اشك فى ان ابن الزبير مغلوب ، فالفرق كبير بين المعسكرين فى العدد والعدة وكل شىء »

فابتدرها حسن قائلا : « لقد رايت بعينى اصحاب ابن الزبير واخوته واهله يتخلون عنه ، وقد نفدت قواته واقواته فالامر خارج من يديه لا محالة »

قالت : « القوة هى الغالبة ياحسن ، والخلافة صائرة الى بنى امية . لان عندهم الرجال والاموال ، وقد ساعدتهم الاقدار من كل ناحية »

فقطع حسن كلامها وقال : « ليس يهمنى الآن الا امر سمية ، وسأسبقك الى المسجد فأتهيأ للسفر » . قال ذلك وتركها وأسرع الى

المسجد ، فوجد بلالا جالسا بباب حانوت لرجل فارسي يبيع الاقمشة بجوار الصفا . فلما رآه بلال نهض وتبعه حتى دخلا المسجد ، فقص حسن عليه عزمه على الذهاب الى معسكر الحجاج واسر اليه الغرض من ذلك

فقال بلال : « الا استطيع ان اكون فى خدمتك يامولاى ؟ »

قال : « بورك فيك . ولكننى ذاهب فى مهمة لا تخلو من الخطر ، واذا انكشف امرى فيها فلن ينفعنى الرجل والرجلان ، على انى أرجو التوفيق . فابق انت هنا بضعة ايام ، فاذا لم اعد فاطلبنى فى معسكر هذا الطاغية »

تنكر حسن فى ثياب غير ثيابه ، وحمل جرابا فيه ادراج من الرق كتب فيها بعض القصائد . ثم مكث ينتظر ليلى حتى عادت وقد تلثمت وركبت جملا يقوده خادم ، فركب حسن جمله ، وسارا والخادم يمشى وراءهما حتى مروا ببيت ابن صعوان وكان واقفا بالباب فراى ليلى وعرفها ، وتفرس فى حسن فعرفه كذلك رغم تنكره ، فحياهما وقال : « الى اين ؟ » . فقال حسن : « لقد عزمت على ان ابدا السعى فى سبيل التوفيق »

فهز ابن صفوان راسه وتنهد وقال : « اسأل الله لكما السلامة »

وما لبث حسن وليلى ان ابتعدا عن بيت ابن صفوان ، وخرجا من مكة حتى لقيهما رجال الحجاج ، فعرفوا ليلى ولم يعترضوهما ، فواصلا السير حتى اقبلا على معسكر الحجاج

نظر حسن الى المعسكر والاعلام تخفق فوقه والخيام ممتدة على مسافة بعيدة ، فعظم امر الحجاج فى عينيه وقال : « يا ليلى ان الامر صائر الى هذا العاتى لا محالة . وانى لينفطر قلبى كلما تصورت مصير عبد الله بن الزبير . اتظنينه مغرورا بنفسه ؟ »

قالت : « كلا ، ولكنه يعتقد انه على الحق »

قال : « ما الذى اراه على جبل أبى قبيس ؟ »

قالت : « الم تر وقوع الاحجار على الكعبة ؟ ان الحجاج نصب منجنيقاته على الجبل وهو يرمى الحجارة منها على الكعبة . ومع المنجنيقات فصيلة من الجند »

قال : « واين خيام النساء التى تقيم بها سمية ؟ »

فقالت : « نحن سائرون الآن الى خيمة الحجاج ، وهى الكبيرة القائمة فى وسط هذه الخيام ، وسادخل انا ثم اخرج واسير بك الى مكان اعرفه ، واذهب الى هند بنت النعمان فارى سمية هناك واقص عليها قصتك ، واتفق معها على موعد تلتقيان فيه خارج المعسكر » . وما

زالا سائرين حتى اقبـلا على خيمة كبيرة قائمة على بضعة عشر عمودا أمامها اناس بالحراب ، وآخرون بالسيوف ، وهم أشبه بالحراس عند الروم ـ وكان بنو امية قد اقتبسوا نظام الحرس من الرومان وتوخاه عمالهم ارهابا للناس ـ وقبل وصولهما الى الباب اناخا الجملين ، ونزلا فمشت ليلى والناس يوسعون لها وحسن يسير فى اثرها حتى وقفت بباب الخيمة ، فدخل احد الحراس يستأذن لها ثم عاد يدعوها الى الدخول ، فدخلت وظل حسن مع الواقفين بالباب وهو فى شوق شديد لرؤية الحجاج ، وقد طالما سمع به وبعظم اعماله فوقف بحيث يستطيع رؤيته من باب الخيمة . فاذا هو جالس فى صدرها على سجادة ثمينة وقد تربع ووضع السيف على فخذيه تحت مطرف من خز القاه على كتفيه واداره على جنبه . ورآه لما دخلت ليلى رحب بها بصوت ارق مما كان يتوقعه ، وكان الحجاج رقيق الصوت الا اذا استفاض فى الخطابة فيرتفع كثيرا . وتفرس حسن فيه وهو يخاطب ليلى فاذا هو اخفش العينين ، مقطب الوجه ، ولم يجد فى وجهه قبولا للابتسام او الضحك

□

لاخت من حسن التفاتة الى جلساء الحجاج ، فراى رجلا لم يكد يتبينه حتى اضطربت جوارحه واستعاذ بالله من رؤيته فقد كان عرفجة ابا سمية ، وقد جلس بجانب الحجاج يقضي ويمضي وله الحول والطول . وادرك حسن ان عرفجة لم ينل هذا المنصب الا بتضحية ابنته سمية فهاجت عواطفه وحدثته نفسه بأن يفتك به انتقاما منه . ولكنه ما لبث أن عاد الى رشده وعلم بما يحيط به من الأخطار فأشاح بوجهه الى خارج المعسكر لئلا يلاحظ احد عليه شيئا . كما خشى ان يراه عرفجة فيعرفه ويدبر له مكيدة اخرى ، فمشى متظاهرا بأنه يسير على غير هدى حتى بعد عن خيمة الحجاج

ثم سمع ليلى تناديه فسار اليها وتبعها والجراب معلق فى كتفه بوصفه راويتها . وبعد أن قطعا مسافة فى المعسكر قالت : « أنظر الى هذه الخيمة بجانب هذه الراية انها خيمة القادمين من الشعراء وغيرهم ، فاقم بها ريثما آتيك او ابعث اليك »

قال : « وسمية ؟ . . الا استطيع رؤيتها الآن ؟ خذيني معك بوصفي خادما لك أو تابعا او اى شيء لأرى سمية »

فرق لهَ قلب ليلى وقالت له : « سر فى اثرى حتى ندخل مضرب خيام النساء واجعل كأنك تحمل لى هذا الجراب حتى تضعه فى الخيمة

التى نحن سائرون اليها ، ومتى وصلنا أدبر لك حيلة لمشاهدتها ومخاطبتها »

فرقص قلبه فرحا ونسى كل خطر فى سبيل شوقه لرؤية حبيبته. وبعد هنيهة وصلا الى خباء له عدة ابواب وحوله خيام أخرى صغيرة، فعلم انه خباء أهل الحجاج ، وقالت ليلى : « امكث تحت هذه النخلة ومتى دعوتك فادخل » . وكانت الشمس قد مالت الى المغيب، فجلس هناك وقلبه يدق وعيناه شائعتان

ودخلت ليلى الخباء وهو اقسام لكل امراة قسم على عادة العرب فى بناء الاخبية ، فدخلت القسم الذى فارقت هندا فيه فراتها وسمية جالستين لا تتكلمان . ولما راتاها رحبتا بها ، وآنست فى وجه هند انقباضا فقالت : « ما لهند غضبى ؟ » . فاجابت سمية بقولها : « ومن ذا الذى يقترب من النار ولا يحترق بها . ان ظلم هذا الجبار العاتى ليصل حتى الى أهل بيته »

وكانت ليلى تعلم ببغض هند للحجاج ، فلم تستغرب ذلك ، ولكنها اغتنمت الفرصة واجابت سمية قائلة : « اراك تشكين من الحجاج وقساوته وانت لم تعرفيه الا بالأمس ، وهو مغرم بك ، ولا يكاد يصدق انه حصل عليك »

فقطعت كلامها وقالت « لم يحصل ولن يحصل على شىء باذن الله »

فقالت : « ولكن هذا بعيد وانت فى داره وبين يديه ليلا ونهارا »

فاشارت بعينيها كانها تكتم امرا لا تريد ان تبوح به امام هند . فاستغربت ليلى قولها وتظاهرت بأنها تريد مخاطبتها فى شان فدخلت بها الى خيمتها الخاصة ، فاستقبلتهما أمة الله جارية سمية وكانت تهيىء الطعام ، ثم خرجت من الخيمة لبعض شأنها . فلما خلا المكان قالت ليلى : « رأيتك تتوعدين الحجاج وتتبرئين منه وهو زوجك الشرعى ، فضلا عما له من السلطان النافذ عليك ، فكيف تقولين انه لم يحصل على شىء ؟ »

وكانت سمية قد جلست على حصير من سعف النخل ، وبين يديها وسادة تتشاغل باصلاح ثنياتها وهى تسمع كلام ليلى . فلما سمعت سؤال ليلى بدت الحيرة على وجهها وامتقع لونه امتقاعا شديدا وبقيت تنظر الى الارض وليلى تفكر فى ذلك وتستغربه ولا تعلم سبب هذا الانفعال فقالت : « مالى ارى سمية ساكتة لاتجيبنى عن سؤالى ؟ كيف تقولين أنه لم يحصل عليك وانت بين يديه ؟ »

فرفعت سمية راسها وقد بدا التاثر فى عينيها وشفتيها وقالت : « صدقينى يا ليلى ، انه لن يحصل منى على شىء رغم عقد قرانه بى.

ولم يكن ذلك تفضلا منه ولكنه اجبر عليه لقسم سبق به لسانه . وأما كونه لن يحصل على فقد أعددت وسيلة انجو بها منه الى حبيبى . . »
قالت ذلك وشرقت بريقها فاختنق صوتها فأرسلت دموعها وهى صامتة لا تشهق ولا تتكلم ، فازداد عطف ليلى عليها ، ولكنها استغربت ما سمعته منها عن الوسيلة التى اعدتها للنجاة . فقالت : « واى وسيلة اعددت ؟ واين هو حسن الآن ؟ »

فلما سمعت سمية اسم حسن لم تعد تتمالك عن البكاء فكان جوابها الشهيق والنحيب ، وهمت ليلى بأن تطمئنها عن حسن ولكنها خشيت ان يصيبها سوء من المفاجأة . فقالت : « اذا كنت تحبيننى فلا تخفى على سر هذا الأمر ، فقد رايت منى كل اخلاص وانا خادمة لك الى آخر نسمة من حياتى . قولى ، ولا تخفى على شيئا »

فقالت وهى تمسح دموعها : « اما سبب كونه لم يحصل على شىء منى ، فذلك انه أراد ان يطوف بالكعبة آخر الحجة الماضية فمنعه ابن الزبير من ذلك ، فأقسم ألا ينزع سلاحه ولا يقرب نساءه ولا الطيب حتى يقتله »

فتذكرت ليلى انها كانت لا ترى الحجاج الا مدججا بسلاحه حيثما كان ليلا ونهارا . واعتزمت ان تفضى الى حسن بذلك لعلمها انه يشرح صدره ، ثم قالت لسمية : « وما هى الوسيلة التى دبرتها للنجاة منه فى المستقبل ؟ »

فمدت سمية يدها الى جيبها فاخرجت منه صرة صغيرة حلت عقدتها فاذا فى داخلها قطعة رق ملفوفة على هيئة درج ، فتبادر الى ذهن ليلى انها كتاب . ثم رأت سمية تناولت ذلك الرق بين أصابعها وقالت : « ان الفرج يأتينى من هذا الدواء ! »

فقالت ليلى : « وما ذلك ؟ »

فقالت : « هو سم احتفظت به حتى اذا تحققت وقوع الخطر تناولته فيذهب بى الى مكان ارجو ان الاقى حسنا فيه »

فرأت ليلى أن تبوح لها بالسر فقالت : « وما قولك اذا لاقيت حبيبك وانت حية ؟ »

فتفرست سمية فى وجه ليلى وهى تحسبها تمازحها وقالت : « لا تحببى الحياة الى ، فان لقائى اياه فى العالم الآخر خير وابقى . اما هنا فلا أمل لى فى ذلك »

قالت : « لا تقطعى الأمل يا سمية »

فأجابت وهى تحسبها تخفف عنها : « لا ابالى اقطعت الامل أم لم

اقطعه ، فان مدة عذابى فى هذا العالم اصبحت قصيرة ، ولا بد من انقضاء هذه الحرب فاذا ظل هذا الطاغية حيا كان دوائى فى هذه الصره ، واذا مات » . ثم تنهدت واكملت حديثها فقالت : « ولكن ما الفائدة من بقائى حية وحدى ؟ »

فقطعت ليلى كلامها وقالت والجد فى غنة صوتها : « اذا بقيت حية فانك لا تكونين وحدك لان حسنا حى ! »

فلما سمعت سمية ذلك بغتت وعادت الى التفرس فى وجه ليلى ، فرات الجد باديا فى عينيها فوثبت من مجلسها وقالت : « بالله اعيدى ذكره وعلليني ببقائه . قولى انه حى فان ذكره يحيينى ! » . قالت ذلك واختنق صوتها فبكت ثم قالت : « ولكن ما الفائدة من التعلل بالاحلام ؟ »

فقالت ليلى : « لسنا فى حلم ، وانما نحن فى يقظة ، وقد آن لك ان ترى حسنا انه فى انتظارك على مقربة من هذا الخباء وسأدعوه اليك لتلتقيا ». ثم خفضت صوتها وقالت : « وتتواعدا على وقت تفران فيه من هذا المعسكر ، ولا خوف من مجىء الحجاج الى خيام النساء ما دام قد أقسم لا يقربهن »

□

وكانت سمية تسمع قول ليلى وهى لا تكاد تصدقه ، ولكنها لم تر بدا من تصديقه ولاسيما بعد ان سمعت ان حسنا بقرب خبائها ، فهرولت الى شق فى الخباء ونظرت الى الخارج وكان الليل قد سدل نقابه فلم تر احدا ، فنادت امة الله فاسرعت اليها وقد انارت السراج ودخلت حتى وضعته على المسرجة فقالت لها سمية : « هل رأيت أحدا جالسا حول هذا الخباء ؟ »

قالت : « كلا يا مولاتى ولكننى رايت رجلين مرا معا وخرجا من المعسكر »

فقالت ليلى : « هل رايت احدهما يحمل جرابا ؟ »

قالت : « اظننى رايت مع احدهما شيئا كالجراب »

فاسرعت ليلى وسمية فى اثرها واطلتا من باب الخباء فلم تريا احدا ، فتحولت ليلى نحو المكان الذى اجلست فيه حسنا فلم تر له اثرا ، فاسقط فى يدها ، وفكرت فى سبب ذهابه ومن يكون الرجل الذى ذهب به فلم تهتد الى حل

اما سمية فخامرها شك فى قول ليلى ، ولكنها تحققت صدقها لما

بدا فى عينيها من دلائل الاهتمام وما غشى جبينها من امارات الانقباض، فقالت لها : « اين عسى ان يكون حسن الآن ؟ »

فقالت ليلى : « ان ذهابه لا بد ان يكون لأمر ذى بال ، فقد جاء معى وهو لايكاد يصدق انه يحظى برؤيتك ، وما اظنه تحول من هذا المكان بارادته . ولعله يعود الليلة فلنترقب رجوعه . ولكن من يكون رفيقه الآخر وهو غريب فى المعسكر وقد جاء اليه متنكرا ؟ »

ثم دخلتا الخباء ، ومكثت سمية مطرقة مستغرقة فى الهواجس وهى مرهفة سمعها فاذا هب النسيم ظنت حسنا قادما فيضطرب قلبها . وخرجت ليلى الى خباء هند وهى تكتم ما فى نفسها لعلها تستطلع شيئا جديدا

اما سمية فنادت امة الله وكانت انيستها فى وحشتها وعزاءها فى احزانها والمطلعة على مكنونات قلبها . فلما نادتها لم تسمع جوابها ولا جاءتها فأعادت الصوت فلم يجبها احد ، فاستعاذت بالله من تلك الليلة ، وخرجت الى حيث تتوقع ان تراها فرات فى الظلام شبحين عرفت منهما امة الله ، ورات الثانى بلباس الرجال فخفق قلبها وتوقعت ان يكون حبيبها فلم تعد تصبر عن المناداة فقالت : «امة الله ؟»

فقالت : « لبيك يا مولاتى انى قادمة على عجل » . قالت ذلك وظلت واقفة مع الرجل ، فقلقت سمية ولم تعد تستطيع صبرا وهمت بالسير نحوهما فراتهما قادمين فتقهقرت حتى وقفت بباب الخباء ووسعت حتى يقع نور السراج على وجه القادم مع امة الله فتعرفه ، ولكنه ظل واقفا على بضع خطوات من الخباء ، ثم تبينت انه بلباس حرس الحجاج ، فتشاءمت منه ودخلت الخباء مسرعة وامة الله فى اثرها . وكانت امة الله قد ادركت اضطراب سيدتها من منظر الرجل فابتدرتها قائلة : « لا تخافى يا مولاتى ان الرجل رسول خير »

قالت : « ممن ؟ »

قالت وقد خفضت صوتها : « من حسن »

فبدت البغتة فى وجهها وقالت : « ليدخل »

فخرجت امة الله وعادت والرجل معها وعليه لباس الحرس . ولم تكن ملابس الجند قد تميزت يومئذ عن ملابس سائر الناس تمييزا تاما . غير ان حرس الأمراء الأمويين كان لهم لباس خاص بهم ، اقتبسه معاوية من الروم مع علامات خاصة ، فوقفت سمية لاستقبال الرجل وركبتاها تصطكان لعظم اضطرابها من منظره

اما هو فلما دخل حياها باحترام وقال لها بصوت منخفض :

« لايزعجك أمرى يامولاتى ولا يخيفك هـذا اللبـاس فانى خادم لك ولمولاى حسـن »

فلما سمعت صوته تفرست فى وجهه فعرفت أنه عبد الله خادم حسن فصاحت فيه : « أنت عبد الله ؟ »

قال : « نعم يامولاتى انى خادمك عبد الله »

قالت : « وما الذى جاء بك الى هذا المعسكر ؟ واين حسن ؟ . هل هو حى كما يقولون ؟ » . قالت ذلك وشرقت بدموعها

فقال : « نعم يا سيدتى انه على قيد الحياة ، ولم أكن اعرف ذلك الا هذه الساعة ، وكنت قد يئست من حياته مثلك ولكن الله أنعم علينا بنجاته . فالحمد لله »

قالت : « واين هو ؟ »

قال : « انه مختبىء على مقربة من هذا المكان حتى لا يراه احد ، لأنه جاء متنكرا ولم ينتبه له الا ابوك ، فطلب الى الامير ان يقبض عليه. وقد اطلعت أنا على هذه المكيدة فاسرعت اليه وانبأته بها ، وخرجت به الى مخبـأ قرب هذا المعسكر ، وجئت لانبئك بذلك لنتعـاون على استنباط حيلة تخرجان بها الى حيث تشاءان وأنا فى خدمتكما »

فقالت : «سامح الله ابى، بل لاسامحه الله على مايسومنا اياه من البلاء. لقد أصبحت اكره اسم عرفجة واكره ان اراه من أجل هذه المعاملة . آه ياربى ! ما العمل ؟ ما الحيلة ؟ قل لى ياعبد الله : هل حسن فى مأمن؟ »

قال : « نعم يا مولاتى انه فى مكان امين ولا بأس عليه »

فقالت : « وكيف ادخلت نفسك فى زمرة الحراس ، وكيف انطلى أمرك على الحجاج وعلى ابى ؟ »

قال : « أن حكايتى طويلة ، وخلاصتها انى لما يئست من لقاء مولاى حسن فى المدينة وكنت قد عثرت على رحله وفيه كتاب، من خالد بن يزيد الى عبـد الله بن الزبير لابد من ايصاله اليه ، رايت القدوم به الى مكة ، فاذا كان مولاى حسن قد سـبقنى اليها لقيته وسلمتـه اليه ، واذا لم اجده اوصلت انا الـكتاب الى ابن الزبير . فلما دنوت من مكة علمت أن رجال الحجاج محيطون بها من كل جانب ، ولا يستطيع احد الدخول اليها ، وخشيت ان يقع الكتاب فى ايديهم ، واحتلت لدخول معسكر الحجاج لعلى اتنسم خبرا عن سيدى ، وقد يسر لى الدخول انى من ثقيف قبيلة الحجاج ، وهو كثير الثقة فى اهل قبيلتـه ويعرفنى من قبل ، ولكننى اعلم انه رجل شديد داهية فربما شك فى امرى فيأمر

بقتلي، فعزمت على ان اتقرب اليه بان اعطيه الكتاب ، ولاسيما انى لم ا[illegible]
فيه فائدة بعد فقد مولاى ، وربما تمكنت باقترابى من الحجاج
من استطلاع خبر مولاى ، فتظاهرت بانى قادم على الحجاج لامر ذى
بال يهمه ، وجئت المعسكر وطلبت ان اقابله فى خلوة فاذن لى ، فلما عرفته
بنفسى عرفنى . ثم اخرجت له ذلك الكتاب وانا عالم ان ليس فيه
ذكر لمولاى حسن ، وانما هو خطاب من خالد بن يزيد الى عبد الله بن
الزبير فى امر خطبة او نحوها ، فتظاهرت بانى عثرت بالكتاب مع رجل
قادم من الشام ، ولما رايت عليه اسم عبد الله بن الزبير شككت فى امره
فقتلت حامله ، وجئت بالكتاب اليه

« فلما سمع الحجاج ذلك منى ، مع علمه بانى من قبيلته ، احسن الظن
بى وقربنى منه وجعلنى من حراسه كما ترين . وفى مساء ذلك اليوم قدم
ابوك على الحجاج فاطلعه على ذلك وانا واقف ببابه . فلما اطلع ابوك
على الكتاب نادانى فدخلت الفسطاط فقال : (من اين اتيت بهـذا
الكتاب ؟!) . فقصصت عليه الخبر كما ذكرته ، فقال : (ان صاحب
هذا الكتاب عدو لنا عرفناه فى المدينة وحاولنا قتله ، ولكن الذى ذهب
لاغتياله لم يعد الينا ، فهل قتلته انت ؟) . فلما سمعت قوله اطمأننت
على حياة مولاى ، ومضيت فى اتمام الحيلة فقلت : (لااعلم اهو الذى
قتلته ام لا ، ولكننى قتلت شابا بلباس كذا) . وذكرت له ما يقرب
من صفات مولاى فقال : (لعله هو وقد احسنت على اى حال) .
وادنانى ابوك منه ومكثت فى جلة الحراس وانا اتفقد الاحوال واستطلع
الاخبار حتى جاءنا مولاى فى هذا النهار مع ليلى الاخيلية وقد تنكر ،
فعرفته ، ولم ينتبه لى ولا انا اردت ان يعرفنى لئلا ينكشف امرنا .
فتجاهلت حتى دخلت ليلى على الحجاج وخرجت . وكان ابوك مع
الحجاج فى الفسطاط ، فلما خرجت ليلى رايت علائم الغدر فى وجه
ابيك ، وسمعته يخاطب الحجاج فاصغيت فاذا هو يشير باصبعه الى
ليلى ويقول : (ان راويتها جاسوس متنكر) . واشار بالقبض عليه ؛
فعلمت انه عرف حسنا واحتلت فى الخروج حتى جئته وهو جالس
بقرب هذا الخباء فاخبرنى انه جاء من اجلك ، فذهبت به الى خربة
وراء هذا المعسكر لا يهتدى اليها احد ، ووعدته ان آتى اليك واطلعك
على امره لندبر حيلة للفرار »

وكان عبد الله [illegible] وسمية تتطاول بعنقها وتصيخ بسمعها وعيناها
[illegible]حصتان فيـ[illegible] فلما جاء على آخر الحديث اطمأن قلبها وزال قلقها
على حبيبها ، فانبسطت اسرتها وقالت : « بورك فيك ياعبد الله ، انك
لنعم الرجل ، واذا اتيح لنـــا ان ننجو على يدك فستكون شريكنا فى
سعادتنا ، والا فلا حول ولا .. »

فقال : « ان النجاة قريبة ان شاء الله ، ولكن لابد من الصبر ، فاذنى لى فى الانصراف الآن ، لأعود الى موقفى لئلا يشكوا فى امرى ، فاذا حدث شىء او احتجت الى شىء فانى رهين اشارتك . واذا حدث عندى شىء جئتك به » . قال ذلك وهم بالخروج فاستوقفته وقالت له : « الى اين ؟ وكيف تترك حسنا وحده فى تلك الخربة ومن اين يأكل واين ينام ؟ »

فقال : « اتظنين انى تركته ولم اعد اليه ؟ . كونى مطمئنة فانى ادبر له كل ما يحتاج اليه » . وودعها وخرج

وتذكرت سمية ليلى ، فنادت أمة الله وقالت لها : « اين هى ليلى ؟ » فقالت : « هى فى خباء هند » . وخرجت ثم عادت تقول : « لم اجد فى الخباء احدا »

فاستغربت ذلك وقالت : « الم تسألى الخدم عنهما ؟ »

قالت : « سألت الخادمة فذكرت لى ان هندا خرجت عند الغروب تتمشى بين الأخبية ، ثم جاءت ليلى للسؤال عنها فلما لم تجدها اقتفت اثرها ، ولم تعودا من ذلك الحين »

فقالت : « واين تذهبان فى هذا الليل ؟ اخاف ان يكون الحجاج بعث للقبض على ليلى لانها واطأت حسنا على التنكر » . وخافت سمية اذا بالغت فى البحث عنهما ان تنصرف الشبهة اليها فدخلت خباءها وجلست تفكر فيما مر بها فى تلك الليلة من الغرائب . وكلما تصورت انها نجت بحبيبها وخرجت من معسكر الحجاج يختلج قلبها فرحا

اما عرفجة فانه عرف حسنا حالما وقع بصره عليه ، فتجاهل وانتظر حتى خرجت ليلى ثم طلب القبض عليه كما تقدم . ففوض اليه الحجاج أن يفعل به ما شاء ، فلما ارفض المجلس خرج عرفجة الى كبير الحراس واوصاه بأن يبعث بضعة عشر من رجاله بالسلاح يقتفون اثر راوية الشاعرة ويقبضون عليه حيثما وجدوه . وكان عبد الله قد سبق الى حسن وخرج به الى ذلك المخبأ

فلما لم يعثر الحراس على حسن هناك ، عادوا الى عرفجة وأنبأوه بذلك فقال : « الى بليلى فانها فى اخبية النساء » . فعادوا اليها فرأوها تتمشى مع هند بجوار الأخبية ، فأشاروا اليها أن تأتى الى فسطاط الحجاج . فلما سمعت ذلك خافت من انكشاف امرها ولكنها لم تر بدا من الطاعة فسارت مع الحراس حتى اتوا الفسطاط والظلام قد عقد قبابه ، فلم يدخلوا فسطاط الحجاج بل دخلوا فسطاطا آخر رأت فى صدره عرفجة جالسا . فلما رأته استعاذت بالله من شر ذلك المساء :

ولكنها كانت جريئة لا تبالي بمن تلاقى ، فدعاها الى الجلوس وقال لها : « أين هو راويتك يا ليلى ؟ »

فلما سمعت سؤاله ادركت ان امر حسن قد انكشف فلم تشأ أن تشرك نفسها فى ذنبه فيقعان معا فلا تعود قادرة على مساعدته ، فعمدت الى الحيلة وقالت : « واى راوية تعنى ؟ »

قال : « راويتك الذى يحمل جرابك وقد جئت به اليوم »

قالت : « وهل دخلت على الامير ومعى راوية ؟ »

قال : « لم يدخل معك ولكنه بقى خارجا ، ولما مضيت اقتفى اثرك »

قالت : « وهل يدل ذلك على انه راويتى ؟ وكيف يكون راويتى ولا ادعوه الى الجلوس فى حضرة الامير ؟ »

قال : « اراك تتنصلين منه ونحن لا نريد به شرا »

قالت : « لا يهمنى ما تريدون به ، ولكنى جئت الى المعسكر بالأمس وليس معى راوية »

قال : « كان معك رجل يحمل جرابا »

قالت : « اتعنى الرجل الذى يحمل الجراب ؟ لقد التقيت به عند دخولى المعسكر ورايته يسير بجانبى فلم انتبه لأمره ، ولا أعرفه . . ومع ذلك فاذا كنتم تسيئون الظن بمن يبذل نفسه فى خدمتكم فلا حيلة لنا فيكم »

فلما رآها غضبت جعل يخفف عنها ويقول : « نحن لم نسيء الظن بك يا ليلى ، وانت شاعرة الامير ولك عنده المنزلة السامية ، ولكن هذا الرجل قد خدعنا وهو جاسوس دخل معسكرنا ونحن نحسبه راويتك »

قالت : « وهل الامير ممن يخافون الجواسيس ؟ ان من كان مثله حزما وقوة لجدير بان يخافه الجواسيس ، على انى لو علمت بجاسوس فى هذا المعسكر لأطلعت الامير على خبره »

قال : « بورك فيك ، وارجو ان تكونى عينا على هذا الرجل ، فاذا رايته فانبئينا بمكانه ، فقد بعثنا من يقبض عليه فلم يقفوا له على اثر ولعله يظهر غدا فاكتمى هذا الآن » . قال ذلك ونهض ، فنهضت ليلى وخرجت من عنده قلقة على حسن ، وان سرت لنجاته من قبضتهم . ثم عادت توا الى سمية وقصت عليها الخبر ، فاطلعتها سمية على حديث عبد الله فاطمأن بالها

قضى حسن ليلته فى الخربة التى اختبأ فيها بجانب المعسكر ، وهى تطل على الطريق المؤدى الى مكة ، ولم يغمض له جفن لشدة قلقه وتشتت افكاره . وقد عظم عليه ان يخرج من معسكر الحجاج فرارا ولكنه ادرك انه يستحيل عليه النجاة بغير ذلك ، ولبث حتى الصباح وهو يفكر فى وسيلة لانقاذ سمية من الحجاج

وكان عبد الله قد وعده ان يوافيه فى مخبئه ليدله على طريقة للفرار، فقضى ليله فى هذه الهواجس ، وفى الصباح صعد على اكمة اشرف منها على معسكر الحجاج لعله يرى عبد الله أو رسولا منه ، فراى بينه وبين المعسكر ارضا خالية وتبين المكان جيدا . وفيما هو يتطلع رأى رجلا قادما على هجين من اطراف المعسكر كأنه آت من الصحراء ، ثم اقترب الرجل منه فتبين انه خادمه عبد الله ، فاستبشر بقدومه فلما وصل عبد الله ترجل واشار اليه ان يعود الى الخربة مخافة الرقباء، فقال له حسن : « ما وراءك الآن ؟ »

قال : « ابشرك اولا بأن الحجاج لم يقرب سمية وان كان قد عقد قرانه بها » . قال : « وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال : « عرفته عن ثقة ، فقد اخبرتنى به ليلى الاخيلية ، وهى التى ساعدتنا فى تدبير الحيلة للخروج » . وذكر له امر القسم الذى أقسمه الحجاج ، فانشرح لذلك صدر حسن ، ثم قال : « وماذا دبرتموه للنجاة من بطش الحجاج ، انى لاستنكف فرارنا على هذه الصورة ، ويخيل الى ان سمية لا ترضى منى هذا الضعف »

قال : « انها لما علمت بنجاتك سرت سرورا عظيما ، لانهم لو ظفروا بك لفتكوا بكما معا . ثم اى فائدة من بقائك فى المعسكر بعد انكشاف أمرك ، وهل تستطيع مقاومة الحجاج وجنده ؟ . وعلى اى حال قد جئتك بما استقر راينا عليه فى هذا الصباح ، وهو ان أترك هذا الجمل عندك واعود ، فتتاهب انت للرحيل فى العشاء وتخرج من وراء هذا التل حتى تطل على الطريق التى تراها امامك ، وستجدنى وسيدتى سمية هناك وكل منا على هجين ومعنا المؤونة اللازمة للسفر فى الصحراء اياما . ومتى بعدنا عن مكة صرنا فى مأمن »

فسر حسن لهذا التدبير ، على صعوبة تنفيذه ، وقال لعبد الله : « احذر ان يطلع احد على ما دبرتموه ، فتكون الثانية شرا من الاولى. وثق بأننى ان وقعت فى هذه المرة فلن يسعنى الا ان اناضل عن سمية حتى أموت بين يديها »

قال : « لقد اعددنا كل شيء ، ولا خوف على سمية لان الحجاج لا ياتى الى خباء اهله مطلقا فى هذه الايام للسبب الذى ذكرته لك »

اطمأن بال حسن وجلس فى مخبئه بالخربة يتناول طعاما احضره له عبد الله ، ولم تمض ساعة حتى سمع صوت قعقعة اللجم ووقع حوافر الخيل ، فصعد الى الاكمة وتطلع نحو مصدر الصوت فرأى اكثر من عشرين فارسا قد اكتسوا بالدروع ، وفى مقدمتهم فارس ضخم اسود ، هو قنبر عبد عرفجة . فلما وصلوا الى المكان اشار قنبر بيده الى حسن وقال : « هذا هو فامسكوه » . فأحاطوا به من كل ناحية ، ولم ير حسن بدأ من التجلد فقال لهم : « ما بالكم ؟ وما الذى تطلبونه ؟ »

فضحك قنبر مستهزئا وقال : « ان الامير يدعوك الى وليمة العرس ! »

فاستشاط حسن غضبا من استخفاف العبد به ، وقال له : «اخسأ يا عبد السوء »

وما اتم كلامه حتى احدق به الفرسان وسيوفهم مسلولة ، فوضع حسن يده على قبضة سيفه وقد ثارت الحمية فى راسه وقال لهم : « لايغرنكم عددكم ، ولا تظنوا انى اهاب سيوفكم وخيولكم ، فاما اخبرتمونى بما تريدون بالحسنى ، واما فلن تنالوا منى شعرة قبل ان يقطر حسامى من دمائكم » . قال ذلك وقد اخذ الهياج منه مأخذا عظيما ولم يعد يبالى الحياة

فتقدم اليه فارس منهم لا يظهر من وجهه غير عينيه خلال اللثام وقد شهر السيف بيده وقال : « نراك تظهر من الضعف قوة ، وما انت الا جاسوس نذل لا احسبك تحتمل ضربة من هذا السيف »

فلما سمع حسن قوله صعد الدم الى راسه وصاح فى هذا الفارس قائلا : « اتخوفنى بسيفك ؟ انما يخاف السيوف من يخاف الموت ، ولست ذلك الرجل . فاذا اردت النزال فانزل نتبارز راجلين ، فلا يصح النزال وانت راكب وانا راجل . واذا خفت فانزلوا جميعا وانا استعين الله عليكم »

فضحك الفارس بصوت عال سمعه الجميع ، قال وهو يحول شكيمة جواده عن حسن : « لو ان الامير امرنا بقتلك لأريتك القتل كيف يكون ، ولكنه امرنا ان نقودك اليه اسيرا . فامش »

قال : « لا اسير ماشيا وانتم راكبون ، فاما ان اركب معكم او تمشوا معى ! »

فلما راوا هذه الجراة منه هابوه وحسبوا له حسابا ، وجعلوا يتشاورون فيما يفعلونه . فأشار بعضهم بقتله ، وعارض آخرون لأن الامير لم يأمرهم بذلك . ثم قر رأيهم على مسايرته ريثما يبلغون به المعسكر ويقدمونه فيرى الامير رايه فيه

وكانوا يعلمون انه يندر ان يساق الى الحجاج متهم وينجو من القتل ، فانه كان سفاكا للدماء حتى احصوا الذين قتلهم فى حياته فبلغوا مائة الف وعشرين الفا . ووجدوا فى سجونه بعد موته ثلاثة وثلاثين الفا لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب . فراى الفرسان أن يعاملوا حسنا بالحسنى ويتركوا امر الايقاع به الى الحجاج . فتقدم اليه فارس غير الذى كلمه اولا وقال له : « لو كنا قد أمرنا بقتالك لقاتلناك مشاة او فرسانا ، ويحكم الله بيننا وبينك ، ولكننا جئنا لنحملك الى الامير »

قال : « قلت لكم انى لا اسير معكم ماشيا وانتم راكبون » . وكان قنبر واقفا يسمع كلامه وهو يستغرب صبرهم على جرأته ، فلما سمع قوله تقدم اليه وقال بلهجة العبيد ورطانتهم : « امش يا هسن وهل انت اهسن منى ؟ »

فلما سمع حسن كلامه جرد سيفه وصاح فيه قائلا : « اذا تكلم الناس فاخرس انت ياعبد النحس . والا فانى مطير راسك بحد هذا السيف »

فضحك قنبر حتى بانت نواجذه ثم قال : « بعد قليل نرى من المقتول منا ، ولكنك غير ملوم لأن سمية خرجت من يديك ، تعال وانظرها بين نساء الامير ! »

فلما سمعه حسن يذكر سمية ، عز عليه ان يحتقره ذلك العبد ويهزا به ، فهاج غضبه واستغرب سكوت سائر الفرسان عن وقاحته ، ولكنه امسك نفسه وقال له : « لولا خوفى ان يقال لطخت حسامى بدم عبد لئيم لأطرت راسك عن جذعك ، ولكننى ارجو ان يكون ذلك نصيب مولاك الخائن ، فاخرس ولا تخاطبنى والا فانت الجانى على نفسك »

فلم يزدد قنبر الا قحة واستخفافا ، واقترب من حسن ويده على قبضة سيفه وقال : « المثلى تقول هذا الكلام ياحسن ثم تعرض بذكر مولاى ، والله انى ضاربك ضربة اعلمك بها الادب والحشمة » . قال ذلك وهم باستلال السيف ، فعيل صبر حسن لقحة ذلك العبد وسكوت بقية الفرسان ، فجرد حسامه وتلقاه بضربة على عنقه فذهب راسه يتدحرج على الاحجار

فلما راى الفرسان ذلك صاحوا فيه : « لقد حل لنا دمك بعد هذه الجراة ، كيف تقتل هذا الرجل بين أيدينا ؟ »

فلم يبال حسن ضوضاءهم وقال لهم : « اتعدون هذا رجلا ؟ . ان من يعده رجلا لجدير بأن يناله مانالة . ثم انى رايتكم سكتم عن قحته فلم يسعنى الا قتله ، وقد قلت لكم انى لا أبالى الموت فلاتخوفونى به » . قال ذلك والشرر يكاد يتطاير من عينيه ، وظل واقفا وسيفه يقطر من

دم قنبر وقد اشتفى قلبه بقتله ويئس من الحيـاة ، لانه لم يكن يتوقع من هؤلاء الفرسان الا الفتك به فعزم على الدفاع الى آخر نســمة من حياته ، فاذا مات مات كريما

على انه ما لبث ان راى الفرسان يتسارون، ثم تقدم احدهم وترجل عن فرسه وقدمه له قائلا : « هذا جوادى فاركبه حتى تاتى المعسكر وشأنك والأمير ، وسأركب انا جلك »

فلما سمع صوت الفارس عرف انه خادمه عبد الله ، فاستأنس به ، وأدرك انه هو الذى حلهم على الابقاء عليه . فركب الجواد ، وســاروا جيعا نحو المعسكر

وكان السبب فى معرفة مكان حسن ، ان عرفجة لما خرجت ليلى من عنده ولم تطلعه على مقره بعث عبده للبحث عنه فى المعسكر ، فقضى هذا طول الليل فى البحث ، وفى الصباح راى هجانا قادما الى المعسكر من ناحية تلك الخربة ، فلم يعرف الهجان ولكنه شك فى أمره ، فذهب يبحث فى المكان الذى رآه قادما منه ، وهنــاك وقع بصره على حسن وجمله فأسرع الى سيده فأنبأه بما راى ، فأوعز هذا الى الحجاج فأرسل كوكبة من الفرسان للقبض على الجاسوس الهارب .

وكان عبد الله قد عاد الى موقفه مع الحراس ، فلما علم بالامر احتال حتى الحق بأولئك الفرسان ، لعله يستطيع مساعدة ســيده ، وبذل جهده حتى ابقو عليه حتى بعد أن قام بقتل قنبر ، رغم ماله من منزلة رفيعة عند الحجاج مراعاة لسيده ، ولانه ينفع فى مثل هذه المهام

وقد ساعد عبد الله فى بلوغ غايته ان الجنــد لم يكونوا يحبون قنبر لفرط استبداده وقحته ــ واستبداد العبيد ثقيل على الطباع ــ فلما قتله حسن فرحوا فيما بينهم وبين انفسهم ، وان اظهروا الغضب

وبعد أن ارسل عرفجة الفرســان دخل على الحجاج فى خيمتــه ، وجلسا ينتظران مايكون ، واخــذ عرفجة يمهــد للفتك بحسن ، فأقنع الحجاج بأنه جاسوس وبأنه اذا بقى حيا فلا يؤمن شره . وماكان الحجاج فى حاجة الى من يوصيه بالقتل ، وهو بطبعه شــديد الرغبة فى سفك الدماء

وآن وقت الغداء ، فلم يشــأ الحجاج مغادرة الفســطاط قبل مجىء الفرسان ليرى ذلك الجاسوس الذى بالغ عرفجة فى وصف خطره ، فلما أحس الجوع امر بأن يؤتى بالطعام الى الفسطاط ، وكان الحجاج من الاكلة المشهورين فى الاسلام امثال : سليمان بن عبد الملك ، وميسرة البراش، وغيرهما ، حتى قالوا انه اكل ٨٤ رغيفا مع كل رغيف ســمكة فى أكلة واحدة ! . فلما جاءوه بالطعام دعا من فى مجلســه الى مشاركته فيه ،

فاعتذروا جميعا تهيبا منه الا عرفجة فانه اكل معه ، وان ظل طول الاكل قلقا يفكر فيما دبره لحسن من المكايد . فلما فرغ الحجاج من الطعام رفعت المائدة ، وجلس الحجاج صامتا . وكان عظيم الهيبة حسن الفراسة فاذا سكت لبث الذين فى حضرته سكوتا كأن على رؤوسهم الطير

□

وفيما هم على تلك الحال، دخل الحاجب وقال : « تقد عاد الفرسان وعما قليل يصلون »

فقال الحجاج : « وهل الاسير معهم ؟ »

قال : « لم أر بينهم أحدا ماشيا »

قال : « لعله جاء على جواد » . قال : « ان بينهم رجلا بلباس غريب، فلعله هو الاسير »

فنهض عرفجة ووقف بباب الفسطاط يتفرس فى القادمين ، ولما وقع نظره على حسن عرفه ، وكانت هذه هى المرة الثانية التى يراه فيها بعد مقابلتهما فى المدينة

ولما راى حسن عرفجة ارتعدت فرائصه من الغيظ ، وود لو ان سيفه اصاب عنقه بدلا من قنبر . ولاحظ عرفجة ان قنبر ليس بين القادمين فظنه تأخر فى الطريق ، وعاد الى الفسطاط وجلس بجانب الحجاج ثم دخل الآذن وانبأ الحجاج بوصولهم فقال : « ادخلوا الرجل لنراه »

فأدخلوه عليه وقد نزع سيفه ووقف بين حارسين احدهما عبد الله وفى يد كل منهما حربة . ولا تسل عن هواجس عبدالله فى تلك الساعة لما يعلمه من رغبة الحجاج فى سفك الدماء . واما حسن فانه وقف بقدم ثابتة كأنه بين بعض الاصدقاء ، والتفت الى من حوله فى الفسطاط فراى فى صدره الحجاج وعرفجة ، والى الجانبين رؤساء الاجناد وكلهم سكوت تهيبا من الحجاج . لانه قلما رؤى ضاحكا ، واذا ضحك فانه لايزيد على أن يكشر عن أنيابه . وقد تسمع قهقهته فاذا نظرت الى وجهه لم تجد فيه اى اثر لغير التجهم والعبوس !

وكان حسن يسمع بظلم الحجاج وشدة وطأته ورغبته فى سفك الدماء ، ولكنه اعتزم الصبر والثبات حتى الموت ، وبقى واقفا برهة لايخاطبه أحد فى شيء والحجاج ينظر اليه ويتفرس فيه ثم قال له : « ممن أنت ؟ »

قال : « ما انا من ثقيف ولا من امية »

قال : « وماذا تعنى ؟ »

قال : « أعنى انى لست من قبيلة الامير ولا من قبيلة امير المؤمنين ، ومهما يكن من أمرى بعد ذلك فليس مما يغير رأى الامير فى . . »

فقطع عرفجة كلامه وقال : « أبمثل هـذا الجواب يخاطب ولى امير المؤمنين ؟ ! انها قحة ! »

فلم يصبر حسن على سماع ذلك من عرفجة والتفت اليه وقال : « بل القحة ان يتصدى مثلك للجواب عن مولانا الأمير ويقطع الكلام عليه »

فأرادعرفجة ان يتكلم فرأىالغضب فى وجه الحجاج وهو يهم بالكلام فسكت ، وقال الحجاج : « لسنا فى مقام جدال ، فأخبرنى ما الذى جاء بك الى هذا المعسكر متنكرا ؟ »

فتحير حسن ، ولم يدر بم يجيب ، وخاف ان يصرح بحقيقةغرضه فيهيج غيرة الحجاج عليه ، ولاسبيل بعد ذلك للنجاة ، فلبث ساكتا . فاستبطأ الحجاج جوابه فأعاد السؤال فقالحسن : « جئت لأمر يهمنى ولا يهم سواى ولا علاقة له بأمر الخلافة او الامارة »

قال الحجاج : « نرى اجوبتك مبهمة فأفصح »

فلبث حسن ساكتا ، فاغتنم عرفجة فرصة سكوته وقال للحجاج : « ان أجوبته مبهمة لانه يخاف ان يعترف بفعلته ، وهو جاسوس من عبد الله بن الزبير على مولانا الامير . بل هو عدو امير المؤمنين يتمنى سقوط دولته ويسعى فى ذلك جهده . واذا شئت أن تتحقق ذلك فاطلب اليه أن يلعن الكاذبين »

فالتفت الحجاج الى حسن كأنه يستطلع رايه فيما قاله عرفجة ، فقال حسن : « حاش لله ان اكون كما يقول »

فقال الحجاج : « اذا كان الامر كذلك ، فالعن الكاذبين : عليا بن ابى طالب ، وعبد الله بن الزبير ، والمختار بن ابى عبيد »

فارتبك حسن لانه لايعتقد كذب هؤلاء ، ولايريد ان يلعنهم . وكان يعلم انه اذا لم يلعنهم فان هذا يكون حجة عليه فقال : « لا ارى علاقة بين صدق نيتى فى خدمة امير المؤمنين عبد الملك وبين لعن [illegible] »

فقال عرفجة : « ارايت يامولاى كيف هو خائنغادر يكذ[illegible] على الامير كذبا صريحا ؟ . اما قلت لك انه جاسوس والجاسوس يستوجبالقتل؟ اقتله يامولاى وارح نفسك منه » . قال ذلك واطرافه ترتعش ولحيته

تنتفض فى وجهه على صغرها ، وعيناه ترتعشان كأنهما قد فت فيهما خضرم

وكان الحجاج معءتوه وظلمه ذا فراسة ونظر ، فأدرك ان تمنع حسن عن اللعن لايدل على جاسوسيته ، ولكنه أعاد السؤال عليه وقال : « لقد صبرنا عليك حتى الآن . سألناك عن نسبك فلم تجبنا وهذا ذنب وحدة يكفى لاتهامك . ثم سألناك عن غرضك فى طرق هذا المعسكر متنكرا فأجبت جوابا مبهما ، وكلفناك لعن الكاذبين فأبيت . فهل تتوقع أن نصبر عليك أكثر مما صبرنا ؟ »

فلما سمع كلام الحجاج ايقن بدنو اجله ، ولكنه لم يجزع ، وعزعليه ان يشمت به عرفجة ، فلبث ساكتا يفكر فيما يفعل ، واغتنم عرفجة الفرصة فخاطبه قائلا : « اجب الامير . السنت جاسوسا خائنا جئت لتكيد لأمير المؤمنين ؟ »

ثم التفت الى الحجاج وقال : « انى أعجب لصبر مولاى على هذا الخائن وكيف لم يأمر بقطع راسه ؟ »

فلما تحقق حسن بلوغ الامر غايته وخاف ان تنفذ حيلة عرفجة فيه فيأمر الحجاج بقتله ، أعتزم الايقاع بعرفجة ، فالتفت اليه وخاطبه بقلب جسور وقال : « اتدعونى خائنا وما الخائن الا انت ؟ »

فوثب عرفجة من مجلسه مغضبا وقال : « كيف تجرؤ على هذا الكذب فى حضرة الامير وهو أعلم الناس بصدق طاعتى واخلاصى . والله لو اذن لى الامير لقطعت راسك بيدى ، فانى لأعلم الناس بخيانتك ، ويعلمها أيضا غلامى قنبر » . قال هذا ثم تلفت حوله متفقدا عبده قنبر ، فلما لم يجده صاح : « أين قنبر؟ » . فأجابه حسن ساخرا وقال : « لن يجيبك قنبر لأنه نال جزاءه ! » . فالتفت عرفجة الى الحراس مستفهما ، وقبل أن يسألهم اشار احدهم بيده اشارة فهم منها ان قنبر قتل بيد حسن فأجفل عرفجة وحلق عينيه وصاح فيه : « وهل قتلت غلامى ايضا ؟ . ثم تقف غير خائف من القصاص ؟ ! » . ثم التفت الى الحجاج وقال : « أتراه لم يستوجب القتل بعد ؟ »

فابتدره حسن قائلا : « قتلته لخيانته ، وسوف تنال جزاءك بأمر مولانا الامير متى ثبتت خيانتك »

فقال عرفجة : « أتتهمنى بالخيانة وخيانتك ظاهرة للعيان وقد اضفت اليها جريمة القتل ؟ »

فلما رآهما الحجاج يتجادلان ويحاول كل منهما اثبات الخيانة على الآخر ، راى من الحزم والدهاء ان يصبر حتى يستمع لجدالهما ، وان كان هذا على غير ما تعوده جلاسه منه

اما حسن فلما راى الحجاج مصغيا ، التفت الى من حوله من الأمراء وقال : « اشهدكم علي ان دم الخائن مهدور ايا كان ! »

فقال عرفجة : « ما الخائن الا انت »

فتجلد حسن حتى ملك نفسه ونظر الى عرفجة وقال له بصوت هادىء : « من الخائن منا يا عرفجة ؟ . أانا الخائن وانت الامين الصادق فى خدمة أمير المؤمنين ؟ »

قال : « وهل فى ذلك شك ؟ »

قال : « وماذا تقول فى الكرسى ؟ »

فلما سمع عرفجة لفظ الكرسى ارتعدت فرائصه وبدت البغتة فى وجهه ، ولكنه تجاهل ولجأ الى المغالطة قال وهو يضحك ويظهر الاستخفاف : « اى كرسى ؟. لاشك فى انك تهذى »

فقال حسن : « انسيت الكرسى ولهيب ناره لايزال يلفح وجهك ؟ . أفلم تدرك اى كرسى أعنى ياعرفجة ؟ »

فتحقق عرفجة اطلاع حسن على حرق الكرسى ، ولكنه استغرب ذلك وأنكره وعاد الى محاولته المغالطة فقال : « مابالك تهذى يارجل ؟ . واى كرسى تعنى ؟ »

وكان الحجاج ينظر فى عينى عرفجة ، فلم يخف عليه انه فى ورطة ، وبقى صامتا يصغى . فقال حسن : « ألم تفهم اى كرسي ياعرفجة ؟. هو كرسى المختار بن ابى عبيد الذى كلفتمونى لعنه الآن ! »

فازداد تغير وجه عرفجة وقال : « وما شأنه ؟ وما علاقة المختار بما تقول ؟ »

فقال حسن وقد رفع صوته : « الا تعرف علاقته بك ؟ اذا كنت لاتعرف تلك العلاقة ، فاسأل محمدا بن الحنفية ، وهو قريب من هنا . اسأله أو اسأل من شئت . واذا انكرت استنطقنا رماد الكرسى »

فلما سمع عرفجة هذا التعريض أوجس فى نفسه خيفة ، ولم يجد سبيلا الى التخلص الا ان يمضى فى تجاهله ومغالطته فقال وهو يضحك . « اتظن مثل هذه المفتريات تنطلى على مولانا الامير ؟ وهل تظنه يصغى لكلام مختلق لامعنى له ولا اصل ؟. ان الامير ان يكن قد مد لك فى حبل الحلم ، فما ذلك الا لكى يأخذك بجريرتك ويجعلك عبرة لأمثالك من الخائنين »

فقال حسن : « للأمير ان يفعل بى ما يشاء ، ولكن ذلك لاينفى كونك خائنا منافقا . واذا كنت قد انكرت امر الكرسى ، فان امره معروف واهل المدينة يعرفون عنك محافظتك بضعة أعوام على محفة لايعرف احد

مابيهـا . ولم يكن فيهـا الا كرسى المختار الذى زعم انه لعلى بن أبى طالب ، واستغله فى الدعوة الى قتـال بنى امية من ورائه ، فلمـا مات اخذت انت الـكرسى لنفسك ، لتخلف المختار فى اسـتغلاله لمناصبـة بنى امية العداء ومحاولة اخراج الخلافة منهم الى محمد بن الحنفية الذى كان المختار يدعو له »

فقطع عرفجة كلامه وقال : « ماهذا الا اختلاق »

فقال حسن : « ان ابن الحنفية شاهد على ذلك ، ومهما يكن من امره فيما يختص بالخلافة فلا يشك احد فى صـدقه ، واذا كان شعب على بعيدا من هنا ، ففى المسجد بمكة من شـهدوا حريق الـكرسى معى ، وشهدوا الاهانة التى لحقت بعرفجة النزيه الصادق من محمد بن الحنفية حين جاءه مستاذنا فى الدعوة الى بيعته وخلع طاعة أمير المؤمنين عبـد الملك بن مروان ! »

ولم يتم حسن كلامه حتى ضج من فى الفسطاط ، ومال الحجاج الى تصديق حسن، وكان الحجاج مع تقريبه عرفجة لايجهل خبثه ونفاقه ، ولكنه انما قربه لأنه يحتاج الى امثاله فى بعض اغراضه . فلمـا رجح ثبوت هذه التهمة عليه صمم على قتله ، ولكنه أجل ذلك ليرى مايكون»

اما عرفجة فلما غلبته الحجة عمد الى المواربة فقال وهو يظهر التعقل والهدوء : « يلوح لى ان مولاى الامير سكت عما سمعه من هذا الرجل كانه مال الى تصديقه »

فقال الحجاج : « وهل تحسبه اختلق ذلك كله اختلاقا ؟ »

قال : « نعم يامولاى »

فقـال الحجاج : « لايعقل انه يفعل ذلك ، ولاسيما انه يستشـهد اناسا معروفين . ثم ما الذى يدعوه الى هذا الاختلاق ؟ »

فقال : « يدعوه الى ذلك امر أفظع من خيانته ، ولو أنى ذكرته لك ما ترددت فى صلبه ! »

فقال : « وما ذلك ؟ »

قال : « انى لأضن بعرض الامير ان يذكر فى مثل هـذا المقام ، فاذا اذن مولاى فى خلوة ذكرت له السبب ، وانا ضامن انه يقتنع ببراءتى »

فقطب الحجاج حاجبيه واشار بيده فخرج كل من فى الفسطاط من الامراء والحراس وبينهم حسن ، وقد سر لمـا رآه فى وجوه الامراء من دلائل نقمتهم على عرفجة لفظاظته وسـوء سريرته . وان اظهروا له غير ذلك خوفا من الحجاج . وفاتهم ان الحجاج نفسه لم يكن يثق به

فلما خلا عرفجة الى الحجاج اخذ يقص عليه حديث حسن مع سمية

ثم قال : « وقد كنت أعدها لخدمة مولاي بعد أن طلبها منـذ أعوام . فجاء هذا الشـاب وخدعها بحبه ، وهي فتاة لاتدرك أمور الدنيـا ، فانخدعت بظـاهره ، وكادت توافقه على أن تفر معه لو لم أطلـع على فعلته ، فسعيت في قتله بمساعدة طارق بن عمرو عامل المدينة . وهذا طارق بين يدي مولاي ينبئك بصدق قولي . ولكن الرجل الذي أنفذناه لقتله لم يظفر به ، فنجا ثم جاء متنكرا الى معسـكر الامير بعد أن علم بزفافها اليه ليحاول أن يخدعها مرة ثانية ، ولكنني رأيته سـاعة مجيئه مع ليلى بالامس ، وبعثت من يأتون به ، فعلمت أنه سار الى جهة أخبية النساء ، وقد شق علي أن أصرح بذلك لمولاي الامير لئلا أكدره ، فاكتفيت بأن ذكرت أنه جاسـوس ، لعلمي بأنه صاحب الـكتاب الذي جاءنا به الفتى الثقفي منـذ حين وظننـاه قتله . ثم علمت بأنه فر الى الخربة المجاورة فأرسلنا الفرسان للقبض عليه . ويؤيد صدق قولي ، أنك لما سألته عن سبب مجيئه الى هنا لم يستطع جوابا »

فرأى الحجاج كلام عرفجة معقولا ، ولـكنه رأى التهمة الموجهة اليه معقولة أيضا فلم ير خيرا من التريث حتى ينجلي له وجه الصـواب . فأمر بسجن حسن ، وتظاهر بأنه اقتنع ببراءة عرفجة

سيق حسن الى خيمة أفردوها له في طرف المعسكر ، ووقف ببابها حارسان مسلحان . فلما تركوه فيها بعد أن شدوا وثاقه أيقن باستحالة النجاة ، وجعل يفكر فيما مر به وما كان من أمر عرفجة معه ، فرأى أن الحـجاج لم يقتنع كل الاقتنـاع بخيانة عرفجة ، وأدرك أن هـذا يستعديه عليه من طريق اثارة غيرته ، والغيرة تعمي وتصم

وقضى حسن في ذلك بقية يومه ، وجاءوه بالطعام فلم يتناول منه شيئا ، ثم قضى ليلته ساهرا وخيال سمية أمام عينيه ، وفكره يبحث عبثا عن وسيلة الى النجاة بنفسه وسمية

وفيما هو متوسد على حصير من سعف النخل وقد أثقلته الأغلال ، سـمع وقع أقدام خفيفة في الخيمة ، ثم صـوتا يهمس في أذنه قائلا : « لا تخف يا مولاي اني خادمك عبد الله »

وحاول أن ينهض فأعانه على ذلك عبد الله ثم قال له : « لقد احتلت حتى جعلوني أحد الحارسين المنوط بهما تناوب مراقبتك ، وأنا الآن في نوبة السهر على حراستك . وقد نام رفيقي فدخلت لأسـألك عما تريد »

فقال حسن : « لا أريد شيئا ولا رغبة لي في النجاة ، الا اذا نجت سمية معي »

فقال عبد الله : « وما حيلة الحر الأعزل يا مولاي اذا وقع بين أيدي

من لا يتورعون عن قتله ظلما وعدوانا ، مستعينين بكثرة عددهم وعهدتهم ؟ ايسلم نفسه لهم طوعا ، أم يحاول الخلاص من ايديهم بأى وسيلة ؟ »

قال : « أتريد ان أفر من المعسكر وحدى واترك سمية فى بيت الحجاج ؟ وهل تحسب ان حياتى بعيدا من سمية مما احرص عليه ؟ »

فقال عبد الله : « لا ياMولاى ، لست أعنى ان تخرج وحدك ، وانما أعنى البحث عن وسيلة تخرج بها انت وسمية معا . ولا عار فى الفرار من وحش كاسر لا يعرف الحق ولا يراعى العدل »

فسكت حسن ، واستأنف عبد الله الكلام فقال : « سأذهب غدا الى خباء النساء لاستطلاع الامر ، ثم أعود اليك بما يستقر عليه الرأى . فدع القنوط وكل واشرب حتى يأتى الله بالفرج » . ثم ودعه وخرج

وشعر حسن بالارتياح واعجب بغيرة عبد الله وصدق مودته ، ثم مكث فى اليوم التالى ينتظر رجوعه

وكانت سمية قد واعدت عبد الله على الخروج معه فى مساء الأمس، ثم سمعت خبر القبض على حسن والرجوع به الى المعسكر ؛ وسجنه ، وما لبثت ان رات الجند قد أحدقوا بخبائها ومعهم السلاح ، فأيقنت ان الحجاج اطلع على سر قدوم حسن الى معسكره فتحققت وقوعها فى الخطر ، ودعت اليها امة الله جاريتها ، وكانت هى التى أخبرتها بسجن حسن ، فجاءت وهى تظهر عدم المبالاة ؛ فقالت لها سمية : « هل رأيت الجند المحدقين بنا احداقهم بالقتلة المجرمين ؟ »

قالت : « رايتهم . ولكن ما لنا ولهم ؟ »

فقالت سمية : « اتتجاهلين يا امة الله ؟ الا ترين أنهم سجنونى كما سجنوه ؟ وهل تشكين فى ان ذلك العاتى قد اطلع على ما بينى وبين حسن فلم يبق الا ان يفتك بنا ؟ ! »

قالت : « لا اظنه يفتك بك »

فقطعت كلامها وقالت « تظنينه يستبقينى لمأربه الدنىء ! . ولكن ما انا مبقية على نفسى . اين السم الذى حفظته لى ؟ . لقد آن وقته ! » . وكانت امة الله قد أخذته لتحفظه عندها

قالت : « لااظن وقته أزف ياMولاتى ، وحسن لايزال على قيد الحياة ، ومن يدرى ما يأتى به الغد ؟ »

قالت : « اتتوقعين لحسن البقاء وقد وقع فى قبضة هذا الظالم الذى لايرى فيه الا مناظره على عروسه ؟ . آه يا امة الله ! يا ليتنى ظللت على يأسى الماضى ولم أعلم ببقاء حسن حيا ! ان هذا لن يعفيه من

القتل . فكيف ابغى الحياة فى بيت رجل قتل حبيبى ؟ »

فقطعت أمة الله كلامها وقالت : « انه لم يقتله بعد يا مولاتى . وعسى الله أن ينقذه من بين يديه فان الله قادر على كل شىء »

قالت : « نعم ان الله قادر على كل شىء ، ولكن أليس حسن فى حكم المقتول الآن ؟ » . قالت ذلك وخنقتها العبرات

فاحتارت امة الله ، ولم تدر بم تعزيها عن توقع قتل حبيبها ، ولم تستطع لومها على تفكيرها فى الانتحار حتى لا تبقى فى بيت قاتل حبيبها ، فظلت ساكتة ، واستأنفت سمية الكلام فقالت : « اين السم ؟ اعطينى اياه »

فتغير وجه امة الله وتناثرت الدموع من عينيها وقالت : « دعى السم الآن فان وقته لم يأت بعد »

قالت : « أعطينى اياه ، واعاهدك على انى لا اتناوله الا بعد أن أقطع الأمل من بقاء حسن » . ثم اطلقت لنفسها عنان البكاء ، فبكت امة الله معها ، ولكنها أشفقت عليها من الاسترسال فى الحزن على هذه الصورة فكظمت ما فى نفسها وقالت : « أتعدينني انك لا تتناولين السم الا بعد وقوع الخطر حقيقة ؟ » . فلما عاهدتها على ذلك خرجت ثم عادت وناولتها ورقة فيها المسحوق السام . فتناولته منها وقبلته وهى تقول : « انت هو منقذى من احزانى ومتاعبى . انت وحدك معينى على قهر ذلك العاتى ، وانقاذى منه »

وكان الحجاج قد أمر باخراج النساء من الخباء الا سمية وخادمتها وامر الحراس أن يحدقوا به وهم فى غفلة عن سبب ذلك ؛ فكانت سمية تصيخ بسمعها من جدران الخباء لما يتحدث الحراس به . وسمعهم يتحدثون بما أظهره حسن من الشهامة وعزة النفس وما ظهر فى كلام عرفجة من التلاعب والغدر . وكانت كلما سمعت ذلك منهم رقص قلبها فرحا ولكنها لا تلبث أن تعود الى هواجسها

اما عبد الله فلما جاء الى سمية ليخاطبها فى امر الفرار رأى الحرس محدقا بخبائها فعاد ولم يرها ، وأخبر حسنا بما كان فازداد الامر تعقيدا عنده ففزع بآماله الى الصبر والتسليم للأقدار

▭

قضى حسن اياما على هذه الحال ، ثم حدث ان راى نفسه فيما يرى النائم وكأنه يقول لبلال خادمه الذى تركه فى مكة : « اذا استبطأتنى فاطلبنى فى معسكر الحجاج » . فلاح لحسن أن يكون بلال جاء المعسكر

ولم يعلم بمكانه . فلما دخل عبد الله عليه ذكر له هذا الامر ووصف له بلالا وقيافته فقال عبد الله : « رايت فى هذا المعسكر عبدا اظنه هو الذى تعنيه ويظهر انه يفتش عن ضائع ولم ينتبه له احد لأن الحجاج وحاشيته وسائر الامراء يتاهبون للهجوم على ابن الزبير مرة واحدة ولولا ذلك لكشف عرفجة امره واتهمه بالجاسوسية »

فقال حسن : « يهمنى أمر هذا العبد ، فاستقدمه الى على عجل » فخرج عبد الله فرأى بلالا فاغتنم اشتغال الناس بالتأهب وجاء به الى السجن متظاهرا بأنه يحمل له طعاما ، فقال بلال لحسن : « لقد بحثت عنك حتى يئست من لقائك وكدت ارجع خائبا . فالحمدلله على انى رايتك ولو فى السجن . . . »

فقال حسن : « وماذا وراءك ؟ »

قال : « جئت اليك فى مهمة مستعجلة واخشى ان يكون قد فات اوانها »

قال : « وما هى ؟ »

قال : « استدعانى ابن صفوان الى منزل عبد الله بن الزبير فى مكة وسألنى عنك ، فلما اجبته بانك لم تعد بعد قال : (ان امير المؤمنين عبد الله ابن الزبير يحب أن يراك لأمر ذى بال خاطبه فى شأنه منذ بضعة وعشرين يوما ، وهو يريد الآن ان يعهد اليه فى أمر مهم) . فجئت على عجل وقد قضيت ثلاثة أيام فى البحث عنك حتى جاءنى عبد الله كما رايت »

فقال حسن : « ابن الزبير يطلب أن يرانى فى مكة ؟ »

فقال : « نعم يا مولاى وقد الح على كثيرا ، وقال ان الوقت ضيق»

فأطرق حسن واعمل فكرته فتبين له ان ابن الزبير انما طلبه فى شأن خطبة أخته رملة لخالد بن يزيد ، وتذكر انه انما جاء الحجاز لأجل هذا الامر ، ولكنه لم يدر كيف يجيب الدعوة وهو سجين ، فالتفت الى عبد الله وقال : « انك عرضت على منذ ايام أن تخرجنى من هذا المعسكر ، فهل تستطيع هذا اليوم ؟ »

قال : « ذلك سهل على فى اى وقت تشاء ، وانى افديك بروحى »

فقال : « لا ابغى الفرار وانما ابغى الخروج الليلة لمقابلة ابن الزبير ثم اعود فى الصباح الى محبسى »

فأعجب عبد الله بعزة نفسه وقال له : « افعل ما بدا لك فانى رهن اشارتك »

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فقال عبد الله : « تمهل قليلا حتى يجىء الليل فأعطيك ثوبى فتلبسه وتخرج به والبس أنا ثوبك

واحل محلك هنا ريثما تعود ، وسوف لا يشك من يراك انك من حراس الحجاج ، فتظاهر بأنك ذاهب فى مهمة الى ابن الزبير ، واذا رايت ان تبقى هناك على أن الحق بك ، فافعل »

فأعجب حسن بمروءة عبد الله وتضحيته فى سبيل نجاته ، فقال : « بورك فيك من صديق صادق ، اخاف أن اصاب بسوء فلا اعود فتقع انت تحت طائلة العقاب »

قال : « اذا اصابك سوء ، فلن يبقى لى مأرب فى الحياة . على ان القوم يعتزمون الهجوم غدا على ابن الزبير : فما اظنهم يسبهون لخروجك ، ولن اجد مشقة فى اطلاق نفسى من السجن »

فقطع حسن كلامه وقال : « اما رجوعى فلا بد منه لأنى لا استطيع أن اترك سمية » . قال ذلك وصمت بغتة كأن فكرا جديدا طرق ذهنه ثم قال : « ولا بد لى من الانتقام من أبيها الخائن » . ثم التفت الى بلال وقال له : « اتذكر ما رأيناه خلسة من خيمة صاحبك سعيد فى فسطاط محمد بن الحنفية ؟ »

قال : « اتعنى حكاية عرفجة والكرسى ؟ »

قال : « اياها أعنى ، فهل تستطيع الحصول على كتاب من محمد بن الحنفية الى الحجاج يشهد فيه بأن عرفجة جاء بذلك الكرسى وعرض عليه أن يدعو الى بيعته اهل العراق ليخلعوا بيعة عبد الملك بن مروان ؟ »

قال بلال : « ذلك شىء يسير ، فانى صديق قديم لسعيد ، ولهذا دالة عليه »

فقال حسن : « اذن اذهب الآن الى شعب على ، واسلك اقرب انطرق اليه ، فاذا حصلت على الكتاب فعجل بالعودة به الى هنا ، حيث اكون قد عدت بعد مقابلة ابن الزبير »

فخرج بلال وسار فى مهمته . وخرج عبد الله الى المعسكر فوجد القوم يتأهبون للقتال فى صباح الغد ، ورأى زميله واقفا بباب الخيمة ينظر اليهم متحسرا على حرمانه من الذهاب معهم ليصيب بعض الغنيمة . فقال له : « اذا شئت اللحاق بالجند فافعل وانا ابقى هنا لحراسة السجين » . فسر الرجل وشكره وانصرف

ولما غابت الشمس دخل عبد الله على حسن فألبسه ثيابه وسلمه الحربة ، ثم لبس هو ثياب حسن وجلس مكانه . فخرج حسن قاصدا الى مكة ، ولم يشك فيه احد لظنهم أنه من الحراس ولانشغالهم بالتأهب للهجوم على مكة

أم ابن الزبير

دخل حسن مكة دون ان يعترضه احد ، ولاحظ ان اسواقها خالية من الناس ، غير انه ماكاد يشرف على المسجد حتى وجد الناس قد ازدحموا فيه وفيما جاوره من المنازل ، فعلم انهم يتوقعون شرا ولم يفتهم مانواه الحجاج. فسارتوا الى منزل عبد الله بن الزبير فراى الناس يتدافعون عند بابه . وسأل عن ابن صفوان فعلم انه فى خلوة مع ابن الزبير ، فوقف مع الواقفين حتى مضى معظم الليل، فمل الانتظار وشق طريقه بين الناس ملتمسا الحجرة التى فيها عبد الله ، فلما بلغها سأله الخدم عما يريد ، فذكر انه يريد مقابلة امير المؤمنين لأمر ذى بال ، فأبلغوا امره الى ابن صفوان . فخرج اليه وما كاد يراه حتى رحب به ، فسأله حسن : « اين أمير المؤمنين ؟ »

قال : « تركته يصلى الفجر »

قال : « لقد جئت لمقابلته اجابة لطلبه »

فقال : « نعم لقد طلب ان يراك لأمر يريد أن يسره اليك . وسوف ادخلك عليه » . قال ذلك وعاد الى الحجرة ومكث حسن فى انتظار عودته فى فناء البيت وهو يتوقع أن يطول غيابه لعلمه بطول صلاة ابن الزبير مذ رآه يصلى فى المسجد من عهد قريب

على ان انتظاره لم يطل ، وسرعان ماعاد ابن صفوان واشار اليه ان يتبعه ، فمضى وراءه حتى دخل الحجرة فوجد عبد الله واقفا وسطها وقد تقلد الحسام ولبس الدرع تحت جبة خز ، رتحتها سراويل ومنطقة ، وقد فاحت منه رائحة المسك . فهم حسن بتقبيل يده ، فلم يمكنه من ذلك ورحب به ، ثم أشار الى ابن صفوان فخرج ، واقفل عبد الله الباب بنفسه ، فاستغرب حسن ذلك ولبث واقفا ينتظر مايبدو منه ، فرآه يتجه الى وسادة على طنفسة هناك فجلس وقد وضع سيفه مستعرضا على ركبتيه واسند ذراعيه عليهما فوقه ، وأشار اليه ان يجلس بجانبه ، فجلس صامتا

وظل عبد الله مطرقا وهو يلاعب لحيته بين أنامله ، ثم التفت الى حسن وقال له : « ما أظنك حصلت على كتاب من خالد »

قال : « ان الرسول لم يعد بعد »

قال : « وما أظنني أراه ولو عاد من الغد »

فقال حسن دون أن يدرك قصده : « كيف لا وهو رهن اشارة أمير المؤمنين ؟ »

قال : « على اى حال ، لقد ايقنت بصدق رغبة خالد فى الزواج من اختى، وانه فيما علمت لافضل القوم ، فاذا لقيته فأوصه عني بها خيرا ، واذكر له ان مصاهرته لآل الزبير جاءت متأخرة ، ولو انه عجل بها بضعة اعوام لما استطاع بنو مروان الاستبداد بالامر ، بما لا ينطبق على كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » . قال هذا وقد ظهر التأثر فى عينيه وخشن صوته ، ثم واصل كلامه قائلا : « ليت شعرى كيف يسود العتاة الظلمة ؟ وكيف يتغلب قوادهم المنافقون الذين يرمون بيت الله بالحجارة على رجال يعبدون الله ويعملون بكتابه ؟»

فأدرك حسن انه يئس من الفوز ، وأراد أن يستطلع ما اعتزمه فقال : « لا يخفى على مولاى ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ، ولا عجب فى أن تكون الغلبة فى الدنيا لمن همهم الدنيا ، فقد كانت الغلبة لمعاوية على الامام على صهر الرسول وابن عمه ، وقد فتك ابن زياد بالحسين وآل بيته . ذلك لأن الدنيا شيء والآخرة شيء آخر ، وقد انقضى العصر الذى ساد فيه الحق والدين والتقوى ، واصبح الحكم الآن لا يتولاه غير أهل الدهاء والسياسة و . . » . ولما بلغ الى هنا بلع ريقه وبدا فى وجهه انه أراد التصريح بشيء ثم توقف خوفا او حياء . فنظر عبد الله اليه نظرة من يتوقع اتمام الكلام ، فأتم حسن كلامه قائلا : « ولا اخفى على مولاى أن آل مروان ، وآل ابى سفيان قبلهم ، لم يخلص لهم الملك دون بنى هاشم وغيرهم الا بالدهاء والسياسة وبذلهم المال لدعاتهم وانصارهم » . فلما ذكر المال ، بدا الانقباض فى وجه عبد الله وقال : « لا تذكرنى بالمال وأمره فقد كنت شحيحا به لأنه مال بيت الله ، ولعلى لو بذلته للأحزاب لم يستطع ابن مروان الاستبداد بالامر دونى . ولكنى لا التمس الدنيا بالباطل ولا ابتياع الانصار بالمال »

فقال حسن : « لو أن مولاى اصغى لمشورة الحصين بن نمير يوم وفاة يزيد لما صار الامر الى بنى مروان . . »

فقطع عبد الله كلامه وقال : « سمعتك تذكر هذا الامر قبل اليوم ، ولقد سمعته كذلك من كثيرين ، على انى لو اطعت الحصين ورافقته الى دمشق لما بايعنى بنو امية . فهؤلاء شق عليهم أن يبايعونا فى ديارنا وبين اهلنا . فكيف لا يكون ذلك اشق عليهم فى ديارهم وبين احزابهم . ومع ذلك فقد قضى الامر . وما بعثت اليك الا لأوصيك بأختى خيرا ، فاوص بها خالدا ، وأبلغه عنى انى أوصيه كذلك بأن يدع امر الخلافة فانها شاقة على اهل الدين فى هذا الزمان ، وليشتغل بما

هو مشتغل به من العلم والكيمياء فذلك خير له واجدى عليه . ولا اخفي عليك انى قطعت الامل فى الفوز بعد ان نبذنى الاهل والاصدقاء خوفا من الموت ، ولو انى طلبت الدنيا لما امتنع على الحصول عليها . ولكنني اطلب الآخرة ، وقد دعوت الناس الى الحق فلم يصغوا ، فلم يبق الا ان اتركهم وشأنهم . وقد انبأني الجواسيس بأن الحجاج وقومه عزموا على مهاجمتنا فى الغد ، ويفعل الله ما يشاء » . قال ذلك وغص بريقه فتشاغل باصلاح غمد حسامه ، ثم وقف وقال : « تعال معى الى امى لأخبرها بما استقر عليه الراى فى شأن رملة »

فوقف حسن ومشى فى اثره وقد لاح ضوء الفجر ، فدخلا حجرة راى حسن فى صدرها امراة عجوزا عرف انها اسماء ذات النطاقين أم عبد الله ، وهى بنت ابى بكر الصديق ، واخت عائشة زوج النبى . وكانت قد كف بصرها وبدا الهرم فى وجهها ، فحياها عبد الله وقبل يدها ، فقبلته وتنهدت ثم قالت : « ما وراءك يابنى ؟ مالى أشم منك رائحة الحنوط ؟ »

قال : « انى اتحنط كل يوم استعدادا للموت ، وأما الآن فقد جئتك بحسن الذى ذكرت لك قدومه من عند خالد بن يزيد لخطبة اختى رملة وقد اخبرته بقبول الخطبة فان خالدا لأهل لذلك »

فرفعت راسها وهى تجيل عينيها المطبقتين كأنها تحاول ان تنظر الى ابنها ، ونظر حسن الى وجهها وقد تغطى جانباه بالنقاب فرأى دمعتين تقطرتا من جانبى انفها بغير أن يبدو للبكاء أثر فى وجهها . فلم يستغرب صبرها وتجلدها لما سمعه من ثبات جأشها وقوة قلبها . ثم قالت : « لقد صنعت خيرا يابنى » . وسكتت وكأن فى نفسها شيئا تكتمه ثم قالت : « فى اى ساعة نحن من الليل الآن ؟ »

قال عبد الله : « نحن فى الصباح » . وما اتم كلامه حتى سمع فى الخارج دوى شديد اعقبته صيحات الاستنكار من الواقفين بالباب الخارجي للمسجد ، فأدرك حسن ان الهجوم قد بدأ ، وان ما سمعوه هو صوت وقوع حجارة المنجنيقات على الكعبة . ونظر الى عبد الله فاذا هو قد تغيرت سحنته وبان القنوط فى وجهه ثم التفت الى امه وقال : « لقد بدأ اعداؤنا هجومهم الاخير يا اماه ، وقد آليت الا افعل امرا الا استشرتك ، فبماذا تشيرين ؟ »

فنظر حسن الى اسماء وتفرس فى وجهها فاذا هى تزيح النقاب عن وجهها ، ثم قالت وشفتاها ترتجفان من الشيخوخة لامن الخوف : « انت اعلم بنفسك يابنى ، فان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك . ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى امية . وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد أنت ، اهلكت نفسك

ومن قتــل معك . وان قلت : (كنت على حق فلمـا وهن اصـحابى ضعفت) . فهذا ليس فعل الاحرار ولا اهل الدين ! »

فقال عبد الله : « انما اخاف أن قتلنى اهل الشام ان يمثلوا بى »

فقالت : « يابنى ان الشاة لا تتألم بالسلخ ، فامض واستعن بالله »

فقبل عبد الله راسها وقال : « هذا رايى الذى اصر عليه حتى اليوم ، ووالله يا أماه ماركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها . وما دعانى الى ذلك الامر الا غضبتى للحق ولقد زدتنى برايك هدى وبصيرة » . ثم سكت قليلا ، وقال : « اسمعى يا أماه ، انى اشعر بأنى مقتول فى يومى هذا ، فلا يشتد حزنك ، وسلمى الامر لله ، فان ابنك لم يتعمد ايثار منكر ، ولا عمل بفاحشــة ، ولم يجر فى حكم الله ولم يغدر فى امان ولم يتعمد ظلم مسلم او معاهد . ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل انكرته . ولم يكن شيء آثر عندى من رضا ربى »

فقالت وقد بان الجد فى جبينها : « ارجو أن يكون عزائى فيك جميلا . ان تقدمتنى احتسبتك ، وان ظفرت سررت بظفرك . فامض لشأنك ، والله معك ، ولئن قتلت ففى سبيل الله »

ثم اتجه عبد الله الى حجرة اخرى ليودع اخته ، وظل حسن واقفا فى انتظار عودته ، فسمع اسماء تتأوه وقد رفعت وجهها وقالت :

« اللهم ارحم طول ذلك القيــام فى الليــل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبى . اللهم قد سلمتــه لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فيه ثواب الصــــابرين الشاكرين » . فاستغرب حسن صبرها وقوة ايمانها . ثم عاد عبد الله اليها وهم بتقبيل يدها ، فأمسكت بيده وضمته الى صــدرها قائلة : « هذا وداع فلا تبعد »

فقال : « انما جئت مودعا فكأنى بهذا اليوم آخر ايامى من الدنيا »

فخفق قلب حسن تأثرا ، وترقرق الدمع فى عينيه ، ونظر الى أسماء فاذا هى لم يبد فى وجهها مايدل على التأثر ، فعلم أن ثباتها فوق ماكان يسمعه عنها ، ثم ما لبث أن سمعها تقول لعبد الله : « امض على بصيرتك وادن منى حتى اودعك » . فدنا منها وعانقها فعانقتــه واحاطت يديها بخصره وقبلته فوقعت يدها على الدرع فنفرت وقالت : « ماهـــذا صنيع من يريد ماتريد ! » . فقال عبد الله وقد بدا الخجل فى وجهه : « ما لبسته الا لأشد به متنى » . فقالت : « انه لايشد متنــا . البس ثيابك مشمرة » . فمد عبد الله يده الى الدرع ونزعها ، ودرج كميه ، وشد اسفل قميصه وجبته تحت ثيات سراويله وأدخل اســـفلها تحت المنطقة . ثم خرج »

مقتل بن الزبير

خرج حسن فى أثر عبد الله بن الزبير وقد عزم على البقاء معه حتى النهاية . وشعر عبد الله بذلك ، فالتفت اليه وقال : « ناشدتك الله الا تعرض نفسك للقتل »

وكان حسن على يقين من فوز جند بنى امية ، لكثرتهم واتحادهم ، ولكنه ظل سائرا فى أثره حتى خرجا من المنزل ، فلما وقع نظرعبد الله على المنتظرين هناك وقد تهيأوا للقتال وغطت الدروع أبدانهم ، قال لهم : « اكشفوا وجوهكم حتى انظر اليكم » . ولما كشفوها علم انهم بقية اهله فقال : « يا آل الزبير لو طبتم بى نفسا عن انفسكم كنا اهل بيت من العرب اصطلحنا فى الله . فلا يفزعكم وقع السيوف فان ألم الدواء للجراح اشد من ألم وقعها . صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم ، غضوا أبصاركم عن البارقة ، وليشغل كل امرىء قرنه ، ولا تسألوا عنى فمن كان سائلا عنى فانى فى الرعيل الاول . احملوا على بركة الله »

وبقى حسن حائرا لايستطيع الاشتراك فى القتال ، نزولا على رغبة ابن الزبير . وحتى لايراه الحجاج أو بعض رجاله فيثبت لديهم ما اتهمه به عرفجة . فآثر الالتجاء الى المسجد حتى تنتهى المعركة . فلما مضى عبد الله ومن معه الى القتال التفت فراى أعلام بنى أمية قد ملأت الطرقات ، فسارع الى المسجد الحرام ، ولكنه لم يستطع الدخول، لأن الحجاج كان قد اوقف ببابه أناسا ليمنعوا الناس من دخوله ، فدخل منزلا الى جوار المسجد وأطل من كوة فيه فراى ابن الزبير يناضل مناضلة الاسود ، ويتنقل فى المعمعة من جهة الى أخرى ، وبجانبه ابن صفوان يدافع عنه ، ثم سمع عبد الله يقول : « ويلمه فتحا لو كان له رجال » . فقال له ابن صفوان : « اى والله والف » . فحدثت حسن نفسه بأن يمضى اليهما ويقاتل معهما ، ثم لاحت منه التفاتة فراى الحجاج قد ترجل واقبل يسوق الناس الى مقاتلة ابن الزبير بعد أن رآهم لايقوون على الوقوف بين يديه ، وكان حامل علم ابن الزبير يقف بباب شيبة من ابواب المسجد ، فهجم الحجاج عليه بمن معه ، فرآهم ابن الزبير فسارع الى صدهم عنه ، واستمر القتال على اشده بباب

المسجد ، ثم دخله الفريقان ، ولم يمض قليل حتى استطاع الحجاج ورجاله قتل صاحب العلم واخذوه منه ، فتفرق رجال ابن الزبير من حوله ، ولكنه ظل يقاتل حتى قتل هو وابن صفوان ؛ ثم رأى حسن رجلا اسرع الى جثة عبد الله وحز راسه وحمله الى الحجاج ، فلما رأى الحجاج الراس سجد وأكرم صاحب البشارة . ثم امر بأن يحمل راسا ابن الزبير وابن صفوان الى المدينة ، وبأن تصلب جثة ابن الزبير فى الحجون — وقد صلبوها اياما — وهكذا ايقن حسن بانتصار الحجاج ، وتذكر ان سمية عنده فى المعسكر ، فراى ان يسارع اليها فيه ، فاما نجا بها ، واما عاد الى محبسه ، وسرعان ما تسلل الى المعسكر ، وهو يحاذر ان يراه أحد ممن يعرفونه فيحبط مسعاه ، وقال فى نفسه : « لقد خلا الجو لعبد الملك بن مروان وأصبحت الخلافة لاينازعه فيها منازع » .

وكان حسن كلما دنا من معسكر الحجاج تمثلت له النجاة بسمية هينة فمشى وهو لايزال بلباس الحرس والحربة بيمينه فلا يشك الذى يراه عن بعد انه من حرس الحجاج فلما دخل المعسكر لم ير فيه الا نفرا قليلا من الحامية . فالتمس خباء النساء وقلبه يخفق لما يتنازعه من عوامل الرجاء والخوف والحياء والشوق . فبينما هو يرجو السعادة بالفرار بسمية كان يعد الفرار عارا ، ولكنه هونه على نفسه لأنه لا يرى غير الفرار سبيلا الى نجاته والا فانه سيكون سببا لتعاسة سمية أو قتلها . فمشى فى طريقه الى المعسكر ، وهو فى ملابس الحراس التى اخذها من خادمه ، فلما بلغه راى ان يذهب اولا الى خيمة السجن ليرى ماتم فى أمر خادمه الامين وليستعين به على انقاذ سمية ، فلما بلغ الخيمة رآها خالية ، فوقف برهة يفكر فى الامر ، ثم راى ان يعجل بالذهاب الى سمية فى الخباء لئلا تفوت الفرصة . وفيما هو سائر وقد اوشك ان يبلغ الخباء سمع صوت ابواق ، فالتفت فراى جماعة من الفرسان عائدين من مكة ، فأسرع فى مشيته ليبتعد عنهم . وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فلما أطل على الخباء لم ير حوله احدا ، وخشى أن تحول بغتة سمية دون ما يبغيه من سرعة الخروج بها ، لأنها لم تره منذ خروجه من المدينة ، فتمهل فى سيره ، وأخذ يبحث لمعرفة مدخل الخباء ومخرجه ، وهل سمية وحدها ، أم عندها احد من النساء أو الخدم أو غيرهم

وفيما هو يدور حول الخباء سمع خفق نعال فيه ، فأصاخ بسمعه فراى شبحا خارجا ، وما تفرس فيه حتى ادرك انه امة الله جارية سمية ، ولم يكن قد رآها من قبل ولكنه سمع بأوصافها اما هى فكانت قد راته فى دار عرفجة بالمدينة ، فلما راته والحربة بيمينه وعليه ثياب حراس الحجاج ، استعاذت بالله ، ثم ما لبثت ان تفرست فيه فعرفته وقالت : « حسن ؟ »

قال : « نعم . أين مولاتك ؟ »
قالت : « هنا » . واشارت الى الخباء الذى خرجت منه

قال : « وكيف حالهـا ؟ » . قالت : « انها فى حال تدعو الى الرثاء حزنا عليك ، وخوفا من ذلك الظالم ولاسـيما بعد أن فرغ من الحرب ، وقتل ابن الزبير ، فتحلل بذلك من قسمه »

فاضطرب حسن وهم بالدخول الى الخبـاء ولـكنه خشى ان تسىء البغتة الى سمية فقال لأمة الله : « ادخلى وانبئيها بقدومى لنخرج معا من هنا الآن »

فدخلت أمة الله ، ولم يصبر حسـن الا قليلا ثم دخل فى اثرها فوجد سمية جالسة وهى تفرك عينيهـا بأناملها وتنظر الى أمة الله وتقول : « اصحيح ماتقولين ؟ حسن هنا ؟ ! حسن جاء ؟ ! . لا . . لا . . انك تمزحين ، او انا فى حلم ! »

ولاحظ انها قد تغيرت وامتقع لونها لفرط ماقاسته ، فازداد خفقان قلبه ، واجابها بدلا من امة الله فقـال : « بل انت فى يقظة ياحبيبتى . وها أنذا جئت لانقاذك . هلم بنا نخرج الآن من هـذا المعسكر . هيـا ياسمية فان الوقت ضيق والخطر قريب »

فوقفت وركبتـاها تصطـكان ، ولبست نعالهـا والتفت بعباءتها ، وقالت وهى ما زالت مذهولة : « ما أحسن هذا اللقاء ، هلم بنا »

وكانت امة الله مشتغلة بأخذ بعض الطعام للتزود به خلال الرحيل ، ولكنها كانت أكثر منهما انتباها لما حولها . فسمعت وقع حوافر خيل قادمة من بعيـد فأسرعت اليهما وهى تقول : « لقد جاء الفرسـان . واظنهم الحراس الذين كانوا حول الخباء بالامس »

فلما سمعت سمية ذلك التفتت الى حسن وقالت وصوتها يرتجف : « حسن . حسن . لاتخرج فانهم اذا رأوك خارجا اشـتدت شبهتهم فيك . . لاتخرج . واذا كانوا قد جاءوا للقبض عليك فلنمت معا »

فثارت الحمية فى رأس حسن ، وهان عليه لقاء الالوف تفانيا فى الدفاع عنها فقال : « لاعاش من يمسك بسوء وأنا حى »

وشعروا باقتراب الخيل من الخباء ، وكان الليل قد سدل نقابه وبدأ الظلام يتكاثف فأمسكت سمية بيد حسن ، وقالت وهى ترتعد : « اما ان نعيش معا ، واما أن نموت معا » . ولاتسل عن خفقان قلبيهما تأثرا للقاء الفجائى وما صحبه من بواعث الاضطراب لقدوم أولئك الفرسان ، فبقيا واقفين صامتين ، وقد امتقع لونهما وتصبب العرق من وجهيهما وارتعدت فرائصهما ، ومع ذلك كان حسن يشعر بأنه أشد بطشا من

الأسد ، وبأنه قدير على انقاذ سمية من جيش بأكمله . وكذلك كانت سمية قد أنساها اللقاء كل خوف على نفسها ، واصبح كل همها الا يصاب حسن بسوء ، فأمسكت به وهى لا تدرى أتحرضه على الفرار بنفسه ولا صبر لها على فراقه بعد هذا اللقاء ، أم تفر هى معه وفى فرارها خطر عليه ، أم تستبقيه فى الخباء معها وفى بقائه تهمة كبرى ؟

مرت كل هذه الهواجس بهما فى لحظة انتظارهما وصول الفرسان القادمين ، ومعرفة ما وراءهم ، فلما وصل الفرسان الى الخباء، أحدقوا به من جميع الجهات ولكنهم ظلوا مرابطين خارجه ، كما كانوا بالأمس ، فاطمأن قلب حسن ورجح أن قدومهم ليس لشبهة او تهمة جديدة . فأخذ يهدىء روع سمية حتى سكن جأشها ، وقضيا ساعة يتبادلان الأحاديث ، وقد نسيا الحجاج وفرسانه ، وحسبا أنهما فى مكان غير ذلك المكان ، بل خيل لهما أن أولئك الفرسان انما هم ملائكة من السماء جاءوا لحراستهما ، فى تلك الساعة التى تزيد قيمتها عندهما على قيمة الحياة كلها

□

وبينما حسن وسمية سابحان فى ملكوت المناجاة ، يتشاكيان ما مر بكل منهما من أحداث الفراق سمعا طنين سهم مرسل فى الفضاء ، ثم سمعا صوت ارتطامه بعمود الخباء من الخارج . وكانت امة الله مشغولة ببعض الشؤون فى طرف الخبـاء بالقرب من موقع السهم فلما سمعت صوت وقوعه أطلت من الخباء فلم تر غير الفرسان . ثم رات السهم يستقر فى العمود ، فخفت الى مكانه وانتزعته فاذا فى موضع الريش منه رق مقوى ، فعادت به مسرعة الى حسن ففتحه فاذا هو كتاب من عبد الله خادمه يقول فيه : « اطلع عرفجة على مقركما فوشى بكما وارسل الفرسان للقبض عليكما فتجلدا والله مع الصابرين »

فاضطرب حسن وأيقن بوقوعهما فى الخطر ، ولم ير بدا من تهيئة كل أسباب الاطمئنان لسمية ، وكانت قد قرات الكتاب معه فامتقع لونها وتملكها الجزع فابتدرها قائلا : « لا بد لى من الذهاب الى الحجاج بنفسى ، فانى لا اظنه أرسـل فى طلبى الا معتقدا انى فررت من محبسى بالأمس »

فقطعت كلامه قائلة : « أتذهب الى الحجاج وأنت تدرى مايكون منه ؟. اعوذ بالله من شر هذا الرجل . انه لايعرف غير القتل وسفك الدماء . ولاشك فى ان نقمته عليك قد اشـتدت بعد أن علم بأنك عندى هنا .

يا ليتني مت قبل هذا . دعني اذهب بدلا عنك فأذهب فداء لك ، فاني مقتولة على اى حال »

فوضع يده على كتفها وقال : « لا ارى الامر يقتضي كل ذلك ، ولئن قتلت فما كنت انت سبب قتلى ، وعسى الا اقتل ، وقد كنت استطيع الفرار بنفسي من بين أيدى هؤلاء الفرسان ، ولكنى لا اريد النجاة وحدى ، واخاف اذا خرجت معى ان تقعى بين أيدى احدهم فتلحقك اهانة ، وهي عندى شر من القتل . اما ذهابى الى الحجاج بنفسى فانه احفظ لشرفى وشرفك ، وما يأتى به القدر لامناص منه . هذا ابن‌الزبير كان الى صباح هذا اليوم يسمونه امير المؤمنين فقتلوه وصلبوه وحملوا راسه الى المدينة ، وقد استقبل الموت باسما وامه تشجعه على استقباله ، فلا توهنى عزيمتى ، ولا تخوفينى لقاء الحجاج . ولكن اذا قدر لى الموت فاذكرى انني ذهبت شهيدا فى سبيل هواك » . قال‌ذلك واختنق صوته ، فتساقطت دموعها على خديها تأثرا ، وكانت مطرقة فرفعت وجهها ومدت يدها الى جيبها واخرجت لفافة السم وقالت : « ليطمئن قلبك فقد اعددت مايلحقنى بك اذا اصابك سوء . وهب انك نجوت وأراد هذا الظالم أن يتخذنى زوجة له بالفعل ، فان هذا السم كفيل بانقاذى من ذلك »

فأعجب حسن باخلاصها له وانفتها وقال : « الحق ان مثل عواطفك النبيلة هذه لاتكافأ بأقل من الروح ، ولكن عسى الله أن يأتى بالفرج »

ثم رفع يده عن كتفها وقال : « استودعك الله ياسمية وموعدنا غدا ان شاء الله » . قال ذلك وخرج ولم ينتظر جوابها لئلا تحاول ان تثنيه عن عزمه بدموعها . فلما صار خارج الخباء صاح بأعلى صوته : « أين عريف هذه الكوكبة ؟ »

فتقدم اليه فارس منهم وقال : « وماذا تريد منه ؟ »

قال : « اريد أن يهدينى الى فسطاط الامير لأذهب اليه »

فقال : « لم يأذن لنا الامير فى الرجوع اليه ، وانما امرنا ان نحرس هذا الخباء حتى يأتى هو ، ولعله آت الساعة »

فأدرك‌حسن ان ذلك تدبيرعرفجة ، وانه أراد أن يرى الحجاج حسنا وسمية معا ليثير غيرته ، فاعتزم أن يحبط محاولته فقال : « ولكننى فى حاجة الى رؤية الامير الساعة »

قال الفارس : « لايمكنك الخروج من هذا المكان »

قال : « لابد من خروجى » . ثم هم بالعدو ليذهب توا الى خيمة الحجاج ويحاول احباط مكيدة عرفجة ، ولكن الفارس حذره قائلا : « خير لك ان تمكث هنا »

فقال : « واذا لم امحب

قال : « اننا مأمورون بابقائك هنا حيا ريثما يجيء الامير »

فادرك حسن ان الحجاج انما اراد الابقاء عليه ليبحث التهمة التى جهها الى عرفجة فى شأن الكرسى ، فتجلد وقال : « أقول لكم لابد من هابى الساعة الى الامير ، والا خذونى الى السجن أمكث فيه الى لصباح » . قال ذلك ومشي فتجمهروا حوله ليمنعوه ، واذا بفارس قبل من بعيد ووراءه بضعة فرسان ، فلما رآه حراس الخباء تهامسوا نيما بينهم ثم ترجلوا . ففهم حسن ان الحجاج وحاشيته هم القادمين. فوقف ينتظر مايكون

وكان الحجاج مازال بثيابه التى حارب فيها ابن الزبير وقد غطته الدروع هو وجواده وعليها بقع الدماء . فلما اقبل قال للفرسان : « ماذا تفعلون هنا ؟ »

فقال عريفهم : « نحرس هذا الخباء لنمنع من فيه من الخروج »

قال : « ومن امركم بذلك ؟ »

قال : « امرنا به عرفجة باسم مولانا الامير »

فأطرق الحجاج وقد أدرك ان عرفجة لا هم له الا الايقاع بحسن ولم يكن الحجاج يعلم بمجيء هذا الى خباء سمية ولا بما أمر به عرفجة ، وانما جاء الى خباء نسائه لأنه تحلل من قسمه بعد مقتل ابن الزبير ، فلما علم بما امر به عرفجة ، سأل العريف : « وهل حاول احد الخروج ؟» فقال العريف وهو يشير الى حسن : « وجدنا هذا الرجل خارجا ، وطلب الذهاب الى الامير »

ونظر الحجاج الى حسن، فلما عرفه تحقق صحة ما اتهمه عرفجة به ، وعظم عليه أن يراه خارجا من خباء نسائه . فهم بأن يامر بقتله ولكنه تذكر التهمة التى وجهها الى عرفجة فرأى أن يصبر عليه الى الغد حتى يثبت التهمة على عرفجة ، ثم يقتلهما معا شر قتلة

وكان الحجاج مع عتوه وظلمه ذا دهاء وحكمة ، فكظم غيظه ريثما يتحقق الامر فقال : « خذوه الى السجن وموعدنا الغد »

فسر حسن لذلك التأجيل ، ومضى مع الحراس وهو يلتفت الى الوراء ليتحقق ابتعاد الحجاج عن خيمة سمية غيرة عليها منه وان كا زوجها

محاكمة حسن وعرفجة

قضى حسن ليلته فى السجن وعليه الحراس . وفى الصباح ساقوه الى فسطاط الامير باكرا وقد امر الحجاج الا يحضر المجلس احد غير عرفجة وحسن . فدخل حسن ووقف وسط الفسطاط ، وظل عرفجة جالسا بجانب الحجاج كأنه من خاصته وكان الحجاج اذا نظر الى حسن كاد يتميز غيظا ولكنه صبر نفسه حتى يثبت التهمة على عرفجة فقال له : « لقد كنت فى السجن من قبل ، فكيف خرجت منه ؟ »

قال حسن : « خرجت منه لأمر اقتضى هذا الخروج ، ثم عدت اليه طائعا ولو اننى اردت الفرار ما رجعت »

فقطع عرفجة كلامه وقال ساخرا : « ذهبت لأمر ضرورى ؟ . اما ذهبت الى عدونا وكنت فى منزله طول ليل امس ، واذا كنت قد رجعت فذلك لكى تذهب الى الخباء . لا الى الحبس »

فالتفت الحجاج الى عرفجة لفتة ظهر الغضب فيها وادرك عرفجة منها تغير الحجاج عليه فأراد تخفيف غضبه فقال : « لا اجهل انى جاوزت الحد بتكلمى فى حضرة الامير ، ولكننى لم استطع الصبر على نفاق هذا الغلام وخداعه ، فهو يوهمنا انه ليس من الاعداء ولا من الجواسيس ، ثم يفر من السجن ليلا ويحمل اخبارنا الى عدونا ، ويرجع بعد ذلك لكى يوهمنا انه رجع الى السجن بينما الامير قد رأى بنفسه لأى شىء رجع »

فأدرك الحجاج ان عرفجة يعرض بوجود حسن فى الخباء ليثير غضبه عليه فيأمر بقتله توا قبل استكمال التحقيق ، فصبر والتفت الى حسن وقال : « لايهمنا السبب الذى خرجت لأجله الى ابن الزبير ، فانك متهم عندنا فى اى حال . وسنبحث امر دخولك خباء نسائنا فيما بعد . اما الآن فانك اتهمت صديقنا عرفجة بالامس ، ونريد ان نعلم ماحملك على هذا الاتهام ، واى دليل على صحته لديك ؟ »

فاضطرب عرفجة لعودة الحجاج الى التحقيق فى تهمته ، وخاف عاقبة تملق الحجاج له بذكر الصداقة ولكنه تظاهر بالاستخفاف وجلس يصغى لما سيقوله حسن ، فقال هذا : « اما كونه خائنا لدولة بنى امية

فأمر لاشك فيه ، وقد رايته بعيني واقفا بين يدى محمد بن الحنفية فى الشعب ، ومعه الكرسي الذى كان المختار بن أبى عبيد يسميه كرسى على ، ويستغله فى الدعوة الى بيعة ابن الحنفية . وقدسمعته يطلب من محمد امداده بالمال للخروج على بنى امية فى العراق ، والدعوة الى بيعته لأنه فى زعمه أولى من بنى أمية بهذا الامر »

وكان الحجاج مصغيا لما يسمعه وهو يتفرس فى حسن ويراقب حركاته وسكناته فرجح انه صادق فى دعواه . فقال له : « ثم ماذا ؟ »

قال : « أما ابن الحنفية فاستخف بطلب عرفجة وردعه عن القيام بهذا الامر ، ثم أمر باحراق الكرسى ، فأحرق بين يديه ، واخرج عرفجة من عنده مهانا »

ورأى عرفجة ان الحجاج اوشك ان يصدق دعوى حسن ضده ، فلم ير سبيلا الى دفع تلك التهمة الا بالخداع والمغالطة ، فوقف ووجه خطابه الى الحجاج وقال : « اذا كان لكلام هذا الغلام اقل تأثير فى نفس مولاى فليأمر بقتلى حالا ، ولكن هذا الغلام كاذب فى كل ما ادعاه ، وقد اختلق هذه التهمة ليخفف بها ذنبه الذى لم يرتكبه أحد قبله »

فقال حسن : « اما ذنبى فلا أنكره ، وسأبسطه لمولاى ، وله أن يحكم بعد ذلك بما يشاء ، واما انت . . »

فقاطعه عرفجة قاصدا ان يشغل الحجاج عن ذنبه هو ، وقال له : « ان ذنبك لايحتمل الانكار لأنه ظاهر للعيان. واما اتهامك اياى بالمروق من دعوة بنى مروان فاختلاق محض لم نسمع بمثله . واغرب ما فيه انك لم تستطع اقامة دليل عليه ، ويستحيل ذلك عليك » . قال ذلك وجلس وكأنه فاز على خصمه بالحجة والبرهان

ولكن الحجاج لم يعبأ بذلك فالتفت الى حسن وقال : « لاتصح دعوى بلا بينة ، فما هى بينتك على ما تقول ؟ »

قال : « لقد كان الحديث بينه وبين ابن الحنفية سرا ولم يكن معهما ثالث »

فصاح عرفجة : « اسمعت يامولاى ؟ ارايت تناقض اقوال المنافق الكذاب ؟. اذا كان ذلك الامر حدث سرا بين اثنين كما قال الآن فما الذى اطلعه على هذا السر ؟ ! . ان جهله ابى الا ان يوقعه فى شر اعماله لأنه لم يحسن سبك أكذوبته »

وشك الحجاج فى صدق حسن فقال له : « لقد صدق عرفجة ، فانك زعمت انك عرفت ما دار بينهما وسردته على انك رايت وسمعت ، فكيف تقول بعدهذا ان الحديث كان سرا بينهما ولم يكن معهما ثالث؟»

فلما رأى حسن انخداع الحجاج بكلام عرفجة ، تجلد وقال : « نعم

يامولاى كان الكلام بينهما فى فسطاط مقفل ، ولكننى سمعت ورأيت خلسة ! »

فقال عرفجة : « لقد بدا من تناقض اقوالك انك لم تسمع ولم تر ، ولعلك تريد أن تستشهد بشريك لك فى خداعك وكذبك ، ولكنى لااقبل الا شهادة محمد بن الحنفيــة نفسه ؛ فانك اعترفت بأنه وحده الذى سمع حديثى »

فقال الحجاج : « هذا طلب عادل ، ما فى ذلك شك »

وهنا تذكر حسن انه ارسل بلالا الى ابن الحنفية ولايدرى ماذا كان من أمره معه فقال : « ان الامير ادرى منى بما يحول دون الوصول الى مثل هذه الشهادة . لأننا اما أن نستقدم ابن الحنفية الى هنا ، واما أن نذهب اليه أو نستكتبه . . »

فقطع عرفجة كلامه وقال : « لا أقبل الا شهادة ابن الحنفية نفسه »

فقال الحجاج : « ذلك شيء يسير ، وان ابن الحنفية مصــدق عندنا وان لم يكن على دعوتنا »

قال ذلك وتحرك عن وســادته كأنه يريد اســتئناف البحث ، ثم التفت الى حسن وقال : « بقي علينا النظر فى تهمتك ولكنها ليست تهمة نطلب اثباتها وانما نحن نسألك عما دعاك الى هذه القحة ؟ »

□

وكان حسن قد هم باخبار الحجاج انه ارســل من يأتى بشهادة ابن الحنفية ، فلما فاجأه بهذا الســؤال ، اضطرب ولـكنه تجلد وهم بأن يجيب فاعترضه عرفجة قائلا : « انا أروى لك الخبر كله يامولاى ، فانه يخجل أن يرويه »

فلم يعد حسن يصبر على نفاق عرفجة فرفع صوته وقال : « لـماذا اخجل ؟ . الخجل لأنى انقذتك من الموت انت وأهل بيتك ؟ . ام اخجل لأنك خدعتنى بوعدك ثم نكثت غير مرة ؟ . انى لم اعمل عملا اخجل من ذكره » . ثم وجه كلامه الى الحجاج وروى له باختصــار قصتــه مع عرفجة منذ انقذه فى العراق . وكان الحجاج مصغيا الى الحديث باهتمام ، فلما بلغ حسن الى سـعى عرفجة فى قتله قاطعه هــذا قائلا : « لقــد سعيت فى قتله يامولاى لأنى رأيت معه كتابا الى عبد الله بن الزبير الذى فر اليه بالامس ، وقد أبلغت امره الى طارق بن عمرو عامل المدينة فعده جاسوسا ، وارسل من يقتله . اما انى وعدته بابنتى فان مولانا الامير خطبهــا بعد ذلك فكيف ارفض شرفا اولانيــه الامير ؟ . والعجب كل

العجب انه بعد أن علم بأنها زفت الى الامير مابرح يرجو الحصول عليها . وبلغ من قحته انه جاء الى هـذا المعسكر محاولا اغراءها بالفرار معه . ولكن الله اوقعه فى أيدينا وسجناه ، ففر الى عدونا ليوقع بنا ، ثم اغتنم اشتغال الامير وجنده بالقتال وعاد الى حيث رآه الامير بنفسه خارجا من خباء سمية ، فاذا كان الامير يرى الصبر عليه حلما ، فانى لاصبر لى على مثل هذه الخيانة »

فوقع كلام عرفجة على قلب الحجاج وقوع النار على يابس العشب ، وثارت غيرته فالتفت الى حسن وقال : « هل تنكر انك تحب سمية ؟ »

قال : « كلا »

قال : « وتقول ذلك بين يدى وأنت تعلم انها من نسائى ؟ »

فظل حسن ساكتا ، فقال له الحجاج : « وهل هى تحبك ؟ »

فأدرك حسن انه اذا صرح بحبها له جر عليهـا الموت كما جره على نفسـه فأراد الرفق بها فقال : « لا ادرى .. »

فقال عرفجة : « انها لاتحبه ، ولكنها فتـاة ساذجة اسـتغل طيبة قلبها ليخدعها . ولاشك فى أنها تفاخر كل نساء المدينـة بما نالته من الحظوة لدى أمير جند عبد الملك وفاتح الحجاز وحامى ذمار بنى أمية »

فاستاء حسن من ذلك التدليس القبيح ولم يسعه الا توبيخ عرفجة فقال له بصوت ملؤه الرزانة والتعقل : « لا انكر أن سمية نالت أحسن ماتتمناه فتاة بزواجها من مولانا الامير ، ولكنك ياعرفجة لم تزف ابنتك الى الامير الا رغبة فى المال ، ولو مهرك هذا المال زنجى لزففتها اليه ! »

فصـاح عرفجة : « يا للقحـة . أتقول ذلك فى حضرة الامير وتذكر عروسه بين يديه على هذه الصورة ؟ ! » . ثم التفت الى الحجاج وقال : « لقد كفاك يامولاى صبرا وحلما على من لايستحق غير القتل والعذاب الاليم »

فالتفت حسن اليـه وقال : « اتحرض الامير على قتـلى يا عرفجة وانك لأكثر استحقاقا للقصاص ؟ . انك ملاق حتفك عاجلا جزاء خيانتك للدولة التى تدعى انك تدافع عنهـا . واما أنا فاذا قتلت فانى أذهب شهيد الامانة والحب الصحيح ! »

فالتفت عرفجة الى الحجاج وقال : « اسمعت يامولاى ؟ انه ما زال يذكر الحب »

فقال حسن : « وهل الحب عار ؟ . نعم انى احب سمية حبا شديدا ، كما انى اكره أباها كرها شديدا . ولا ابالى أن أصرح بذلك ولا ان أقتل فى سبيله . اما انت فانك ستقتل لان شهادة ابن الحنفية آتية عما قليل ،

وهى قاطعة بخيانتك للدولة ولامير المؤمنين »

وحانت منه التفاتة الى باب الفسطاط ، فرأى بلالا قادما من بعيد وقد علاه الغبار . فخفق قلبه ، والتفت الى الحجاج وقال : « أرجو أن يأذن مولاى فى ادخال هذا القادم ، فهو رسولي الى ابن الحنفية ، وعسى أن يكون قد عاد من عنده بكتاب يثبت صحة دعواى »

فقال الحجاج : « واى رسول ؟ »

قال : « رسول كنت أنفذته الى ابن الحنفية فى شعب على ليستكتبه شهادة بما دار بينه وبين عرفجة من حديث الكرسى . وهذا الرسول كان معى يوم حريق الكرسى ، فليأمر مولاى بادخاله لنرى ماجاء به »

فنادى الحجاج : « ياغلام » . فدخل أحد غلمانه فقال له : « نرى رجلا قادما برسالة فأدخله علينا »

فعاد الغلام ومعه بلال . واخرج هذا عقدة من القصب الغليظ سلمها الى الحجاج مختومة ، فقرأ الختم من الخارج فاذا هو ختم ابن الحنفية ، ثم أخرج من العقدة لفافة من الرق فتحها وقراها وعرفجة جالس وقد بانت البغتة فى وجهه ورقصت لحيته على صدره ، ولكنه عمد الى الاستخفاف والمغالطة فصار ينظر الى الحجاج ويبتسم كأنه واثق بأن الكتاب يتضمن براءته . فلما فرغ الحجاج من قراءة الكتاب التفت الى عرفجة وقال له : « لقد صح الصحيح ولم يبق مجال للمكر والخديعة . وهذا خط محمد بن الحنفية وختمه يثبتان صحة ما أتهمك به هذا الشاب »

فهم عرفجة بأن يتكلم ، ولكن الحجاج انتهره وقال : « لاتتكلم ولا تدافع فقد كفانا ماسمعناه من خلطك » . ثم صفق فجاءه الغلام فقال له : « الى بالجلاد » . فخرج وعاد برجل عليه قميص من جلد وعلى راسه عمامة مستطيلة وبيده سيف حاد . فأشار الحجاج بسبابته الى عرفجة وحسن وقال للجلاد : « ائتنى براسيهما » . فصاح عرفجة : « كيف تأمر بقتلى ولم تتحقق تهمتى ؟. ان هذه الرسالة مزورة » . وأخذ فى الصياح حتى سمع صوته كل من فى المعسكر فغضب الحجاج وصاح فى الجلاد : « هات رأس هذا أولا » . واشار الى عرفجة

فجره الجلاد حتى اركعه فى الفناء ونزع عمامته عن راسه ، فأخذ يلتفت الى الحجاج وهذا معرض عنه ، ولم يكن الا كلمح البصر حتى طار راسه من بين كتفيه والناس ينظرون

ووقف الجلاد بين يدى الحجاج وسيفه يقطر من دماء عرفجة ، فأشار الحجاج الى حسن وقال للجلاد : « وهذا ايضا »

فأمسك الجلاد بطوق حسن واراد جره الى الخارج . فقال حسن للحجاج : « أتقتلني بعد أن رأيت صدقي واخلاصي ؟ »

فصاح فيه الحجاج صيحة الغضب وقد احمرت عيناه وتجلى الغدر فيهما وقال : « اتسألني لم اقتلك وأنت مستحق الصلب منذ أيام ؟ . انما صبرت عليك حتى تحققت خيانة ذلك الغادر »

فقال حسن : « اذا لم يكن بد من قتلي فاقتلوني داخل هذه الخيمة وليس على مشهد من الناس »

فقال الحجاج : « اتشترط علينا ؟ » . ثم التفت الى الجلاد وصرخ فيه قائلا : « اقتله يا جلاد والا قتلتك ! »

فعاد الجلاد الى حسن وهم بجذبه ، فقال حسن : « لا تجذبني هكذا فما انا بخائف من الموت ، رغم اني واثق ببراءتي » . قال ذلك ومشى نحو الباب

وفيما هما يهمان بالخروج ، علا صوت قعقعة وسمع الحاضرون معها قائلا يقول : « البريد . . البريد . . بريد أمير المؤمنين »

وكانت عادة الولاة اذا جاء البريد الا يمنعوه او يؤخروه لحظة واحدة فلما سمع الحجاج بوصوله صاح قائلا : « ادخلوه »

ولم يتم كلامه حتى دخل عليه رجل كهل قد انهكه التعب وتعفرت ثيابه ، فترامى عند قدميه وسلم اليه كتابا مختوما . وكان حسن مشغولا بنفسه عن كل تلك المشاهد ولكن عينه ماكادت تقع على ذلك الكهل حتى بغت اذ عرف انه صديقه ابو سليمان ، وتذكر أنه كان قد ارسله الى خالد بن يزيد في الشام ليأتي منه بكتاب في شأن رملة الى ابن الزبير ، فهم باستئذان الحجاج في كلمة يقولها لذلك الرجل قبل قتله ، ليكلفه ابلاغ خالد رضاء ابن الزبير وان رملة في انتظاره لتزف اليه فيكون قد اتم مهمته قبل موته

ورفع حسن وجهه الى الحجاج فرآه تناول الكتاب ونظر الى خاتم الخلافة على ظاهره ، ثم قبله ووقف تعظيما للخلافة . ثم نظر الى الرجل الذي حمله وقال له بعد أن تفرس فيه : « من أين لك هذا الكتاب ؟ . أانت من عمال البريد ؟ »

فقال أبو سليمان : « لست منهم يامولاي ، ولكنهم حملوني على دواب البريد تعجيلا بابلاغ هذه الرسالة » . قال ذلك وهو يلهث وصوته ينقطع ويتلجلج من التعب والخوف

ففض الحجاج خاتم الكتاب وفتحه ، وجعل يعيد قراءته ويتثاءب ويحك شفتيه بأصبعه ويعبث بشعر لحيته وقد ظهر التأثر في عينيه . ثم اخذ ينظر الى حسن ويتفرس فيه ثم يعود الى قراءة الكتاب ويتأمل

فى ختمه ويقلبه بين يديه ، كل هذا وابو سليمان ما زال مستلقيا عند قدميه وهو يلهث من التعب وينظر الى وجه حسن كأنه لم يعرفه وحسن ينظر فى وجهه ، وكلهم سكوت ينتظرون مايبدو من الحجاج بعد تلاوة ذلك الكتاب

واخيرا ، اشار الحجاج الى الجلاد بالانصراف فانصرف ، ثم صرف بقية الحاضرين ولم يبق فى الخيمة الا هو وحسن وابو سليمان. فالتفت الى حسن وقال : « هذا كتاب من امير المؤمنين جاءنى بما كنت تبغيه انت . ووالله لولا حرمة الخليفة لم يكن فى الارض من ينجيك من القتل»

فلما سمع حسن ذلك ابرقت اسرته ولكنه لم يطمئن تماما لأنه لم يفهم فحوى هذا الكتاب ، فأطرق وظل ساكتا

فنادى الحجاج : «ياغلام» . ولما اقبل غلامه قال له : « ادع الكاتب» . فخرج ثم عاد بالكاتب ، فدفع الحجاج اليه الكتاب وقال : « اتل هذا علينا » . فتلاه وهذا نصه :

« من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، الى الحجاج بن يوسف امير جندنا فى الحجاز . أما بعد فقد بلغنى انك خطبت ابنة عرفجة المنافق ، وهى مخطوبة لحسن ، فأخذتها وحرمته منها . والرجل ينتمى الينا وتهمنا رعايته ، فاذا أتاك كتابى فاحمل الفتاة الى خطيبها ، وأمهره بما يقوم بالنفقة . ووالله لرجوعك عن الحجاز ولم تفتحه اهون على من ارتكابك هذا الامر مع رجل من صنائعنا وخاصتنا . وثقتى انك فاعل ما اقول والسلام »

فما فرغ الكاتب من تلاوة الكتاب حتى رقص قلب حسن طربا ، وخيل اليه انه فى حلم ، فجعل ينظر الى ماحوله ليتحقق انه فى يقظة ، ثم سمع الحجاج يقول له : « لم نتل الكتاب عليك الا لتعلم أننا ماتجاوزنا عنك الا عملا بأمر امير المؤمنين » . والتفت الى غلامه وقال : « أعطه الف دينار . وسمية طالق منذ الآن . . فامض الى خباء النساء وانبئها بذلك ، لتخرج معه من هذا المعسكر قبل غروب اليوم » . قال ذلك ووقف ، فخرج حسن والغلام ، وكان ابو سليمان قد استراح ووقف مع الواقفين ، فلما خرجوا خرج معهم وهو يهم بأن يخاطب حسنا وحسن يهم بأن يخاطبه

وقبل أن يتكامل خروجهم ، راوا فارسا يسوق جواده نحو فسطاط الحجاج والبغتة ظاهرة فى وجهه فلما وصل ترجل ودخل دون أن يستأذن وقال : « ان مصيبة حلت فى خباء النساء »

فلما سمع حسن الصوت علم أنه صوت عريف الحرس ، وخفق قلبه خشية أن تكون المصيبة حلت بسمية . ثم ما لبث أن سمع العريف يقول : « ان مولاتنا سمية سقطت لا حراك بها كانها تجرعت

سما أو أصابها الموت بغتة ! »

فأحس حسن كأن جبلا سقط على رأسه ، وكاد يفقد رشده وشغل عما كان فيه من سؤال ابى سليمان عن الطريقة التي حصل بها على ذلك الكتاب ، ثم لم يسعه الا ان يعدو نحو خباء سمية . ولم يكن ابو سليمان أقل بغتة منه ، اذ جاء ذلك الخبر صدمة قوية اطارت صوابه ، فسار فى اثر حسن الى الخباء ، وسار فى اثرهما بلال وعلام الحجاج

وكانت سمية قد سمعت ما دار بين الحجاج وفرسانه أمام خبائها ، كما سمعته وهو يأمرهم بأخذ حسن الى السجن الى الصباح ، وايقنت ان الحجاج قاتله لا محالة . ولكنها تعللت بالآمال البعيدة وصبرت حتى ترى ما يكون فى الغد ، فقضت ليلتها تفكر فى مصير حسن ، وأصبحت وقد اعدت السم وجلست وراء الخباء ، تستطلع انباء المحاكمة من الحراس . فلما جاءها احدهم بمقتل أبيها واخذ حسن لقتله اظلمت الدنيا فى عينيها ، وكانت امة الله قد يئست من تخفيف المصيبة عليها ولم تعد تستطيع مخاطبتها فتركتها وشأنها ، وبعد قليل جاءها أحد الحراس بنبأ قتل حسن داخل خيمة الحجاج ، فسارعت الى السم وابتلعته مرة واحدة ثم وقعت مغشيا عليها . فصاحت امة الله وولولت ، واخبرت الحراس أن مولاتها تجرعت السم فأسرع احدهم على جواده بالنبأ الى الحجاج

وظل حسن يعدو نحو الخباء ، وهو لا يكاد يرى طريقه ، ولا يبالى ما يعترضه من الاحجار او الأوتاد حتى أشرف على الخباء فصاح وهو لا يعى ما يقول : « سمية .. سمية .. أنا حى يا سمية »

ولما وصل الى الخباء أراد الفرسان منعه ، ثم تركوه بعد ان أخبرهم الغلام بأمر الحجاج فأطل من الباب فرأى سمية مستلقية وحولها نسوة يبكين ، وكأنها جثة بلا روح وقد أطبقت عيناها وامتقع لونها وانحل شعرها وابيضت شفتاها فلم يتمالك أن اندفع نحوها وفى يده خنجره فتفرقت النساء عنها ، ثم أخذ يجس يدها ويقول : « حبيبتى .. روحى .. منيتى .. ماذا أصابك ؟. ! تجرعت السم يأسا من حياتى ؟. انى حى يا سمية .. سمية اما ان تحيى مثلى أو اموت مثلك ! »

ولما ايقن بموتها ، هم بان يطعن نفسه بالخنجر ، ولكنه شعر بيد امسكت به وسمع صوتا يناديه : « تمهل يا حسن ، ان سمية حية لا بأس عليها » . فالتفت فرأى ليلى الأخيلية وبيدها كوب ماء جاءت لترش سمية به » . فقال لها : « ماذا تقولين ؟. كيف تحيا سمية وقد

تجرعت السم ؟! . انه كاف لقتل اشد الرجال ! »

فقالت ليلى : « ان الذى تجرعته ليس سما فلا تخف ! »

فوقف ذاهلا ثم قال لليلى : « لا تعلليني بالأوهام ، ان سمية قد ماتت ولابد لى من ان أموت لأنها ماتت لأجلى »

قال ذلك ورفع يده بالخنجر فصاحت فيه ليلى : « تمهل يا حسن ، ان سمية حية ولم تتجرع السم ولكنها فى غيبوبة »

قالت ذلك وتناولت بعض الماء بيدها ورشتها به فحركت راسها ثم حركت شفتيها وقالت : « حسن . . . حسن . . . قتلوك قتلهم الله !. انى ذاهبة اليك »

فلما سمع صوتها جثا عند راسها باكياً وقال لها : « سمية . . انت حية يا حبيبتى ؟. . انظرى الى . . انا حسن . . . انا حى يا حبيبتى وقد انقذنى الله . . افتحى عينيك يا سمية »

ففتحت عينيها فلما راته قالت : « ما هذه الأحلام ؟. حسن ؟ . اين نحن يا حسن ؟ »

فأجابها : « نعم أنا حسن يا سمية »

فجلست والقت نفسها عليه واخذت فى البكاء ، فقال لها : « لا تبكى يا سمية اننى فى خير »

فقالت له ليلى : « دعها تبكى لتنفس كربتها وتصحو من سكرتها » فسكت وترك سمية تبكى وتشهق ، ثم رآها ترفع راسها وتنظر الى وجهه وتصيح : « حسن حبيبى . . هل أنا فى يقظة أم فى منام ؟ »

فأجلسها بجانبه وهو يقول لها : « انظرى يا سمية ، ها أنذا حى ، وهذه صديقتنا ليلى . ان أسباب تعاستنا قد زالت والحمد لله »

فقطعت كلامه قائلة : « والحجاج ؟ . الحجاج ؟ » . وعادت الى البكاء

فقال لها : « لقد جاء أمر الخليفة بأن يطلقك ، ويردك الى خطيبك ، وسنخرج اليوم من هذا المعسكر » . فحدقت بنظرها فيه كأنها تتحقق ما يقول ، فأقسم لها بحبها أنه ما قال الا الحق

سكن روع سمية بعد ان اطمأنت الى نجاتها ونجاة حسن ، ثم التفتت الى من حولها فرأت أمة الله جاريتها ، وليلى الأخيلية ، وهند زوجة الحجاج ، فقالت : « ان السم تأخر فعله ، اليس كذلك ؟ »

فقالت ليلى : « انك لم تتجرعى الا دقيق الذرة . واما السم الذى ظننت انك تجرعته فهو معى » . قالت ذلك واخرجت من جيبها ورقة فتحتها وفيها السم وقالت : « الا تذكرين الليلة التى بت فيها عندك ؟.

انني غافلتك وابدلت بالسم دقيق الذرة ، لأني خفت ان تعجلي بتجرعه دون ما يدعو الى ذلك ، فالحمد لله على نجاتك »

فهمت سمية بليلى وقبلتها وقالت : « جزاك الله خيرا » . وكذلك شكرها حسن ثم قص عليهم ما دار بينه وبين الحجاج حتى اتى على ذكر ابي سليمان وكيف جاء في ابان الضيق فكان السبب في نجاته من الموت ، كما كانت ليلى سببا في نجاة سمية منه . وكان ابو سليمان واقفا خارج الخباء فناداه حسن فدخل وهو يقول : « هل يدخل عبد الله ؟ »

قال حسن : « اى عبد الله ؟ »

قال : « خادمك »

قال : « فليدخل . اني اعده صديقي »

ثم دخل عبد الله وهو يقول : « لا تظن اني تخلفت عن خدمة مولاى ، ولكنني أصبحت بعد اخراجك من السجن موضع غضب عرفجة ، فلم اعد أستطيع الظهور وبقيت متخفيا اتنسم الاخبار . فلما تحققت نجاتك جئت لأكون في خدمتك »

وكانت سمية قد صحت وتحققت انها فازت بحبيبها وانها نجت من ابيها فثبتت بصرها في حسن ، وثبت هو بصره فيها ، واكتفيا بتفاهم اللواحظ ، ثم قال لها : « الى اين تودين الذهاب ، وأين نقيم ؟ »
فأجابه ابو سليمان على الفور : « تقيمان عندنا بالمدينة »

فقال حسن : « لقد اذكرتني امر رملة ، هل اتيت بالكتاب من خالد الى ابن الزبير . وكيف حصلت على هذا الامر من عبد الملك ؟ »

فقص ابو سليمان قصة سعيه في ذلك الامر على يد خالد ثم قال : « واما ابن الزبير فقدجئته بالكتاب ولكنه وا اسفاه عليه قتل ولا ندرى ماتم بأهله »

فقال : « اهله في مأمن بمكة ، وقد صرح لهم قبل موته بقبوله مصاهرة خالد . وبعد عودتنا الى المدينة سأبعث عبد الله الى خالد بالخبر ليبعث من يحمل رملة اليه »

ثم التفت الى ليلى وقال لها : « لن أنسى لك جيلك ماحييت ، ويكفى انك كنت سببا لبقاء سمية كما كان العم ابو سليمان سببا لبقائى »

فقالت ليلى : « لافضل لى في ذلك وقد فعلته لأني جربت هذا العناء وعرفت شقاء المحبين وجهادهم ، ولا اظن احدا من هؤلاء ادرك من حالكما ما ادركته » . قالت ذلك وشرقت بريقها

فادرك حسن انها تشير الى قصتها مع توبة ، فشكر الله وسكت حتى لايثير عواطفها

ثم وقف ابو سليمان وقال : « كل ذلك بتدبير العزيز الحكيم ، وكل شيء يجرى بقضاء من الله سبحانه وتعالى . هلم بنا الآن نستعد للرحيل »

فلما تحققت سمية قرب سفرها التفتت الى هند بنت النعمان زوجة الحجاج وقالت : « ارجو أن يوفقك الله الى سبيل تنجين به كما نجوت انا »

فتلألأت الدموع فى عينى هند ولم تجب

□

وفى اصيل ذلك اليوم شدوا الرحال وساروا جميعا قاصدين المدينة ، ماعدا ليلى فانها التمست وجهة أخرى . ولما وصلوا ساروا توا الى بيت عرفجة وقد اصبح بما فيه ارثا شرعيا لسمية. وكذلك كل ماكان يملكه

وفى يوم وصولهم جاء سليمان لاستقبالهم وقد سر بنجاح مهمتهم. واحتفلوا بزفاف سمية الى حسن احتفالا شهدته سكينة بنت الحسين وكثير من سكان المدينة ، واكثرهم كانوا يكرهون عرفجة ، وغنى ليلتها طويس ، كما غنت عزة الميلاء ، وأجاد اشعب الطماع فى المجون حتى كادت تتمزق خواصر الناس من الضحك . وبعد انتهاء العرس سار عبد الله الى خالد فى دمشق ومعه كتاب من حسن بتفصيل ماحدث فى شأن رملة وقبول عبد الله بن الزبير خطبته لها فجاء خالد وتزوج رملة كما هو مدون فى التاريخ



روايات تاريخ الإسلام

صدر منها:

- فتاة القيروان
- الأمين والمأمون
- غادة كربلاء
- المملوك الشارد
- عروس فرغانة
- عبد الرحمن الناصر
- عذراء قريش
- فتح الأندلس
- أرمانوسة المصرية
- جهاد المحبين
- صلاح الدين الأيوبي
- الانقلاب العثماني
- العباسة أخت الرشيد
- استبداد المماليك
- أبو مسلم الخرساني
- شجرة الدر
- شارل وعبد الرحمن
- أحمد بن طولون
- فتاة غسان
- أسير المتمهدي
- الحجاج بن يوسف
- ١٧ رمضان